كينجي ميازاوا

قصص قصيرة يابانية

ترجمة هدى العلي

قصص قصيرة يابانية

تأليف
كينجي ميازاوا

ترجمة
هدى العلي

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنـــداوي

قصص قصيرة يابانية

Once and Forever

كينجي ميازاوا

Kenji Miyazawa

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣٣٤٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة اليابانية في تواريخ متعددة.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

سيد الأرض والثعلب	٧
الجنرال سون با-يو	١٩
أوزبل والفيل	٣٥
رقصة الغزلان الأولى	٤٣
دِبَبة ناميتوكو	٥٣
القِط البرِّي وجوز البلُّوط	٦٣
جورش عازف التشيلُّو	٧٣
توكوبي توراكو	٨٩
ساق الزنابق	٩٥
مطعم كثير الطلبات	١٠١
رجل التلال	١٠٩
رئيس الشرطة	١١٧
العنكبوت والبزَّاق والراكون	١٢٣
الدِّثار الأحمر	١٣٧
زهور الداليا وطائر الغرنوق	١٤٥
الضفادع الثلاثون	١٤٩
الجُرَذ الناكر للجميل	١٦١
ليلة المهرجان	١٦٧
حجر النار	١٧٣
مسيرةٌ عسكرية تحت ضوء القمر	١٩١

بستان كينجو ١٩٩
الكُمَّثرى البرِّية ٢٠٧
في أعماق الغابة ٢١٣
نجم صقر الليل ٢٢١

سيد الأرض والثعلب

عند الطرف الشمالي لامتداد من الأرض المكشوفة، ارتفعَت تلةٌ صغيرة. كانت التلة مغطَّاة بالكامل بالعُشب المدبَّب الحواف، وفي منتصفها كانت تقف شجرةُ بتولا أنثويةٌ جميلة وحيدة.

لم تكن الشجرة، في الواقع، كبيرةً جدًّا، لكن جذعها كان يلمع باللون الأسود، وتفرَّعَت أغصانها بنحوٍ متناسق جميل. في شهر مايو، كانت أزهارها الفاتحة اللون تبدو كالسُّحب، بينما في الخريف، كانت تتساقط منها أوراقها ذات اللونَين الذهبي والقرمزي وألوانٍ أخرى متعددة.

جميع الطيور، من الطيور المهاجرة، مثل طائر الوقواق والنُّهس، وصولًا إلى طائر النمنمة الصغير وطائرٍ أبيض العين، كانت تأتي لتحُط على الشجرة. لكن إذا كان هناك بازٌ شاب أو طائرٌ كبير آخر هناك، فإن الطيور الأصغر كانت تُراقبه عن بُعد دون الاقتراب منه.

كان للشجرة صديقان. كان الأول سيد الأرض، الذي كان يعيش في وسط وهدةٍ مستنقعية على بُعد حوالَي خمسمائة خطوة، والآخر كان ثعلبًا بني اللون، وكان دائمًا يظهر من مكانٍ ما في الجزء الجنوبي من السهل.

من بين الاثنين كان الثعلب، ربما، هو المُفضَّل لدى شجرة البتولا. فسيد الأرض، على الرغم من اسمه المهيب، يبدو متوحشًا للغاية؛ إذ كان بشعرٍ أشعث متدلٍّ كحزمة خيوطٍ قطنية مهترئة، وعينَين داميتَين، وملابس تتدلى عليه مثل قطع الأعشاب البحرية. كان دائمًا يمضي حافي القدمَين، وأظافره سوداء طويلة. في المقابل، كان الثعلب حسن المظهر للغاية، ونادرًا ما يتسبب في غضب الناس أو إهانتهم.

لكن إذا قارنتَ بينهما بعناية، فسيظهر لك أن سيد الأرض كان صادقًا، في حين أن الثعلب كان، ربما، غيرَ صادق قليلًا.

كان الوقت هو إحدى أمسيات بداية فصل الصيف. كانت شجرة البتولا تكتسي بأوراقٍ جديدة غضَّة تملأ الهواء من حولها برائحة تبعث على السرور. كانت مَجرَّة درب التبَّانة تمتد بيضاءَ عَبْر السماء، والنجوم تتلألأ تارةً وتخبو تارةً أخرى بطول السماء.

في تلك الليلة، جاء الثعلب لزيارة شجرة البتولا، مصطحبًا معه كتاب شِعر. كان يرتدي بدلةً زرقاء داكنة قد أحضرها للتوِّ من عند الخياط، وكان حذاؤه الجلدي ذو اللون البني الفاتح يُصدِر صريرًا طفيفًا أثناء سيره.

قال: «يا لها من ليلةٍ هادئة!»

قالت شجرة البتولا بهمس: «أوه، نعم!»

«هل ترَينَ كوكبة العقرب التي تزحف عَبْر السماء هناك؟ في الصين القديمة، كما تعلمين، كانوا يطلقون على أكبر نجم في الكوكبة «نجم النار».»

«هل هذا هو ما يُعرف بالمِريخ؟»

«لا يا عزيزتي. ليس المريخ. فالمريخ «كوكب». بينما هذا نجمٌ حقيقي.»

«إذَن ما الفرق بين الكوكب والنجم؟»

«حسنًا، لا يمكن أن يُضيء الكوكب من تلقاء ذاته. بمعنًى آخر، عليه أن يستمد الضوء من مكانٍ ما آخر قبل أن يكون بالإمكان رؤيته. أما النجم فهو ذاك الشيء الذي يُضيء من تلقاء نفسه. بالطبع، الشمس نجم. إنها تبدو لنا كبيرةً ومتوهجة، لكن إذا نظرنا إليها من مكانٍ بعيد جدًّا فسوف تبدو لنا مجرد نجمٍ صغير، تمامًا مثل جميع النجوم الأخرى.»

«عجبًا! الشمس إذَن ليست سوى أحد النجوم، أليس كذلك؟ إذَن أفترض أنه يُوجد في السماء عددٌ هائل من الشموس — لا النجوم — أوه ما أغباني! الشموس، بالطبع.»

ابتسم الثعلب برحابة صدر. وقال: «يُمكنكِ اعتبارها كذلك.»

«أتساءل لماذا بعض النجوم حمراء اللون وبعضها صفراء وبعضها خضراء.»

ابتسم الثعلب برحابة صدر مرةً أخرى وطوى ذراعَيه بوقار على صدره. تدلى كتاب الشِّعر من تحت ذراعه على نحوٍ خطير، لكنه بطريقةٍ ما توقف قبل سقوطه بقليل.

ثم تابع قائلًا: «حسنًا، في البداية كانت جميع النجوم كالسحب الكبيرة المنفوشة. ولا يزال يُوجد كثير منها في السماء. ويُوجد بعضها في مَجرَّة أندروميدا، وفي مَجرَّة أوريون،

وفي مَجرَّة كلاب الصيد. بعضها حلزوني الشكل، والبعض الآخر على شكل حلقاتٍ تشبه فم السمكة.»

«أوَدُّ أن أراها في وقتٍ ما. نجومٌ لها شكل فم السمكة؛ كم هذا رائع!»

«أوه، إنها كذلك، أستطيع أن أؤكد لكِ ذلك. لقد سبق أن رأيتُها في المرصد الفلكي.»

«عجبًا! أريد أن أراها أيضًا.»

«سوف أريكِ إياها. في الواقع، بعثتُ بطلب لشراء تلسكوب من ألمانيا. سوف يكون هنا في وقتٍ ما قبل الربيع القادم، وسأدعُكِ تنظرين إلى النجوم من خلاله عندما يصل.»

كان الثعلب قد قال ذلك دون تفكير، ولكن في اللحظة التالية كان يقول في نفسه: «يا ويلي! ليتني لم أحضُر إلى هنا وأخبر صديقتي الوحيدة بكذبةٍ أخرى. لكني قلتُها فقط لإرضائها؛ فلم أقصد حقًّا أي إساءة لها قَط. في وقتٍ لاحق سأخبرها بالحقيقة.»

سكت الثعلب لبرهة وقد كان عقله مشغولًا بهذه الأفكار، بينما كانت شجرة البتولا سعيدةً للغاية بحيث لم تلاحظ ذلك.

فقالت للثعلب: «أنا سعيدةٌ للغاية! أنت لطيفٌ معي دائمًا.»

قال الثعلب بحزن بعض الشيء: «أوه، إلى حدٍّ بعيد. تعلمين أنني سأفعل أي شيء من أجلك. بالمناسبة، هل تهتمين بقراءة كتاب الشِّعر هذا؟ إن كاتبه رجلٌ يُدعى هاينه. إنها مُجرَّد ترجمة، بالطبع، لكنها ليست سيئة على الإطلاق.»

«أوه! هل حقًّا باستطاعتي استعارته؟»

«بالطبع. احتفظي به لأطول مدة ترغبين بها ... حسنًا، الآن يجب أن أتركِكِ. لكني أشعر أنه يُوجد أمرٌ نسيتُ أن أخبركِ به.»

«نعم، بخصوص لون النجوم.»

«آه، بالطبع! لكن دعينا نؤجل هذا الحديث للمرة القادمة، أليس كذلك؟ يجب ألَّا أطيل البقاء.»

«أوه، لا مشكلة في ذلك.»

«على أي حال، سأعود مرةً أخرى قريبًا. أودِّعكِ إذَن. سأترك الكتاب معكِ. وداعًا.»

بسرعةٍ انطلق الثعلب نحو منزله. أما شجرة البتولا، وقد بدأ يُسمَع لأوراقها حفيفٌ بفعل ريحٍ جنوبية هبَّت فجأةً للتو؛ فقد تناولَت كتاب الشِّعر وأخذَت تقلِّب صفحاته في ضوء الوهج الخافت لدرب التبَّانة والنجوم التي كانت تُرصِّع السماء. ضم الكتاب قصيدة «لوريلي» وقصائدَ أخرى عديدة جميلة للشاعر هاينه، واستمرَّت شجرة البتولا في القراءة

طوال الليل. ولم يبدأ النعاس في مغالبتها قليلًا إلا قُبيل الساعة الثالثة فجرًا، عندما بدأ برج الثور بالصعود بالفعل في الشرق فوق السهل.

بزَغ الفجر وأشرقَت الشمس في السماء. كانت قطرات الندى تتلألأ على العشب، والأزهار متفتحة بكامل أوْجِها. ببطء من الجهة الشمالية الشرقية جاء سيد الأرض مغمورًا بضوء الشمس الصباحي، كما لو كان قد سكب النحاس المصهور على نفسه. كان يسير ببطء، ببطءٍ شديد وذراعاه مطويتان بمهابة فوق صدره.

بطريقةٍ ما، شعرَت شجرة البتولا بالضيق بعض الشيء، لكن، رغم ذلك، هزَّت أوراقها الخضراء الزاهية في الاتجاه القادم منه سيد الأرض، فأخذ ظلها يتماوج على العُشب حيث سقط. صَعِد سيد الأرض بهدوء ووقف أمامها.

«صباح الخير يا شجرة البتولا.»

«صباح الخير.»

«هل تعلمين، يا شجرة البتولا، أنه تُوجد كثير من الأشياء التي لا أفهمها عندما أفكِّر فيها؟ نحن حقًّا لا نعرف الكثير، أليس كذلك؟»

«أي نوع من الأشياء؟»

«حسنًا، العُشب، على سبيل المثال. لماذا يجب أن يكون لونه أخضر عندما يخرج من تربةٍ بنية داكنة؟ ثم هناك الأزهار الصفراء والبيضاء. كلها أشياء خارج نطاق فهمي.»

قالت شجرة البتولا: «أليس من المحتمل أن تكون بذور العشب خضراء أو بيضاء اللون من الداخل؟»

قال سيد الأرض: «نعم. نعم، أظن أن ذلك ممكن. لكن مع ذلك فإنه شيءٌ خارج نطاق فهمي. تأمَّلي مثلًا فِطر عيش الغراب في الخريف. إنه يخرج مباشرةً من الأرض دون أي بذور أو أي شيء. ومع ذلك يظهر ملوَّنًا بالأحمر والأصفر وجميع أنواع الألوان. أنا لا أفهم ذلك كليًّا.»

قالت شجرة البتولا، وهي لا تزال متحمسة جدًّا بشأن حديث الليلة الماضية بحيث لا تعرف كيف ترُد على نحوٍ أفضل: «ماذا لو سألتُ السيد ثعلب؟»

تغيَّر لون وجه سيد الأرض فجأةً وضَم قبضتَيه.

«ما هذا؟ السيد ثعلب؟ ما الذي كان يقوله الثعلب؟»

قالت شجرة البتولا بتلعثم: «أوه، في الحقيقة هو لم يقل أي شيء. لقد اعتقدتُ فقط أنه ربما يعرف.»

«وما الذي يجعلكِ تعتقدين أن الثعلب لديه شيء ليُعلم سيدًا مثلي، هه؟»

عندها، توتَّرَت شجرة البتولا بشدة لدرجة أنها لم تستطِع إلا أن ترتعش. كان سيد الأرض يذرع المكان عاقدًا ذراعَيه فوق صدره وهو يَصِر بأسنانه بصوتٍ عالٍ طوال الوقت. حتى العشب كان يرتجف رعبًا أينما سقط ظله الأسود الحالك عليه.

قال سيد الأرض: «هذا الثعلب آفة على وجه الأرض! لا يقول كلمة حق واحدة. وهو أيضًا حقير وجبان وحسود بنحوٍ فظيع.»

مستعيدةً رباطة جأشها أخيرًا، قالت شجرة البتولا: «سيَحين قريبًا موعد المهرجان السنوي في مقامك، أليس كذلك؟»

خفَّ انفعال سيد الأرض قليلًا.

وقال: «هذا صحيح. اليوم هو الثالث من الشهر، هكذا، يتبقى ستة أيام فقط على انطلاقه.»

لكن بعد ذلك فكَّر لبُرهة ثم انفجر غاضبًا فجأةً مرةً أخرى.

وقال: «الناس، رغم ذلك، لا فائدة منهم! فهم لا يجلبون معهم هذه الأيام ولو قربانًا واحدًا لمهرجاني. عجبًا، أول شخص سوف يطأ منطقتي سأجُرُّه إلى قاع المستنقع عقابًا له.»

وقف هناك وهو يَصِر على أسنانه بصوتٍ عالٍ. أما شجرة البتولا فقد انزعجَت كثيرًا عندما وجدَت أن محاولاتها لكبح غضبه كان لها تأثيرٌ معاكس مرةً أخرى، ولم يعُد بإمكانها فعل أي شيء سوى أن تميل بأوراقها مع النسيم. لفترة من الوقت سار سيد الأرض بخُطًا طويلة وهو يجزُّ على أسنانه وذراعاه مطويتان عاليًا فوق صدره، وكان كامل جسده يتوهج بينما ضوء الشمس ينهمر عليه. لكن كلما فكر في الأمر أكثر، زاد الغضب البادي على وجهه. وفي النهاية لم يعُد يحتمل البقاء أكثر، فغادر عاصفًا إلى منزله.

كان سيد الأرض يعيش في مستنقعٍ بارد ورطب بشدة، تنمو في كل أرجائه الطحالب، والبرسيم والبوص القصير المتلئ، وكانت تُوجد هنا وهناك نبتةٌ شوكية أو شجرةُ صفصافٍ ملتوية بشكلٍ رهيب. كانت تُوجد أماكنُ مُشبعة بالمياه، والتي تتسرَّب منها المياه مكونةً بُقعًا بلون الصدأ. عليك فقط إلقاء نظرةٍ واحدة على المكان حتى تدرك كيف أنه كله مُوحِل ومخيفٌ بعض الشيء.

فوق بقعة تشبه جزيرةً صغيرة في وسط المكان، كان يقع مقام سيد الأرض، المصنوع من كتل الخشب، والذي يبلغ ارتفاعه حوالي ست أقدام.

عند عودته إلى هذه الجزيرة، تمدَّد بالكامل على الأرض بجانب ضريحه، وأخذ يحُكُّ ساقَيه الداكنتَين الهزيلتَين طويلًا وبقوة.

عند ذلك، لاحظ طائرًا يُحلِّق في السماء فوق رأسه تمامًا، فجلس وصاح بصوتٍ عالٍ: «ابتعِد!» فترنَّح الطائر مذعورًا، وبدا للحظة أنه كاد أن يسقط على الأرض، لكنه طار مبتعدًا، ثم بالتدريج فقد قدرته على التحليق عاليًا، كما لو أن الشلل قد أصاب جناحَيه.

ضحك سيد الأرض ضحكةً صغيرة، وكان على وَشكِ أن يقف على قدمَيه عندما تصادف أنه نظر باتجاه التلة، التي لم تكن بعيدة، حيث كانت تنمو شجرة البتولا. وسرعان ما عاد إليه غضبه؛ أصبح وجهُه شاحبًا، وتصلَّب جسده وشرَع في شد شَعر رأسه الجامح.

ظهَر حطَّابٌ كان في طريقه للعمل على جبل ميتسوموري من الجهة الجنوبية للمستنقع، والذي كان يمشي بخطواتٍ واسعة على طول المسار الضيق الذي يحد حافته. كان يبدو عليه أنه يعرف كل شيء عن سيد الأرض؛ لأنه كان ينظر بقلق بين الفَينة والأخرى باتجاه المقام. لكنه لم يستطِع، بالطبع، رؤية أي أحدٍ هناك.

عندما رأى سيد الأرض الحطَّاب، اغتبط مبتهجًا. مدَّ ذراعه نحوه، وأمسك بمعصمه بيده الأخرى، وبدا كما لو كان يسحبها للخلف. ومن الغريب أن الحطَّاب الذي كان يعتقد أنه لا يزال يمشي على المسار، وجد نفسه يمضي تدريجيًّا أعمق وأعمق داخل المستنقع. فجعله هذا يمشي بوتيرةٍ سريعة بانزعاج، وقد شحَب وجهه، وفغَر فاه، وبدأ يلهث.

لفَّ سيد الأرض مِعصَم الحطَّاب ببطء. وعند قيامه بذلك، بدأ الحطَّاب يدور في دوائر ببطء. فازداد قلقه أكثر فأكثر، إلى أن بدأ أخيرًا يدور ويدور في نفس المكان وهو يلهث يائسًا أثناء ذلك. بدا أنه كان يفكر فقط في كيفية الخروج من المستنقع بأسرعِ ما يمكنه، لكن رغم كل جهوده ظل يدور في مكانه. في النهاية، بدأ ينتحب ثم اندفع يركُض رافعًا ذراعَيه.

بدا أن ذلك قد أسعد سيد الأرض. فابتسم ابتسامةً عريضة فقط، وراح يراقب الحطَّاب دون أن ينهض عن الأرض، حتى سقط الحطَّاب الذي أصبح الآن دائخًا ومنهكًا بعد وقتٍ قصير في الماء. عندئذٍ نهض سيد الأرض ببطء على قدمَيه. وبخطواتٍ واسعة شق طريقه إلى حيث كان الحطَّاب موجودًا، والتقَطه وألقاه فوق الأرض المُعشِبة. سقط الحطَّاب على العشب بقوة. تأوَّه لمرةٍ واحدة وتحرك، لكنه لم يستعِد وعيه.

ضحك سيد الأرض بصوتٍ عالٍ. صَعِدت ضحكته إلى السماء على شكل موجاتٍ كبيرة غريبة. وبعد أن وصل الصوت إلى السماء، ارتدَّ إلى المكان الذي كانت تقف فيه شجرة

البتولا. فأصبحت الشجرة شاحبةً جدًّا فجأةً لدرجة أن ضوء الشمس سطع باللون الأخضر عَبْر أوراقها، وبدأَت ترتعش باهتياج.

أخذ سيد الأرض يشُد شَعره بقوة بكلتا يدَيه. وقال مُحدِّثًا نفسه: «كل هذا البؤس الشديد الذي أشعر به سببُه الثعلب. أو بالأحرى شجرة البتولا. لا، الثعلب وشجرة البتولا. هذا هو السبب في معاناتي الشديدة. لو أنني فقط لم أهتم بأمر الشجرة، لكنتُ أقل اهتمامًا بأمر الثعلب. ربما أنا لستُ بالشخص المهم جدًّا، لكنني سيد الأرض في النهاية، وإنه لمن المخزي أن أسمح لمجرد ثعلب بإزعاجي. لكن المريب في الأمر أنني أفعل ذلك. ثم لماذا لا أنسى كل ما يخُص شجرة البتولا؟ لأنني لا أستطيع. كم كان رائعًا هذا الصباح عندما شَحَبتُ وارتعَدت! لقد كنتُ مخطئًا عندما تنمَّرتُ على شخصٍ بائس كالحطَّاب فقط للتخلص من توتُّر أعصابي، لكن لم يكن هناك مفَر من ذلك. لا أحد بإمكانه أن يقول ماذا يمكن لشخصٍ ما أن يفعله عندما يتملكه الغضب.»

كان سيد الأرض يشعُر بحزنٍ شديد لدرجة أنه كان يضرب الهواء في يأس. جاء طائرٌ آخر يُحلِّق في السماء، لكن هذه المرة أخذ سيد الأرض فقط يراقبه وهو يمضي في صمت.

من بعيد جدًّا، جاء صوت سلاح الفرسان أثناء مناوراتهم، مع طقطقة طلقات البنادق التي تشبه صوت إلقاء الملح على ألسنة اللهب. من السماء سقط الضوء الأزرق على شكل موجات. لا بد أن ذلك كان له تأثيرٌ جيد على الحطَّاب؛ لأنه استرَدَّ وعيه، وجلس بخجل وألقى نظرةً حوله. في اللحظة التالية نهض وبدأ يركُض كسهمٍ أُطلِق من قوس. لقد أخذ يركُض بعيدًا في اتجاه جبل ميتسوموري.

أثناء مشاهدته له ضحك سيد الأرض ضحكةً كبيرة مرةً أخرى. وارتفع ضحكه إلى أعالي السماء الزرقاء مرةً أخرى، وارتد للأسفل حيث تُوجد شجرة البتولا. مرةً أخرى، أصبحَت أوراق الشجرة شاحبة، وراحت ترتعش برقَّة، برقةٍ شديدة لدرجة أنك لم تكن لتلاحظ ذلك.

أخذ سيد الأرض يسير حول مقامه بلا هدف، إلى أن اندفع في النهاية فجأةً إلى الداخل عندما بدا أنه يشعُر بالهدوء أكثر.

كانت ليلة ضبابية في شهر أغسطس. كان سيد الأرض يشعر بالوحدة بنحوٍ رهيب والغضب بنحوٍ مخيف؛ مما دفعه فجأةً لمغادرة مقامه، وبدأ يمشي. وقبل أن يدرك ذلك على نحوٍ وثيق، كانت قدماه تذهبان به نحو شجرة البتولا. لم يستطِع أن يعرف السبب، لكن كلما

كان يفكر بها، يبدو أن قلبه كان يتبدل حاله، وكان يشعر بحزن لا يُطاق. في تلك الفترة، كان أهدأ نفسيًّا من ذي قبل، وقد بذل قصارى جهده حتى لا يفكر في الثعلب أو شجرة البتولا. لكن بالرغم من أنه حاول بكل استطاعته فإنهما كانا لا يزالان يَشغلان تفكيره. كان كلَّ يوم يقول لنفسه مرارًا وتَكرارًا: «أنت سيد الأرض في النهاية. فماذا يمكن أن تعني لك مجرد شجرة بتولا؟» لكن الحزن الشديد استمر ولم يفارقه. إن ذكرى الثعلب كانت تُزعِجه على وجه الخصوص حتى كان يبدو أن جسده يحترق بالكامل.

مستغرقًا في أفكاره، وجد نفسه يقترب أكثر فأكثر من شجرة البتولا. وأخيرًا تبيَّن له تمامًا أنه كان في طريقه لرؤيتها، وبدأ قلبه يرقص من الفرح. لقد مرَّ وقتٌ طويل على لقائهما الأخير. ربما تكون قد اشتاقت إليه. في الواقع، كلما فكَّر بالأمر، شعَر أنه متأكد من ذلك أكثر. وإذا كان هذا هو الحال بالفعل، فإنه كان يشعر بالأسف الشديد لكونه قد أهملها. رقص قلبه وهو يمشي بخطواتٍ واسعة عَبْر العشب. لكن سرعان ما اضطربَت خطواته الواسعة وتوقَّف تمامًا؛ فقد شعر فجأةً بأن موجةً زرقاء كبيرة من الحزن كانت تغمُره. كان الثعلب هناك وقد وصل قبله. كان الظلام شديدًا وقتَها لكنه تمكَّن من سماع صوت الثعلب قادمًا عَبْر الضباب المتوهج في ضوء القمر الضعيف.

كان الثعلب يقول: «عجبًا، بالطبع، إن كون شيءٍ ما متوافقًا مع قوانين التناظر لا يعني أنه جميل. ذلك ليس أكثر من جمالٍ ميت.»

جاء صوت شجرة البتولا الناعم: «أنت على حقٍّ بالطبع.»

«إن الجمال الحقيقي ليس شيئًا جامدًا ومتحجرًا. يتحدث الناس عن أهمية أخذ قوانين التناظر بعين الاعتبار، لكن يكفي أن تكون روح التناظر موجودة.»

ردَّت شجرة البتولا بصوتها الناعم ثانيةً: «أوه، نعم، أنا متأكدة أن هذا صحيح.»

عندها شعر سيد الأرض كما لو أن ألسنة حمراء من اللهب تلتهم جسده بالكامل. فضاقت أنفاسه كثيرًا، وشعَر فعلًا بأنه لم يعُد يستطيع تحمُّل الأمر أكثر. فسأل نفسه بغضب: «ما الذي يضايقك بشدة هكذا؟ ما هذا في النهاية سوى حديثٍ قصير بين شجرة بتولا وثعلب خارجًا في الخلاء! أنت تدعو نفسك بسيد الأرض، فكيف تسمح لمثل هذه الأمور أن تزعجك؟»

لكن الثعلب كان يتحدث ثانيةً:

«إن جميع كُتب الفن تتطرق لهذا الجانب.»

سألت شجرة البتولا: «هل عندك كثير من كتب الفن إذَن؟»

«أوه، ليس بالعدد الكبير. أعتقد أن معظمها مكتوبٌ باللغة الإنجليزية أو الألمانية أو اليابانية. لكنَّ هناك كتابًا جديدًا مكتوبًا بالإيطالية، لكن لم أحصُل عليه بعدُ.»

«لا بد أن لديك مكتبةً رائعة.»

«لا، لا. في الحقيقة عددٌ قليل من المجلدات المتناثرة. بالإضافة إلى ذلك فإنني أستخدم المكان لدراستي أيضًا؛ لذلك هناك نوعٌ من الفوضى، مع وجود مِجهَر في إحدى زواياه وجريدة «ذا تايمز» اللندنية في زاويةٍ أخرى، وتمثالٍ نصفي من الرخام ليوليوس قيصر في زاوية ثالثة ...»

«أوه، ومع ذلك يبدو المكان رائعًا! حقًّا رائعًا!»

ربما من التواضع أو الفخر، تنهَّد الثعلب قليلًا، ثم ساد الهدوء لفترة من الوقت.

أصبح ربسيد الأرض الآن غاضبًا بشدة. فمن خلال ما قاله الثعلب، بدا أنه قد أصبح مَحَط إعجاب الآخرين أكثر منه هو نفسه. وهكذا لم يعُد بوسعه مواساة نفسه بفكرة أنه كان سيد الأرض؛ إذ لم يعُد هناك ما يُثبِت ذلك. كان الأمر مُريعًا بالنسبة له. شعَر برغبة في أن يهجُم على الثعلب ويشطُره نصفَين. لكنه قال لنفسه إنه لا يجب عليه حتى التفكير في مثل هذه الأشياء. لكن ما الذي من المفترض أن يفعله؟ أليس هو من سمح للثعلب بأن يكون أفضل منه؟ غرَز أظافره في صدره في بؤس.

بدأَت الحديث شجرة البتولا مرةً أخرى قائلةً: «هل وصل التلسكوب الذي ذكَرتَه لي ذات مرة؟»

أجاب الثعلب: «التلسكوب الذي ذكَرتُه؟ أوه، لا، لم يصل بعدُ. ما زلتُ أنتظر وصوله، لكن طرق الشحن مزدحمة للغاية. وحالما يصل سوف أحضِره مباشرةً إليك لتستخدميه. يجب حقًّا أن أدعَكِ تشاهدين الحلقات التي تدور حول كوكب الزهرة، وهذا مثالٌ واحد فقط. إنها جميلة جدًّا.»

عند ذلك، وضع سيد الأرض يدَيه على أذنَيه وانطلق بعيدًا باتجاه الشمال. فقد شعَر فجأةً بالخوف مما يمكن أن يصدُر عنه إذا بقي هناك لفترةٍ أطول.

أخذ يركُض ويركُض في خطٍّ مستقيم. ووجد نفسه في النهاية يقف عند أسفل جبل ميتسوموري وقد بدا عليه الإنهاك وأخذ يتنفس بصعوبةٍ بالغة.

أخذ يتدحرج على العشب وهو يشُد شعره. ثم بدأ يبكي بصوتٍ عالٍ. ارتفع الصوت إلى السماء حيث تردَّد صدى صوته كالرعد في غير أوانه، وجعل نفَسَه مسمومًا في جميع أنحاء السهل. استمر في البكاء حتى الفجر حتى أصابه الإجهاد، فتجول في النهاية عائدًا إلى مقامه خاليَ الوفاض.

مرَّ الوقت وجاء الخريف أخيرًا. كانت شجرة البتولا لا تزال خضراء، لكن كان قد ظهر للعشب حولها بالفعل حواف ذهبية والتي كانت تتلألأ مع هبوب النسيم، وهنا وهناك انتشر توت زنابق الوادي الناضج الأحمر.

في أحد الأيام الخريفية الذهبية الصافية، كان سيد الأرض في أفضل حالاته المزاجية. فجميع الأشياء المزعجة التي كان يشعُر بها خلال الصيف بدا أنها قد تلاشت بعض الشيء، وتحوَّلَت فقط إلى نوع من الضباب الذي كان يحوم فوق رأسه في أكثر الحلقات غموضًا. كما أن فظاظته الغريبة التي كان يتسم بها قد اختفت أيضًا. لقد شعَر أن بإمكان شجرة البتولا التحدث مع الثعلب متى أرادت، وإذا كان الاثنان يستمتعان بالدردشة معًا، فهذا أمرٌ جيد جدًّا لكليهما. كان سيجعل شجرة البتولا تتعرَّف على حقيقة شعوره اليوم. بقلبٍ منير ورأسٍ مليء بهذه الأفكار، انطلق سيد الأرض لزيارتها.

رأته شجرة البتولا قادمًا من بعيد، وبدأَت ترتعد بقلق كالعادة وهي تنتظر وصوله.

صَعِد سيد الأرض وحيَّاها بابتهاج.

ثم قال: «صباح الخير يا شجرة البتولا. يا له من يومٍ جميل!»

«صباح الخير، يا سيد الأرض. نعم، جميل، أليس كذلك؟»

«إن هذه الشمس نعمة بالتأكيد! ها هي هناك بالأعلى، حمراء في الربيع، بيضاء في الصيف، وفي الخريف صفراء. وعندما تتحول إلى اللون الأصفر في الخريف، يتحول لون العنب إلى اللون البنفسجي. آه، إنها نعمة حقًّا!»

«هذا صحيح.»

«أتعلمين؟ أشعر اليوم بتحسنٍ كبير. لقد خُضتُ كل أنواع المِحَن منذ الصيف، لكن في هذا الصباح أخيرًا وبنحوٍ مفاجئ شيءٌ ما قد خرج من ذهني.»

أرادت شجرة البتولا أن ترُد عليه، لكن لسببٍ ما بدا أن ثقلًا كبيرًا يضغط عليها فلزمَت الصمت.

«أشعر الآن أنني على استعداد للذهاب للموت عن طيب خاطر من أجل أي شخص. حتى إنني سأحلُّ محلَّ دودة إذا كان عليها أن تموت ولا ترغب في ذلك.» أثناء كلامه كان يُحدِّق بعيدًا في أعماق السماء الزرقاء بعينَيه الداكنتَين الجميلتَين.

مرةً أخرى أرادت شجرة البتولا الرد، ولكن بدا أن شيئًا ثقيلًا يُثقِل كاهلها مرةً أخرى، وبالكاد تمكَّنَت من التنهد.

في ذلك الحين ظهر الثعلب.

عندما رأى الثعلب سيد الأرض هناك، جفَل وشحَب وجهه. لكنه وجد صعوبة في العودة، فتوَجَّه مباشرةً وهو يرتعش قليلًا إلى حيث وقفَت شجرة البتولا.

وقال: «صباح الخير يا شجرة البتولا. أعتقد أنه سيد الأرض الذي أراه هناك، أليس كذلك؟» لقد كان يلبس حذاءَه الجلدي البني الفاتح ومِعطفَه المطري البني أيضًا، ولا يزال يضع على رأسه قُبَّعتَه الصيفية.

«نعم، أنا سيد الأرض. إنه طقسٌ جميل، أليس كذلك؟» قال هذا بذهنٍ صافٍ.

قال الثعلب لشجرة البتولا ووجهُه شاحب من الغَيرة: «يجب أن أعتذر لمجيئي عندما يكون لديك زائر. هذا هو الكتاب الذي كنتُ قد وعدتُكِ به قبل أيام. أوه، وسأريكِ التلسكوب ذات مساء عندما تكون السماء صافية. وداعًا.»

بدأَت شجرة البتولا الحديث قائلةً: «أوه، شكرًا لك ...» لكن الثعلب كان قد انطلق بالفعل نحو المنزل دون إيماءة للزائر الآخر. أصاب الشحوب شجرة البتولا وبدأَت ترتجف مرةً أخرى.

بانشداهٍ حدَّق سيد الأرض لفترة من الوقت في هيئة الثعلب المغادرة. ثم لمح بريقًا مفاجئًا لأشعة الشمس على حذاء الثعلب الجلدي البني وسط العشب، وتمالك نفسَه في جفول. لكن في اللحظة التالية، بدا أن شيئًا ما كان ينقرُ في دماغه. كان الثعلب يمشي مبتعدًا بثبات ويتبختر بتحدٍّ نوعًا ما. بدأ سيد الأرض يغلي غضبًا. وتحوَّل وجهُه إلى لونٍ داكن مخيف. كان سيُريه من يكون؛ هذا الثعلب بكُتبه عن الفن وتلسكوباته.

انطلَق بلمح البصر وراءه. بذعرٍ شديد بدأَت أغصان شجرة البتولا تهتزُّ كلها دفعةً واحدة. ومستشعرًا أن هناك شيئًا مريبًا، نظر الثعلب حوله بنحوٍ عرَضي فلم يشاهد سوى سيد الأرض، الذي كان لونه أسوَدَ بالكامل، يندفع وراءه كالإعصار. جرى الثعلب مثل الريح، وكان وجهه أبيضَ وفمُه ملتويًا من شدة الخوف.

بالنسبة لسيد الأرض، بدا العُشب المحيط به مشتعلًا كالنار البيضاء. حتى السماء الزرقاء اللامعة أصبحَت فجأةً حفرةً سوداءَ فاغرةً فاها تشتعل وتزمجر في أعماقها ألسنة نيرانٍ قرمزية اللون.

ركضَا وهما ينخران ويلهَثان مثل قطارَين مسرعَين. كان الثعلب يركُض وكأنه في حُلم، وجزء من دماغه لم يتوقف عن ترديد: «هذه هي النهاية. هذه هي النهاية. تلسكوب. تلسكوب. تلسكوب.»

كانت أمامه ربوةٌ صغيرة من أرضٍ جرداء. فانطلق يدور حولها حتى يصل إلى الفتحة المستديرة عند قاعدتها. أنزَل رأسه وبدأ يغوص في الحفرة، ورجلاه الخلفيتان

تتجهان للأعلى أثناء تقدُّمه عندما انقضَّ عليه سيد الأرض أخيرًا من الخلف. في اللحظة التالية، كان الثعلب مقلوبًا ورأسُه يتدلى على يد سيد الأرض وقد تغضَّنَت شفتاه وكأنما ارتسمَت عليهما ابتسامةٌ صغيرة.

ألقى سيدُ الأرض الثعلبَ على الأرض وداس بقوة أربع مرات أو خمسًا على جسده الناعم الليِّن. ثم نزل إلى داخل حُفرة الثعلب. كان المكان خاليًا ومظلمًا تمامًا على الرغم من أن الطين الأحمر للأرضية قد جرَت تسويتُه بنحوٍ جيد وأنيق.

خرج سيد الأرض من الحفرة ثانية وقد ارتسمَت أمارات الاستغراب الشديد على وجهه، وفمُه متهدل ومُلتوٍ. ثم أدخل يده في جيب مِعطَف الثعلب المطري وهو راقدٌ هناك ممددًا وبلا حَراك. كان الجيب يحتوي فقط على غِلافَين شوكيَّين بُنيَّين، من النوع الذي تستخدمه الثعالب لتمشيط فرائها. خرج صوتٌ غريب للغاية من فم سيد الأرض المفتوح ثم انفجر بالبكاء.

سقطَت دموعه كالمطر على جسد الثعلب الراقد هناك ميتًا، والذي قد تدلى رأسه بلا حَراك وارتسمَت على فمه أوهَنُ الابتسامات.

الجنرال سون با-يو

الأطباء الثلاثة

منذ زمنٍ بعيد، في العاصمة لا-يو، عاش ثلاثة إخوة أطباء. كان الأكبر، لين با، طبيبًا بشريًّا عاديًّا. وكان شقيقه الأصغر منه لين بوو طبيبًا للخيول والأغنام، بينما كان لين بو، أصغرهم جميعًا، طبيبًا للأشجار والنباتات. كان الإخوة الثلاثة قد بنَوا ثلاثَة مستشفياتٍ ذات أسقفٍ قرميديةٍ زرقاء. انتصبَت جميعها في صفٍّ واحد على قمة تلٍّ أصفر في أقصى الطرف الجنوبي للمدينة، وكان فوق كل واحدة منها رايةٌ حمراءُ أو بيضاءُ تُرفرِف مع هبوب النسيم.

إذا وقفتَ عند سفح التل، كان بإمكانك رؤية المرضى وهم يصعدونه في تدفقٍ منتظم — قساوسةٌ مصابون بطفحٍ جلدي من جرَّاء لمس أوراق شجرة اللَّك، خيولٌ كانت تعرج قليلًا، بستانيون يجُرُّون عرباتٍ مُحمَّلة بأصصٍ من نبات عود الصليب الذابل إلى حدٍّ ما، أشخاصٌ يحملون أقفاصًا تُوجد بداخلها ببغاوات الباراكيت — وبعد ذلك، عندما كانوا يصلون إلى القمة، فإنهم كانوا ينقسمون إلى ثلاث مجموعات؛ الأشخاص المرضى يذهبون إلى الطبيب لين با على اليسار، والخيول والأغنام والطيور المريضة إلى الطبيب لين بوو في الوسط، والأشخاص الذين لديهم أشجار ونباتات بها مشكلة إلى الدكتور لين بو على اليمين.

كان الثلاثة جميعًا ماهرين في الطب بنحوٍ ملحوظ، وكانوا رجالًا ذوي قلوبٍ رحيمة؛ لذلك كانوا جميعهم يستحقون أن يُقال عنهم إنهم أطباءُ ممتازون. ومع ذلك، لم يكن الحظ في صالحهم بعدُ؛ فلم يحظَ أيٌّ منهم على أي منصبٍ رسمي، ولم تكن أسماؤهم معروفةً حتى الآن على نطاقٍ واسع. لكن في أحد الأيام حدث أمرٌ غريب غيَّر كل شيء.

حارس الحدود الشمالية

في ذلك اليوم، بينما كانت الشمس تُشرِق، سمع سكان مدينة لا-يو صوتًا غريبًا يشبه تغريد سربٍ كبير من الطيور، والذي كان قادمًا بنحوٍ متقطع من اتجاه السهل الممتد بعيدًا نحو الشمال. في البداية، لم يهتَم أحدٌ بأمره، واستمر الناس في تنظيف متاجرهم أو أي شيءٍ آخر كانوا يفعلونه. لكن بعد فترةٍ وجيزة من وقت الإفطار، أخذَت الأصوات تقترب تدريجيًّا، واتضح أنها أصواتٌ صادرة عن مزامير وأبواق. وفجأةً حدثَت ضجَّة في أنحاء المدينة. وعند اختلاطه مع صوت الآلات الأخرى، كان يمكن أيضًا سماع صوت طبول من مختلف الأنواع. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى لم يعُد التجار والحرفيون على حدٍّ سواء قادرين على التركيز في أعمالهم. في البداية أغلق الجنود جميع البوابات التي كانوا يحرُسونها بإحكام، ثم وُضع حُراس على الأسوار المحيطة بالمدينة، وأُبلغ القصر بالأمر.

بحلول ظهر اليوم نفسه تقريبًا، كان بإمكان السكان سماع صوت حوافر خيول ورؤية بريق دروع، وسُمعَت أصواتٌ عالية تُصدِر الأوامر. إن هذا الشيء أيًّا كان بدا أنه قد أحاط بالمدينة بالكامل.

شعَر الرجال الذين كانوا يُراقبون المدينة من الأسوار وسكان المدينة العاديون أن قلوبهم تدق من الخوف وهم يُحدِّقون من خلال الفجوات المخصَّصة لإطلاق السهام. خارج الأسوار إلى الشمال كان هناك جيشٌ كبير مسلح. وقد ارتفعَت أمام أعينهم غابة من الرماح والرايات المتلألئة الخفاقة. ما جعل المشهد مدهشًا بنحوٍ خاص هو أن جميع الجنود كانوا يرتدون زيًّا رماديًّا وكانوا شُعثًا؛ لذلك بدَوا، إلى حدٍّ بعيد، وكأنهم عمودٌ كبير من الدخان. كان يترأسهم جنرال ذو نظرةٍ حادة، ولحيةٍ بيضاء بالكامل، وظهرٍ محني، وكان يمتطي حصانًا أبيض له ذيلٌ ممدود خلفه على نحوٍ أشبه بالمقشة. كان سيفه المهيب مرفوعًا عاليًا في يده، وبصوتٍ عالٍ كان يغني هذه الأغنية:

حارس الحدود الشمالية
الجنرال سون با-يو يعود
من الأراضي فيما وراء السور العظيم.
كنت أتمنى إعلان تحقيقي
لنصرٍ عظيم، لكن في الحقيقة
أننا جميعًا قد أصابنا الإنهاك تمامًا. الجو باردٌ هناك.

منذ ثلاثين سنة مضت،
متقدمًا عشرة آلاف جندي،
انطلقتُ بفخرٍ عَبْر هذه البوابة.
لأجد ماذا، رغم ذلك؟ سماءً وسماءً
والمزيد من السماء، ورياحًا جافة تثير الرمال
حتى الإوز البري يذبُل
ويسقط ميتًا.
طوال الوقت كنتُ أتقدم للأمام
حتى أصاب الإرهاق جوادي المخلص؛
فقد انهار مُنهَكًا مراتٍ عديدة.
حينها، كانت عيناه تمتلئان بالدموع
وتحدِّقان بعيدًا عَبْر الرمال،
وفي كل مرة كنتُ آخذ القليل
من الملح من تحت درعي
وأدعه يلعقه حتى يستعيد قوَّتَه.
لكنه الآن يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا،
وهو يستغرق أربع ساعات أو نحو ذلك
فقط ليقطع عدة أميال.
أنا نفسي، الآن، في السبعين.
لم أفكِّر مطلقًا في أنني سأعود للوطن،
لكننا كنا محظوظين لهلاك العدو؛
إذ لم ينجُ منهم أحدٌ من الهلاك
بمرض البري بري. لقد
كان الجو رطبًا بشكلٍ مخيف هذا الصيف،
والسبب الآخر هو أنهم
ركَضوا كثيرًا عَبْر الرمال أثناء مطاردتهم
لنا. في هذا الإطار، يمكن أن تُسمُّوا هذا
نصرًا بعد كل شيء.

أعتقد أن هناك شيئًا آخر
قد تعتبرونه جديرًا بالثناء.
لقد ذهبنا مائة ألف
ورجعنا تسعين ألفًا.
ننعى الرجال الذين ماتوا،
لكن حتى لو بقينا في الوطن،
فأنا متأكد من أن عُشرنا على الأقل كان سيموت
في غضون ثلاثين عامًا.
لذا، أصدقائي القدامى في لا-يو،
الأطفال أيضًا والأشقاء جميعًا،
ها نحن قد عُدنا إلى الوطن أخيرًا،
الجنرال سون با-يو وجيشه،
من الشمال. أعتقد أنه يمكنكم، الآن،
أن تتفضَّلوا بفتح البوَّابات.

حدثَت ضجةٌ كبيرة فوق أسوار المدينة. بكى البعض فرحًا، واندفع البعض مُلوِّحين بأذرعهم في الهواء، وحاول البعض فتح البوابات بأنفسهم فتعرَّضوا للنَّهر من قِبل الحُراس. بطبيعة الحال، ذهب رسولٌ على عَجَل إلى القصر الملكي، وفُتحَت بوابات أسوار المدينة مُحدِثةً ضجيجًا عاليًا. كان الجنود في الخارج سعداء للغاية لدرجة أنهم عانقوا خيولهم وبدءوا بالبكاء.

الجنرال سون با-يو، حارس الحدود الشمالية، الذي ظهرَت عليه علامات التقدم في السن، عبَس عمدًا لإخفاء مشاعره وهو يمسك بلجام حصانه بلطف ويقوده، ناظرًا مباشرةً أمامه، على رأس جيشه، تتبعُه الأبواق والطبول المختلفة، والرماح براياتها، والمطارد النحاسية الخضراء بفعل الزمن، والجنود بجعاب سهامهم البيضاء المُعلقة على ظهورهم. كانت الخيول تخطو على وقع ضرب الطبول، في حين كانت ركبتا حصان الجنرال الأبيض تنثنيان كما لو كان يُحاوِل أن يحافظ على وقع الطبول أيضًا. أثناء مسيرتهم، غنَّى الجنود نشيدًا عسكريًّا:

في اليوم الأول والأخير
قمرٌ أسود يسطع فوق الصحراء.

في ليالي هبوب الرياح الجنوبية والغربية
حتى في الشتاء القمر يكون أحمر.
عندما تطير الإوَزة البرية عاليًا،
يهرب العدو بعيدًا.
امتطِ حصانك لتُطارِده
وستتساقط الثلوج.

تقدَّم الجنود. إن مجرَّد رؤية تسعين ألفَ جندي كان أمرًا ساحقًا.

في الأيام التي تتساقط فيها الثلوج بشدة
تكون السماء غائمةً وقت الظهيرة،
وتظهر فقط صفوفٌ من الإوَز البَرِّي
الباهتة والبيضاء اللون في الظلام.
يطير الرمل متجمدًا في الهواء
ويرفع لأعلى الأعشاب الضارَّة الذابلة.
واحدةً تلو الأخرى، تُقتلع تلك الأعشاب
وتطير محلقةً نحو العاصمة.

الحشود التي تشكِّل حاجزًا قويًّا على جانبَي الطريق كانت تُتابِع بعيونٍ دامعة.

سار الجنرال سون با-يو، هو وجيشه، على هذا النحو حوالَي نصف ميل، وكادوا يصلون إلى ساحة المدينة عندما أنبأتهم راياتٌ صفراءُ خفَّاقة على بُعدٍ أن شخصًا ما كان قادمًا من القصر. يمكن أن يعني هذا شيئًا واحدًا فقط؛ وهو أنه قد أُخبر الملك بالأمر، وأن مبعوثًا كان في طريقه للترحيب بهم.

كبَح الجنرال جِماح حصانه، ورفع يده بطريقةٍ مهيبة إلى جبهته، وحدَّق بتمعُّن للتأكد من الأمر، ثم فجأةً ألقى بتحية، وحاول مسرعًا النزول عن حصانه. لكنه لم يستطِع النزول. بدا أن ساقَيه قد التصقتا بسَرْج الحصان، الذي كان بدوره ملتصقًا بقوة بظهر الحصان.

شعَر الجنرال الشجاع بالفزع الشديد رغمًا عنه. وبوجهٍ احمَرَّ خجلًا وفمٍ ارتعَش لأعلى في أحد جوانبه، بذل الجنرال قصارى جهده للقفز عن ظهر حصانه، لكن جسده رفض التزحزح. يا له من جنرالٍ مسكين! فنتيجة ثلاثين سنةً كاملة أمضاها في أداء واجبه

الشاق على حدود الوطن، في الجو الجافِّ للصحراء، ودون أن يترجَّل ولو مرةً عن حصانه، توحَّد في النهاية معه. والأسوأ من ذلك، أنه نظرًا لأنه حتى العشب لا يمكن أن ينمو في وسط الصحراء، لا بد أن العشب قد اختار الجنرال بدلًا من ذلك؛ لأن وجهَه ويدَيه كانت مغطاةً بشيءٍ رمادي غريب. وقد كان هذا الشيء ينمو على الجنود، أيضًا.

في غضون ذلك، كان ممثل الملك يقترب أكثر فأكثر تدريجيًّا؛ فقد أصبحت الرماح والرايات الكبيرة التي تتقدم الموكب مرئيةً بالفعل.

قال أحد أفراد جيشه: «أيها الجنرال، انزل عن حصانك! إنه رسولٌ من الملك! أيها الجنرال، انزل عن حصانك!» لكن بالرغم من أنه حاول التحرر مستخدمًا ذراعَيه مرةً أخرى، فإنه لم يستطِع ذلك.

لسوء الحظ، كان الوزير المكلَّف بالترحيب به قصير النظر كالخلد، واعتقد أن الجنرال كان يتعمد رفض الترجُّل عن حصانه، وكان يُلوِّح بيدَيه كنوعٍ من الأوامر لرجاله.

قال الوزير بصوتٍ عالٍ للجمع الذي كان معه: «لنعُد أدراجَنا! إنه تمرُّد!» فاستداروا على الفور بخيولهم، وانطلقوا جميعهم في سحابةٍ من الغبار الأصفر.

عندما شاهد ما كان يحدُث، تهدَّل كتف الجنرال سون وأطلق تنهيدة. لفترة من الوقت جلس وحدَّق، ثم استدار فجأةً لاستدعاء كبير المخططين لديه.

وقال له: «أنت يا ... انزع درعك في الحال، وخذ سيفي وقوسي، واذهب إلى القصر بأسرعِ ما يمكن. ثم أخبرهم بما يأتي: الجنرال سون با-يو، حارس الحدود الشمالية، قضى ثلاثين سنةً كاملة في الصحراء دون أن ينزل عن حصانه سواء في النهار أو في الليل. وفي النهاية أصبح جسده عالقًا في سَرج حصانه بحيث يستحيل عليه تمامًا المثول أمام الملك. أخبرَهم بكل احترام أنه سيذهب الآن إلى طبيب، ثم سيمثل أمام جلالة الملك في أقرب وقتٍ ممكن.»

أومأ كبير المخطِّطين برأسه، ونزع درعَه وخُوذتَه، وانطلَق نحو القصر ومعه سيف الجنرال سون.

التفَت الجنرال إلى رجاله.

وقال لهم: «أيها الجنود، سوف تترجَّلون عن ظهور خيولكم الآن، وتخلعون خُوَذَكم وتجلسون على الأرض. قائدكم على وشك القيام بزيارةٍ قصيرة إلى الطبيب. وأثناء غيابه، عليكم البقاء هنا دون التحرك أو إحداث أي ضوضاء. هل تفهمون؟»

صاح الجنود في وقتٍ واحد: «نعم نفهم أيها الجنرال!»

رفع يده كي يلتزموا الصمت، ثم ضرَب بخفَّة على حصانه بسوطه. الحصان الأبيض الشهير، الذي كان قد انهار كثيرًا من التعب في رمال الصحراء، استجمع ما تبقى له من قوة، وانطلق يعدو مع طقطقة في العظام. لمسافة تصل إلى ميلَين أخذ يحُثه الجنرال على المُضي قدمًا كما لو كان في حُلم، حتى وصلا أخيرًا إلى سفح تلٍّ كبير.

سأل قائلًا: «من أفضل طبيب هنا؟»

قال نجَّار: «عجبًا، إنه الطبيب لين با.»

«أين يعيش لين با هذا؟»

«هناك في أعلى التل. رايتُه هي الراية اليسرى من بين تلك الرايات الثلاثة.»

«حسنًا! هيا انطَلِق أيها الحصان!» ضاربًا بسوطه بخفة على حصانه الأبيض، سار الجنرال على طول الطريق المؤدِّي إلى أعلى التل دون توقف.

ترك النجار في حالة تذمُّر وهو يتمتم لنفسه.

قال متبرمًا: «إنه شخصٌ غير مهذب! لقد سأل رجلًا عن أمرٍ ما، ثم كل ما أمكنه أن يقوله هو: «حسنًا! هيا انطَلِق أيها الحصان!»»

لكن الجنرال سون با-يو لم يهتم كثيرًا بأمر النجار. وتجاوَز المرضى الآخرين الذين كانوا منتظرين هناك، ووصل مباشرةً إلى بوابة المكان. وبكل تأكيد، كانت هناك على البوابة لافتة تقول بأحرفٍ ذهبية: «الطبيب لين با.»

د. لين با

عبَر الجنرال البهو الكبير على ظهر حصانه، وتقدم بثبات على طول المَمَر. وعلى نحوٍ يليق بمستشفى طبيب مثل د. لين با، كانت جميع أسقف وأبواب الغرف يبلغ ارتفاعُها حوالَي عشرين قدمًا.

صاح الجنرال بصوتٍ آمر: «أين الدكتور؟ أريده أن يفحصني!»

قال أحد مساعدي الطبيب، وكان ذا رداءٍ أصفرَ طويل وحليق الرأس، عندما أمسك بشكيمة الحصان: «ومَن قد تكون؟ ألا تعتقد أنه من الغطرسة بعضَ الشيء أن تأتي إلى هنا على ظهر حصانك؟»

سأله الجنرال: «هل أنت الرجل الذي أريد أن أراه؟ إذا كان الأمر كذلك، فأسرِع وافحَصني.»

«لا. د. لين با في الغرفة هناك. لكن إذا كنتَ تريد أن تلقاه، فسيكون عليك النزول عن جوادك.»

«هذا بالضبط ما لا يُمكِنني فعله. لو كان بإمكاني النزول عندما أردتُ ذلك، لكنتُ الآن في حضرة الملك.»

«فهِمْت. إذَن أنت لا تستطيع النزول عن حصانك. لديك تصلبٌ في الساقَين. رائع جدًّا. اتبعني.»

فتح المساعد بابًا عند نهاية المَمَر. ودخل الجنرال سون راكبًا على وقع قعقعة حوافر حصانه. كانت الغرفة مليئة بالناس، الذين كان في وسطهم رجلٌ شابٌّ بدا أنه الطبيب يجلس على كرسي يفحص عينَي أحدهم.

قال الجنرال بطريقةٍ ودية: «يا هذا، أريدك أن تفحصني. لا أستطيع النزول عن حصاني، كما ترى.»

لم يتحرك د. لين با ولم ينظر باتجاهه، بل استمر في فحص عينَي الشخص بعناية كما كان من قبلُ.

صاح الجنرال: «يا هذا! أسرِع وألقِ نظرةً عليَّ!»

أصابت جميعَ المرضى حالةٌ من الذعر، لكن المساعد قال بصوتٍ هادئ: «تُوجد قائمة انتظار هنا. أنت رقم ستة وتسعين، والدكتور معه الحالة رقم ستة، إذَن تُوجد أمامك تسعون حالة.»

«اسكُت، يا هذا! هل تقول إنه يجب أن أنتظر اثنتَين وسبعين حالة؟ من تظنُّني أكون؟ أنت تتحدث إلى الجنرال سون با-يو، حارس الحدود الشمالية! لديَّ تسعون ألف جندي ينتظرون هناك في ساحة المدينة. إذا انتظرتُ حتى كشفًا واحدًا، فسيكون هناك اثنان وسبعون ألف جندي ينتظرون معي هنا. إذا لم تُجرِ معاينتي في الحال، فسوف أدمِّر هذا المكان تمامًا!»

رفَع سَوطَه، وشبَّ الحصان، وبدأ المرضى الآخرون بالبكاء. لكن الدكتور لين با-يو لم يُحرِّك ساكنًا أو يُلقِ حتى نظرةً عابرة على الجنرال. وقفَت امرأةٌ شابة ترتدي ملابسَ صفراء على يسار الطبيب، وأخذَت زهرةً من نوعٍ ما من زهرية، وغطَّسَت رأسها في الماء، ثم قدَّمَتها برفق إلى الحصان. فأكلها الحصان وتنهَّد بقوة. ثم فجأةً طوى أرجُلَه الأربعة تحته، ونخر بقوة، وأخفض رأسه وذهب في نومٍ عميق. كان الجنرال سون مستاءً للغاية.

«أوه، يا لأمر هذا الحصان! لقد خذلَني مرةً أخرى. تبًّا، تبًّا، تبًّا!» بسرعةٍ كبيرة أخرج كيس ملح من تحت درعه، وحاول أن يجعل الحصان يأكل البعض منه.

«هيا، الآن! هيا، استيقِظ! بعد كل الأوقات الصعبة التي مرَرْنا بها معًا، ماذا تقصد بترك نفسك تموت بمجرد عودتنا للعاصمة؟ هيا، استيقِظ! اصحُ، قم! هيا، خذ جرعة من هذا الملح.» لكن الحصان استمر في نومه العميق. وفي النهاية، انفجر الجنرال سون بالبكاء.

قال: «انظر هنا ... أنا لا أهتم بشأني، لكن ألقِ نظرةً على الحصان، هلا فعَلْت؟ لقد عمل معي لمدة ثلاثين عامًا على الحدود الشمالية.»

ابتسمَت المرأة الشابة دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة، لكن عند ذلك التفَت د. لين با فجأةً نحوه، وبنظرةٍ فاحصة بدا أنها شملَت كل شيء، من أعلى معدة الجنرال إلى رأس الحصان، قال بصوتٍ هادئ:

«سوف يتحسن الحصان قريبًا. لقد جعلناه فقط ينام حتى نتمكن من فحصك. والآن، هل سبق لك أن مرِضتَ من قبلُ بينما كنتَ في الشمال؟»

«لا. أنا لم أمرَض، لكن في بعض الأحيان كنتُ أتعرَّض لخداعٍ كبير من قِبل الثعالب.»

«كيف بالضبط؟»

«إن الثعالب هناك سيئة للغاية. يمكنها وضع جيشٍ كامل يقترب من عشرة آلاف تحت تأثير سِحرها. إنها تخدعُك بصنع الأضواء ليلًا، أو الإنشاء المفاجئ لبحرٍ كبير وسط الصحراء نهارًا. عجبًا، بل إنها تشيِّد مدنًا مَحُوطة بأسوار في بعض الأحيان. إنها سيئة حقًّا.»

«الثعالب تفعل كل ذلك، أأنت متأكد؟»

«الثعالب، وأحيانًا نوعٌ خطير من الطيور. إنه يطير عاليًا ما دام لا يُوجد أحد في الجوار، لكن عندما يرى أحدهم فإنه ينزل للتحقق. إنه ينتف الشعر من ذيول الخيول والأشياء المشابهة. إنه بإمكانه الوصول للعيون أيضًا؛ لذلك عندما تعلم بوجوده، ترتعش الخيول بشدة لدرجة أنها بالكاد تستطيع المشي.»

«في كل مرة يجري وضعُكَ تحت تأثير السِّحر، كم بالتقريب عددُ الأيام التي تستغرقها لتتحسَّن؟»

«دعني أتذكَّر. حوالَي أربعة أيام. على الرغم من أن الأمر كان يستغرق في بعض الأحيان خمسة.»

«والآن، كم مرةً قد تعرَّضتَ أنت لسِحر؟»

«ليس كثيرًا؛ حوالَي عشر مرَّات، ربما.»

«أوَدُّ أن أسألك شيئًا، إذَن. ما حاصل جمع مائة ومائة؟»

«مائة وثمانون.»

«ومائتان ومائتان؟»

«دعني أفكِّر. ثلاثمائة وستون، إذا لم أكن مخطئًا.»

«مسألةٌ أخرى فقط. ما حاصل ضرب عشرة في اثنين؟»

«ثمانية عشر، بالطبع.»

«لقد فهمت. نعم، لقد فهمتُ جيدًا. حتى الآن، أنت ما زلتَ تحت تأثير الصحراء بنسبةٍ قليلة. حوالي عشرة في المائة، في الواقع. حسنًا، إذَن، دعنا نُعيدُك للحالة الطبيعية.»

لوَّح د. لين با بيدَيه، وأمر مساعديه باتخاذ الاستعدادات. أحضروا وعاءً نحاسيًّا كبيرًا مليئًا بالدواء، مع قطعة قماش. مد الجنرال سون يدَيه، وأخذ منهم الوعاء بحذر. ثم شمَّر الطبيب كمَّا واحدًا، وغمَس قطعة القماش في الدواء، وعصَرَها على خوذة الجنرال، وراح يهزُّ الخُوذة بكلتا يدَيه؛ فانخلعَت دون أي عناء على الإطلاق. أحضر مساعدٌ آخر وعاءً آخر مليئًا بنوعٍ مختلف من الأدوية، وبدأ الطبيب في غمر جسد الجنرال بهذا الدواء الثاني. كان السائل أسودَ تمامًا.

سأل الجنرال بقلق وهو يفحص الطبيب بعينَيه: «هل فعلًا سيكون الحصان بخير؟»

قال الطبيب وهو يعمل: «نعم، سأنتهي قريبًا.» تحول السائل تدريجيًّا إلى اللون البني، ثم إلى الأصفر الفاتح. وبحلول الوقت الذي فقد فيه السائل لونَه في النهاية، كان لون شعر الجنرال سون بلون الثلج، مثل شعر الدب القطبي تمامًا. لذا ألقى د. لين با بقطعة القماش جانبًا، وغسل يدَي الجنرال، ثم غسل مساعدُه رأسَه ووجهَه. شعَر الجنرال بقُشَعريرةٍ كبيرة، وجلس منتصبًا على حصانه.

«كيف الوضع الآن؟ إنك تشعُر أنك بحالةٍ أفضل كثيرًا الآن، أليس كذلك؟ بالمناسبة، ما حاصل جمع مائة ومائة؟»

«عجبًا، مائتان بالطبع، أليس كذلك؟»

«حسنًا، ما حاصل جمع مائتَين ومائتَين؟»

«دعني أفكِّر. أربعمائة. أنا متأكد.»

«إذَن، ما حاصل ضرب عشرة في اثنين؟»

أجاب الجنرال بلا مبالاة، كما لو أنه نسي تمامًا ما قد قاله قبل ذلك بقليل: «عشرون، بالطبع.»

«لقد شُفيت. كانت هناك مشكلةٌ في رأسك، وكانت كل قدراتك مُعطَّلة بنسبة عشرة في المائة.»

«دعكَ من هذا، أنا لست مهتمًّا بالأرقام. لا أهتم كثيرًا ما إذا كانت عشرة أو عشرين. سأترُك ذلك لعلماء الرياضيات. ما يثير اهتمامي حقًّا في هذه اللحظة هو أن تفصل بيني وبين هذا الحصان.»

«نعم، حسنًا، من السهل جدًّا بالنسبة لي أن أفصل ساقيك وملابسك. في الواقع، يجب أن يكونا قد انفصلا بالفعل. لكن فصل بنطالك عن السرج وفصل السرج عن الحصان أمرٌ مختلف. يتعامل أخي في المستشفى المجاورة مع هذا النوع من الأشياء؛ لذلك ربما عليك الذهاب ورؤيته. إلى جانب ذلك، يحتاج هذا الحصان إلى العلاج أيضًا.»

«لكن ماذا عن هذه الأشياء الشعثاء التي تنمو على وجهي؟»

«أخي على الجانب الآخر سوف يعتني بذلك لاحقًا. سأدَع مساعدًا يذهب معك.»

«حسنًا، إذَن، أعتقد أنني سأكون على ما يُرام. الوداع، يا سيدي.»

نفس الفتاة ذات الرداء الأصفر نفخَت مرةً واحدة في أذن الحصان اليمنى. فقام الحصان، وعلى الفور استولى الجنرال، بعد أن أصبح في وضعٍ مرتفع ثانيةً، على زمامه مرةً أخرى، وغادر المكانَ والمساعدُ إلى جانبه. عبَروا الحديقة، ووجدوا أنفسهم في مواجهة جدارٍ ترابي سميك بداخله بابٌ صغير.

قال المساعد وهو يدخل من الباب: «سأدَعُهم يفتحون البوابة الخلفية.»

«أوه لا، ليست هناك حاجة لذلك. جدارٌ صغير مثل هذا لا يُعد عائقًا بالنسبة لحصاني.»

أنزَل الجنرال سوطه على الحصان، وبحث منه له، قفَز الحصان فوق الجدار الترابي وانتهى به المطاف في حديقة د. لين بوو المجاورة، مدمرًا رقعة زهور الخشخاش تمامًا.

د. لين بوو

كان الجنرال يخوض بحصانه ببطء عَبْر رقعة زهور الخشخاش عندما سمعا فجأةً صهيل خيولٍ أخرى من جميع الجهات. وما إن دخلا المبنى الكبير، حتى جاء ما لا يقل عن عشرين منها مهرولةً لتحيط بهما من كل مكان، وأخذَت تضرب بحوافرها وتُومئ برءوسها ترحيبًا بحصان الجنرال.

على الجانب الآخر من المكان، كان الدكتور لين بوو يضع أحد المراهم البيضاء على حصانٍ كستنائي ذي رقبةٍ ملتوية. عندما تقدَّم المساعد الذي رافق الجنرال وهمَس بشيء في أذن الطبيب، ابتسم الطبيب واستدار لمواجهة الجنرال. كان الطبيب يرتدي صُدرةً حديدية

كبيرة تشبه كثيرًا الدرع، بدا أن الغرَض منه هو حمايتُه من ركل الخيول. تقدَّم الجنرال نحوه على صهوة حصانه.

سأله: «دكتور لين بوو؟ أنا الجنرال سون با-يو. أريد خدمة منك.»

«نعم، نعم، لديَّ فكرة عن الأمر. دعنا نرى، إن حصانك يبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا، أليس كذلك؟»

«تقريبًا. أجل، لا بد أنه في التاسعة والثلاثين.»

«جيد جدًّا. سأُجري العملية على الفور. لكن يجب أن أحذِّرك أنك قد تجد المكان هنا مليئًا بالدخان قليلًا.»

«دخان؟ لماذا يجب أن يُزعجني قليل من الدخان؟ أريدك أن تعلم أنه عندما تهُب الريح في الصحراء عليك أن تجعل الخيول تقفز على الأقل خمسةً وأربعين مرةً في الدقيقة. إذا سمحتَ لها بالتوقف ولو لبضع ثوانٍ، فستُدفن حتى الرأس قبل أن تُدرِك ذلك.»

«هذا صحيح. حسنًا إذَن، دعنا نبدأ. هيا، يا فو-شو!» المساعد الذي لبَّى نداءه انحنى وأحضَر إناءً صغيرًا. أزال د. لين بوو الغطاء، وأخذ بعضَ الدواء ذا اللون البني، ووضَعه على عينَي الحصان.

ثم نادى مرةً أخرى: «يا بوو-شو!» انحنى مساعدٌ آخر، ودخل الغرفة المجاورة، وبحث في أنحاء الغرفة لبعض الوقت قبل أن يعود ومعه كعكةُ أرز حمراءُ صغيرة في طبق. التقط الطبيب هذه الكعكة، وأمضى بعض الوقت وهو يضغطها بين أصابعه ويشمُّها، حتى بدا أخيرًا أنه قد اتخذ القرار، وقدَّمها للحصان الذي ابتلعَها. تثاءب الجنرال سون الذي سئم الانتظار هناك على ظهر الحصان. لكن فجأةً بدأ حصانه الأبيض يرتجف ويرتجف، وبدأ الدخان والعرَق يتفجَّران من جميع أنحاء جسده. انسحَب الطبيب كما لو كان منزعجًا ووقف يُراقِب من بعيد. أخذَت أسنان الحصان وعظامه يَصدُر عنها صوتُ طقطقة، واستمر الدخان بالتصاعد منه. كانت رائحة الدخان حادة؛ في البداية، تحمَّل الجنرال سون الوضع جيدًا، لكن سرعان ما غطَّى عينَيه بكلتا يدَيه، وراح يسعُل في نوباتٍ شديدة. بعد فترة، خفَّت حدة الدخان تدريجيًّا، غير أن العرَق في هذه اللحظة بدأ يتساقط من على الحصان غزيرًا كالشلال.

عند هذه النقطة، ذهب الطبيب إلى الحصان، ووضع يدَيه على السرج، وهزَّه مرتَين. في الحال، انفصل السرج، وتفاجأ الجنرال بذلك، فسقط بخبطةٍ قوية على الأرض. لكن نظرًا لأنه كان مقاتلًا حقيقيًّا، فقد وقف منتصبًا على قدمَيه في لمح البصر. علاوةً على ذلك، انفصل

الجنرال عن السرج تمامًا ثانيةً، وانهمَك الجنرال بالخبط بنشاط على رجلَيه المقوَّستَين، بينما كان الحصان يهزُّ جسده بلطف كما لو كان في حَيْرة من فقدان حِمله المفاجئ. بعد ذلك، أمسك الطبيب ذيل الحصان الشبيه بالمقشة وشدَّه بقوة، عندها سقطَت كتلةٌ بيضاءُ كبيرة على شكل ذيل على الأرض مصدرةً صوتًا عاليًا. أخذ الحصان يؤرجح ذيله الجديد من الشعر الخالص، كما لو كان مسرورًا لأنه وجده خفيفًا للغاية مرةً أخرى. ثم دلَّك ثلاثة مساعدين، يعملون معًا، جسده بالكامل.

«أعتقد أن هذا سيَفِي بالغرض. حاوِل الآن المشي.»

خطا الحصان بضعَ خطوات. هذه المرة، لم يصدُر صوتٌ عن ركبتَيه، اللتَين كانتا تُصدِران صريرًا مرعبًا قبل ذلك. رفع د. لين بوو يده لإعادة الحصان، ثم انحنى للحظةٍ للجنرال.

قال الجنرال: «أنا في غاية الامتنان، بكل تأكيد. حسنًا، إذَن، يجب أن أذهب.»

بخفة، أسرج حصانه، وألقى بنفسه على ظهره، بينما صهلَت خيولٌ حوله بصوتٍ عالٍ لتوديع الحصان. ثم خرج من المكان، ووثَب على الجدار وهبط في رقعة الأقحوان الخاصة بالدكتور لين بو في المكان المجاور.

د. لين بو

المكان الذي كان يُعالج فيه د. لين بو النباتات المختلفة بدا تقريبًا وكأنه غابةٌ طبيعية. كان مليئًا بالأشجار والأزهار من كل نوع يمكن تخيُّله، والتي قد زُرِعَت في صفوف، والتي أُلحق بجميعها لويحاتٌ تعريفية فضية أو ذهبية. ترجَّل الجنرال سون با-يو عن ظهر حصانه، وشق طريقه ببطء عَبْر المكان نحو الطبيب. كان المساعد المرافق له قد سبقَه، وبدا أنه قد أخبر الطبيب بكل شيء؛ لأن الطبيب كان واقفًا منتظرًا بمظهر ينمُّ عن عظيم الاحترام، حاملًا صندوقَ دواءٍ ومروحةً حمراءَ كبيرة. رفع الجنرال سون إحدى يدَيه وأشار بها إلى وجهه وقال: «هنا.» أخرج الطبيب مسحوقًا أصفر من الصندوق ونثره على وجه الجنرال وكتفه، ثم بدأ بالتهوية عليه بحماسة. وأثناء قيامه بذلك، بدأ الشيءُ الذي كان يغطي جميع أنحاء وجه الجنرال بالتحوُّل إلى اللون الأحمر وراح يسقط مثل الزغب، وأصبح الجلد ناعمًا تمامًا. ولأول مرة منذ ثلاثين عامًا ابتسم الجنرال.

قال الجنرال بفرح: «حسنًا، إذَن، سوف أغادر. أشعر بأن جسدي أصبح أكثر خفةً أيضًا»، ثم غادر المكان بسرعةٍ شديدة، وقفز على ظهر حصانه الذي كان في انتظاره،

وانطلق به بعيدًا. ركَضَ خلفهما ستة مساعدين يحملون أكياسَ دواء ومراوحَ لمساعدة الجنود على التخلص من نفس ذلك الزغب الرمادي.

حارس الحدود الشمالية يصعد إلى السماء

بسرعة الضوء، انطلق الجنرال سون با-يو عَبْر بوابة دكتور لين بو، ومثل الزوبعة، مَرَّ عَبْر مستشفى دكتور لين بوو المجاورة، ثم، تاركًا مستشفى لين با خلفه، عدا بحصانه مباشرةً أسفل التل مرةً أخرى. ونظرًا لأن الحصان كان أسرع خمس مرات من ذي قبل، فقد أصبح الجنرال على الفور تقريبًا على مرأًى من قواته المستريحة. أطلق الجنود، الذين كانوا لا يزالون ينظرون بقلق في الاتجاه الذي ذهب منه، صيحةَ فرح، ووقفوا جميعًا في نفس الوقت عندما رأوه. وفي نفس اللحظة تقريبًا، جاء كبير المخطِّطين، الذي كان قد أُرسل إلى الملك حاملًا رسالةً إليه، عَدوًا من القصر، متجهًا مباشرةً إلى مكان وجودهم.

قال: «إن الملك تفهَّم الوضع تمامًا. حتى إنه، من طيبة قلبه، ذرَف دمعةً عندما سمع عنكم، وهو الآن ينتظر وصولكم.»

في تلك اللحظة، حضر المساعدون ومعهم الأدوية. بفرحٍ نثَر الجنود المسحوق على أنفسهم، واستخدموا بقوةٍ المراوح. نتيجةً لذلك، استعاد جميع الرجال البالغ عددهم تسعين ألفًا على الفور كامل قدراتهم.

أمرهم الجنرال بصوتٍ عالٍ قائلًا: «اركبوا خيولكم!» امتطَوا جميعُهم ظهور خيولهم، وعلى الفور لم يُسمع شيءٌ سوى نخير اثنَين من الخيول المتأخرة.

«تحرَّكوا إلى الأمام!» دقَّت الطبول والأجراس، وتقدَّم الجيش في صمتٍ مهيب. وسُرعان ما تجمَّع التسعون ألف جندي على هيئة مربَّع، مُكوِّنين صفوفًا كلٌّ منها مكوَّن من ثلاثمائة رجل، في فِناء القصر الكبير.

ترجَّل الجنرال عن حصانه، وصَعِد درجات المنصة بهدوء، وسجَد على الأرض.

ثم قال له الملك بصوتٍ رقيق: «لقد جاهدتَ طويلًا وبإخلاص. ألن تبقى هنا من الآن فصاعدًا، لتكون جنرالًا من جنرالاتي، ونموذجًا حيًّا لهم للتفاني في الخدمة؟»

بدموع تنهمر من عينَيه، ردَّ الجنرال سون، حارس الحدود الشمالية، قائلًا: «لقد أسرَتْني كلمات جلالتك الكريمة. في الواقع، أنا لا أعرف في هذه اللحظة كيف يجب أن أرُد عليها. أنا الآن لستُ أكثر من ظل يمشي، شيء لا قيمة له على الإطلاق. طيلة فترة وجودي في الصحراء، كنتُ أمضي بصدر مرفوع بفخر للأمام وعينَين متيقظتَين، منتبهًا

دائمًا خشية وقوع أي هجماتٍ مفاجئة علينا من الأعداء. لكن الآن في حضورك الكريم وبكلماتك اللطيفة التي سمعتُها بأذني، أجد نفسي فجأةً لا أستطيع أن أرى بوضوح. وقد أصبح ظهري مَحنيًّا. أتوسَّل لجلالتك أن تسمح لي بالعودة إلى بيتي في الريف.»

«اذكُر لي إذَن أسماء خمسة جنرالات يمكن أن يحلُّوا مكانك.»

على إثر ذلك، سمَّى الجنرال سون با-يو أربعة جنرالات. وبدلًا من الخامس، طلب أن يُعيَّن الإخوة لين الثلاثة كأطباء في الحكومة. وافق الملك على طلبه على الفور؛ لذا، في الحال خلع الجنرال درعه، ونزع خُوذته، ثم ارتدى ثوبًا من الكتَّان الخَشِن. بعد ذلك، عاد إلى القرية عند سَفْح جبل سو حيث وُلد، وقضى أوقاتَه في القيام بأشياءَ مثل زرع القليل من الدُّخْن، وفيما بعدُ، تقليم النبتات. وسرعان ما بدأ الجنرال تدريجيًّا في تناول كمياتٍ أقلَّ وأقلَّ من الطعام، وفي النهاية لم يعُد يأكل سوى كميةٍ صغيرة واحدة من الحبوب التي كان يصادف صعوبةً كبيرة في زرعها، ولكي يسُد جُوعه كان يشرب كمياتٍ كبيرةً من الماء.

بعد ذلك، ومع اقتراب فصل الخريف، توقف تمامًا عن شرب حتى الماء، وغالبًا ما كان يُرى وهو يحدِّق لأعلى في السماء ويُصيبه الفُواق، أو ما شابه.

بعد فترة، على الرغم من أن أحدًا لم يعرف مدتها بالضبط، اختفى عن الأنظار تمامًا. لذلك قال الجميع إن الجنرال الصالح قد ذهب إلى جنة الشباب الأبدي، وبنَوا مزارًا صغيرًا له على قمة جبل سو، ووضعوا نُصبًا تذكاريًّا لحصانه الأبيض هناك معتبرين إياه فرسًا مقدَّسًا. وكانوا يقدِّمون الشموع والدُّخن، ورفعوا راياتٍ من القنب على الأعمدة.

لكن د. لين با، الذي أصبح طبيبًا مشهورًا الآن، كان يقول لكل شخص يقابله: «والآن، أنت لا تعتقد أن الجنرال سون با-يو يمكن أن يعيش عن طريق تنفُّس السُّحب، أليس كذلك؟ لقد فحصتُ الجنرال بنفسي؛ لذلك أنا أعرفُه جيدًا. إن رئتَي الرجل وأمعاءه شيئان مختلفان تمامًا. أراهن أنه في مكانٍ ما، في غابةٍ ما، يمكن إيجاد رُفاته.»

وكان هناك كثير من الناس الذين اعتقَدوا أن الأمر قد يكون كذلك.

أوزبل والفيل

الأحد الأول

أوزبل؟ الآن، أصبح هناك شخصٌ مثير للإعجاب! لقد ركَّب سِتَّ آلاتِ درس حبوب — نعم، ستًّا — وجعلها تعمل بثباتٍ وانتظام.

كان يُشغِّل تلك الآلات بأقدامهم ستة عشر عاملًا زراعيًّا، والذين كانت وجوههم جميعًا مُحمرَّة؛ إذ كانوا يضعون فيها على نحوٍ منتظم كَومةً صغيرة من الأرز المحصود. ثم كان يُنتَج القش بنفس الانتظام في الخلف، لتتشكل كومةٌ جديدة أخرى. ومن حولهم كان ينتشر ضبابٌ مائل للصفرة غريب من الغبار الناعم المتصاعد من العُصافة والقَش، على نحوٍ يشبه إلى حدٍّ بعيد ما يحدُث عند هبوب عاصفةٍ رملية صغيرة.

كان أوزبل يتجوَّل ببطء في الأنحاء، واضعًا غَليونًا كهرمانيًّا كبيرًا بين أسنانه، وعاقدًا يدَيه خلف ظهره، ومُلقيًا بنظره بين الحين والآخر على الغَليون للتأكد من عدم تطاير أيٍّ من الرماد على القَش. بُني مخزن الحبوب بنحوٍ متين، وكان المكان كبيرًا بما يكفي بحيث يصلح أن يكون مدرسة. بالرغم من ذلك، ومع وجود آلات الدرس الجديدة الستة الحديثة، تلك التي كانت تعمل بثبات في نفس الوقت، فإن المخزن كان يهتزُّ بكامله. كان هذا كفيلًا بأن يجعلك تشعُر بأن معدتك قد أصبحَت فارغةً عند دخولك إليه. وهكذا كان الأمر مع أوزبل؛ إذ كان يكتسب كثيرًا من الشهية أثناء العمل، ثم في وقت الغداء، كان يأكل بعض شرائح اللحم التي بحجم ست بوصات أو قطع العجَّة التي بحجم منديل اليد، والتي تكون ساخنةً جدًّا.

على أي حال، كانوا هناك كلهم منشغلين بالعمل، عندما ولسببٍ ما ظهر فيلٌ أبيض.

أنا أعني فيلًا أبيضَ حقيقيًّا وليس فيلًا دهَنَه أحدهم باللون الأبيض. ربما تسأل: ما الذي كان يفعله الفيل الأبيض هناك؟ حسنًا، كونه فيلًا، أعتقد أنه كان يقوم بنزهةٍ خارج الغابة وشرَد. أصيب العمال بصدمة عندما أطَلَّ برأسه ببطء عَبْر مدخل المخزن. فما كان يمكن لأحدٍ أن يتنبأ بما قد يفعله الفيل. لكن كان من الأكثر أمانًا أن يجري تجاهُله فقط؛ ولهذا تابع الجميع انشغالهم في درس الأرز.

أوزبل نفسه، واقفًا خلف صف من الآلات ويداه في جيبَيه، ألقى نظرةً حادة على الفيل، ثم نظر لأسفل وأخذ يَذرَع المكان هنا وهناك وكأن شيئًا لم يحدث.

وضع الفيل الأبيض إحدى قدمَيه فوق الأرضية المرتفعة. فتراجَع العمال للخلف. لكن كان لديهم كثير من العمل الذي يتعيَّن عليهم القيام به، وكان التعامل معه سيكون محفوفًا بالمخاطر؛ لذلك حاولوا عدم النظر إليه، واستمرُّوا في الدرس.

في المنطقة المُعتِمة في الخلف، أخرج أوزبل يدَيه من جيبَيه، وألقى نظرةً أخرى على الفيل. ثم تعمَّد أن يطلق تثاؤبًا بصوتٍ مرتفع كما لو أنه حقًّا لا يُعيره أقل اهتمام، وعاقدًا يدَيه خلف رأسه تابع مسيره في الأنحاء. لكن الفيل تقدم للأمام برجلَيه الأماميتَين وبدأ في الصعود ودخول المخزن. بدا الذعر على العمال، وحتى أوزبل اضطرب قليلًا، وأطلق نفخةً من الدخان من غَليونه الكهرماني الكبير. لكنه استمر في التجوُّل في الأنحاء، كما لو أنه لم يرَ شيئًا.

لذا، في النهاية، رفع الفيل نفسه بهدوء فوق الأرضية المرتفعة. وفي هدوءٍ شديد بدا مفاجئًا، بدأ يتجول في الفسحة أمام الآلات.

كانت الآلات جميعها مستمرة في العمل، مع ذلك، وكانت العُصافة تنهمر على الفيل مثل البَرَد أو مطرٍ صيفي مفاجئ. بدا أن ذلك كان يضايقه قليلًا؛ لأنه كان يُغمِض عينَيه الصغيرتَين نصف إغماضة؛ على الرغم من أنكَ إذا أمعنتَ النظر جيدًا، فسترى أنه كان في الواقع يبتسم قليلًا أيضًا.

أخيرًا حسم أوزبل أمره، وخرج أمام الآلات للتحدُّث إلى الفيل، ولكن قبل أن يبدأ، تحدَّث الفيل بصوتٍ جميل أشبه بصوت المزمار قائلًا:

«أوه، أبعِد هذه الرمال؛ إنها لا تتوقف عن الاصطدام بنابَيَّ.»

كان مُحقًّا؛ فقد كانت العُصافة تنهمر على نابَيه وترتطم برأسه ورقبته الأبيضَين.

قرَّر أوزبل أن ينتهز الفرصة. فنقل غَليونه ليده اليمنى، واستجمع شجاعته، ثم قال: «حسنًا. هل يُعجبكَ المكان هنا؟»

أجاب الفيل مائلًا إلى جانبٍ واحد وعيناه نصف مغمضتَين: «أوه أجل، يعجبني.»

«هل تريد البقاء؟»

نظر العمال إلى الفيل بذهول وهم يحبسون أنفاسهم. أوزبل، أيضًا، بعد أن طرح السؤال، راح كل جسمه يرتجف بشدة، لكن الفيل لم يشعُر بالانزعاج ولو قليلًا، وقال ببساطة:

«ليس لديَّ مانع على الإطلاق.»

«حسنًا. هذا جيد، إذَن، دعنا نتفق على ذلك.» بينما كان يتكلم، تغضَّن وجهه بابتسامة، وتوَرَّد من السرور.

إذَن، ما رأيك؟ لقد أصبح الفيل الأبيض الآن ملكًا لأوزبل. هل سيجعله يعمل لديه أم سيبيعه لإحدى فرق السيرك؟ حسنًا، سوف أقول لك شيئًا واحدًا، على أي حال: إنه ما كان ليخسر أيًّا من أمواله مقابل ذلك، وهذا أمرٌ مؤكَّد!

الأحد الثاني

أوزبل هذا لا يسعني إلا الإعجاب به. والفيل أيضًا — الذي استطاع أوزبل بمهارة في ذلك اليوم أن يحوزه في المخزن — أنا مُعجَب به، بطريقته الخاصة. بدايةً، كانت لديه قوة عشرين حصانًا. وكان ناباه من العاج الجميل. وكذلك جلده كان جيدًا وقويًّا. وكان يعمل بجِد. ومع ذلك، لم تكن الاستفادة منه لتكون عظيمة لولا أوزبل.

قال في أحد الأيام، وغَليونه الكهرماني في فمه ووجهه يتغضَّن بابتسامة، بينما كان واقفًا أمام منزل الفيل الذي بنَوه من كُتَل الخشب: «يا هذا ... هل تريد ساعة؟»

أجاب الفيل مبتسمًا: «أنا لا أحتاجها، شكرًا.»

قال أوزبل قبل أن يعلِّق ساعةً كبيرة مصنوعة من القصدير حول عنقه: «لكن يجب أن تكون لديك واحدة. ستجدها مفيدةً للغاية.»

قال الفيل: «إنها تبدو حسنة، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنه يجب أن يكون لديك سلسلة أيضًا.»

ثبَّت أوزبل — أعرف أنك لن تُصدِّق ذلك — سلسلة تزن حوالَي مائتَي باوند على رجلَي الفيل الأماميتَين.

قال الفيل وهو يخطو بعض الخطوات على قدمَين: «مم، السلسلة لا بأس بها أيضًا.»

«لمَ لا ترتدي حذاءً؟»

«وماذا سأفعل بالحذاء؟»

«هيا، جرِّبه؛ فأنا متأكِّد من أنه سيعجبك.»

قابضًا وجهه، أدخل أوزبل فردتَي حذاءٍ كبيرٍ أحمر مصنوع من عجينة الورق في قدمَي الفيل الخلفيتَين.

قال الفيل: «إنه ليس سيئًا على الإطلاق.»

«لكنك بحاجة إلى نوع من الزينة عليه.»

وبسرعة ثبَّت أوزبل ثقلًا يزن حوالَي ثمانمائة باوند بكل فردة حذاء، باعتباره نوعًا من الإبزيم.

قال الفيل وهو يخطو خطوتَين للأمام ويبدو سعيدًا جدًّا: «نعم هذا ليس سيئًا، يجب أن أقول ذلك.»

في اليوم التالي، تحطَّمَت الساعة الكبيرة المصنوعة من القصدير والحذاء الورقي الرديء، وكان الفيل يسير بابتهاج بالسلسلة والإبزيمَين فقط.

قال أوزبل للفيل قابضًا وجهه، وعاقدًا يدَيه خلف ظهره: «أنا آسف، لكن لديَّ كثيرًا من الضرائب التي يجب دفعُها. فأرجو منك أن تذهب وتجلب قليلًا من الماء من النهر.»

«بالطبع ... سأجلب لك أكبر عددٍ تريده من الدِّلاء.»

بابتسامةٍ رسمَت خطوطَ تجاعيدَ حول عينَيه الصغيرتَين، ملأ الفيل في ذلك الصباح خمسين دَلوًا من ماء النهر، واستخدَمها لري الخضراوات في الحقول.

في ذلك المساء، مُلقيًا بنظره غربًا نحو القمر الذي كان في يومه الثالث وهو يأكل وجبتَه التي كانت عبارةً عن عشر حُزَم من القش في سقيفته، قال الفيل مُحدِّثًا نفسه: «مم، أن تعمل من أجل كسب عيشك لهو أمرٌ ممتع، أليس كذلك؟ إنك ستشعر بأنك على ما يُرام للغاية فيما بعدُ.»

في اليوم التالي، مُرتديًا قبعةً ذات حواف حمراء ويداه عالقتان في جيبَيه، قال أوزبل للفيل: «أنا آسف، لكن الضرائب ستزيد مرةً أخرى. اليوم، أريد منك أن تجلب قليلًا من الحَطَب من الغابة.»

قال الفيل بابتسامة: «نعم، بالطبع. الطقس جميل، وأنا أحب الذهاب إلى الغابة.»

اندهش أوزبل قليلًا؛ في الواقع كاد أن يسقط غَليونه، لكن الفيل كان قد انطلق بالفعل بوتيرةٍ هادئة، تمامًا كما لو أنه كان يستمتع بذلك حقًّا. شاعرًا بالارتياح، أدخل أوزبل غَليونه مرةً أخرى جيدًا إلى فمه، وبقليل من السعال ذهب ليرى كيف كان العمال يتقدمون في العمل.

في عصر ذلك اليوم، وخلال نصف يوم فقط، أحضر الفيل تسعمائة حُزمة من الحطب وعيناه تتغضَّنان بالرضا.

في نفس المساء في بيته، بينما كان يأكل حُزَم القش الثمانية الخاصة به، نظر الفيل غربًا إلى القمر الذي كان في يومه الرابع، وقال:

«آه، أشعر أنني بحالةٍ جيدة جدًّا!»

ثم في اليوم التالي، قال له أوزبل:

«أنا آسف، لكنهم رفعوا ضرائبنا خمسة أضعاف. اليوم أوَدُّ أن تذهب إلى ورشة الحدَّاد وتُذكِي نار الفحم.»

«بالطبع. عجبًا، إذا ركَّزتُ على ذلك بالقَدْر الكافي، فيُمكِنني إطلاق أنفاسٍ قوية تستطيع قذف صخرة عَبْر الهواء.»

مرةً أخرى، كان أوزبل مندهشًا بعض الشيء، لكنه تمالك نفسه وابتسم.

ذهب الفيل بتثاقُل إلى ورشة الحدَّاد، ونزل للأسفل، طاويًا ساقَيه تحته، وقضى نصف اليوم وهو يعمل كمنفاخٍ لنار الفحم.

في ذلك المساء، وبينما كان يأكل حُزَم القش السبعة الخاصة به في بيته، نظر الفيل إلى القمر ذي الأيام الخمسة وقال:

«آه، أنا مُتعَب. لكنني سعيدٌ أيضًا.»

والآن، ماذا حدث بعد ذلك؟ من اليوم التالي فصاعدًا، كان على الفيل أن يبدأ العمل باكرًا في الصباح. أما حصَّته من القش عندما كان يعود إلى المنزل فأصبحَت خمسَ حُزَم فقط؛ سوف تتساءل كيف كانت لديه كل هذه القوة وهو يتناول فقط خمسَ حُزَم بائسة من القش. لكن الأفيال مخلوقاتٌ مقتصدة بنحوٍ مدهش، كما تعلم.

الأحد الخامس

أوزبل؟ أوه، أوزبل ... كنتُ أريد إخبارك عنه، لكنه لم يعُد موجودًا.

انتظِر ... فقط كن صبورًا واستمِع! ذلك الفيل الذي كنتُ أخبرك عنه، حسنًا، عاملَه أوزبل على نحوٍ سيئ بعض الشيء. ومع تفاقُم الأمور تدريجيًّا، فإن الفيل نادرًا ما كان يبتسم، وفي بعض الأحيان كان يُحدِّق بثبات في أوزبل بعينَين حمراوَين مثل عينَي التنِّين.

ذات مساء، نظر الفيل إلى القمر ذي العشرة الأيام بينما كان يأكل حُزَم القش الثلاثة الخاصة به، وقال:

«إنني أواجه أوقاتًا عصيبة.»

سمعه أوزبل، وكان أكثر قسوةً عليه من أي وقتٍ مضى.

ثم، في الليلة التالية، ترنَّح الفيل وانهار على الأرض في بيته. ترك حصته من القش دون أن يمسَّها، ونظر إلى القمر ذي الأحد عشر يومًا وقال:

«حان وقت الوداع.»

صاح القمر متعجبًا: «عفوًا؟ ماذا؟ الوداع؟»

«أجل، الوداع.»

قال القمر ضاحكًا: «لكنك أكبر من أن تستسلم هكذا! يجب أن تكتُب رسالةً إلى أصدقائك.»

قال الفيل بصوتٍ خافت لكنه جميل: «ليس لديَّ فرشاة كتابة وورقة.» وبدأ يَنشِج.

جاء صوتُ طفلٍ ساحر أمامه مباشرة: «يا هذا، ذلك ما تريده، أليس كذلك؟» رفع الفيل رأسه ورأى صبيًّا برداءٍ أحمر واقفًا هناك، مُمسكًا بحبرٍ جاف، وفرشاة كتابة، وورق.

كتَب الفيل على الفور: «أنا أُعامَل معاملةً سيئة للغاية. أرجوكم تعالَوا من الغابة وأنقذوني.»

أخذ الصبي الرسالة وتوجَّه على الفور إلى الغابة.

عندما وصل إلى التلال، كان وقت الغذاء قد حان. كانت الأفيال التي عاشت هناك تستلقي في ظل شجرة بودهي، وتلعب الشطرنج وما إلى ذلك. اقتربوا بعضهم من بعض لقراءة الرسالة: «أنا أُعامَل معاملةً سيئة للغاية. أرجوكم تعالَوا من الغابة وأنقذوني.»

انتابت الحماسة أفراد القطيع، وتجمَّعوا وبدءوا في الصياح حتى أصبحَت وجوههم أرجوانية اللون.

صاح قائدهم بأعلى صوته: «سنجعل أوزبل هذا يلقى جزاءه!»

صرخ الآخرون: «هيا بنا، دعونا نذهب!»

وفي وقتٍ قصير كانوا يَهدِرون في طريقهم كإعصار وهم يسيرون عَبْر الغابة متجهين نحو الريف المكشوف خلفها؛ وكلٌّ منهم كان يشعر بحنقٍ شديد. خلال ذلك، اقتُلعَت أشجارٌ صغيرة وما شابه من الجذور، ودُهسَت تمامًا أجمات. في صُراخٍ قوي، اجتازوا السهل بسرعةٍ شديدة. وبدءوا بعد ذلك بالعَدْو، حتى في النهاية على بُعدٍ على الحافة الضبابية من الريف الأخضر، بدا لهم السقف الأصفر لمنزل أوزبل، وانفجَروا في نوبةٍ جنونية من الصياح.

كانت الساعة الواحدة والنصف، وكان أوزبل في منتصف غفوة على أريكته الجلدية، وكان يحلُم بالغربان. كانت هناك ضوضاء شديدة لدرجة أن العمال في مخزن أوزبل خرجوا لمسافةٍ قليلة خارج البوابة وظلَّلوا عيونهم بأيديهم ليتمكَّنوا من الرؤية.

وما رأَوه لم يكن سوى سُورٍ عظيم من الفِيَلة يتجه مباشرةً نحوهم! اندفَعوا إلى الداخل وأخذوا يصرخون:

«سيد أوزبل! الأفيال! إنهم قادمون لمهاجمتنا! سيد أوزبل ... الفِيَلة.»

لكن أوزبل لم يكن رئيسًا عظيمًا من فراغ. ففي اللحظة التي فتح فيها عينَيه، عرف بالضبط ما كان يحدُث.

«مهلًا، هل هذا الفيل في بيته؟ هل هو كذلك؟ حسنًا؛ أغلِقوا الباب. أغلِقوا الباب! أغلِقوا الباب هناك بأسرع ما يمكن. حسنًا. والآن، بسرعة ... اذهبوا وأحضِروا بعض كُتَل الخشب. احبِسوه. احبِسوه! توقفوا عن الذعر، يا أغبياء! ثبِّتوا كُتَل الخشب معًا عَبْر الباب. لا تقلقوا ... ماذا تعتقدون أن بإمكانه أن يفعل؟ لقد جعلتُه ضعيفًا عن عمد. حسنًا ... اجلبوا خمسًا أو ستًّا أخرى من كُتَل الخشب. هناك ... الآن كل شيء على ما يُرام. لا بأس! فقط حافِظوا على هدوئكم. مهلًا، اسمَعوا، اسمَعوا ... الآن البوابة. أغلِقوا البوابة! أغلِقوا المزالج! الآن أسنِدوا البوابة ببعض الدعائم ... الدعائم! هذا كل ما في الأمر. مهلًا ... لا يُوجد ما يدعو للقلق بشأنه! لا شيء على الإطلاق! تمالَكوا أنفسكم!»

سرعان ما أصبح كل شيء جاهزًا، مع حث أوزبل لهم بحماسة شديدة. لكن مع الأسف كان العمال خائفين للغاية. لم يريدوا مشاركة مصير رئيسهم؛ لذلك ربطوا سواعدهم بالمناشف، والمناديل، وأي شيءٍ آخر، مهما كان مُتسخًا، والذي كان يبدو أبيض، كعلامة على أنهم قد أعلنوا استسلامهم. كان أوزبل يندفع عَبْر المكان باهتياج أكثر فأكثر. حتى كلبُه اهتاج وأخذ يركُض داخل المنزل، وقد انفجَر بالنُّباح.

على الفور تقريبًا، اهتزَّت الأرض بشدة، وأصبح كل شيء مُظلمًا، وأحاط قطيع الفيلة بالمنزل وهم يصرخون بصوتٍ مدوٍّ. من الضجَّة المروِّعة بالخارج، كان من الممكن سماع صوتٍ رقيق يقول:

«سنُخرِجك بعد قليل، حافِظ على هدوئك.»

جاء صوتٌ من بيت الفيل يقول: «شكرًا. أنا سعيد جدًّا لأنكم هنا.»

ذلك جعل الآخرين في الخارج يصرخون بصوتٍ مدوٍّ أكثر. بدا أنهم كانوا يُحيطون بالجدار الخارجي؛ لأنه من آنٍ لآخر كان يُمكِنهم رؤية خرطوم فيل من الداخل وهو يُلوِّح

بغضب من فوقه. كان الجدار مصنوعًا من الأسمنت المعزَّز بالحديد؛ لذلك لم يكن من السهل حتى بالنسبة للفِيَلة تحطيمه. في المنزل، كان أوزبل هو الوحيد الذي يصرخ؛ إذ كان العمال واقفين منتظرين دون حركة، وعقولهم كانت مشلولة من الرعب.

لم يَمضِ وقتٌ طويل حتى شرَعَت الأفيال في التعاون معًا لتسلق الحائط. وسرعان ما أطلَّت برءوسها من أعلى الحائط، وعندما نظر كلب أوزبل إلى الأعلى ورأى الوجوه الرمادية الضخمة المتجعدة، أُغميَ عليه على الفور. ثم بدأ أوزبل بإطلاق رصاصات مسدسه الذي بست طلقات — دَوِي، هدير؛ دَوِي، هدير؛ دَوِي، هدير — لكن الرصاص لم يستطع اختراق جلودهم، وارتَدَّ من أنيابهم.

قال أحد الفِيَلة: «أبعِد هذه الأشياء؛ إنها تُوخِز!»

قال أوزبل في نفسه وهو يُعيد تزويد مسدسه بالذخيرة من حزامه: «لقد سمعتُ نفس الشيء يُقال في مكانٍ آخر، في وقتٍ ما.» لكن بعد ذلك، برزَت ساق أحد الفيلة فجأةً بأعلى الحائط. وتبِعَه واحدٌ آخر. وهكذا سقط خمسةٌ منهم من فوقه في الحال. وخلال لحظة، كان أوزبل قد سُحق بالكامل، بينما لا تزال خِزانة المسدس في يده. وسرعان ما فُتحَت البوابة، وتدفَّقَت للداخل موجةٌ من الأفيال الصاخبة.

صاحوا: «أين السجن؟»

نزلوا إلى السقيفة. حُطِّمَت كُتَل الخشب كأنها أعوادُ ثقاب، وخرج الفيل الأبيض إلى الهواء الطلق، مُجرَّد ظل لما كان عليه من قبلُ.

قالوا له: «الحمد لله. لكنك أصبحتَ نحيفًا بشدة!» ذهبوا إليه بهدوء، ونزَعوا سلسلته وأثقاله.

قال الفيل الأبيض وهو يبتسم لهم ابتسامةً صغيرة وحزينة: «أجل. شكرًا لكم. لقد أنقذتُم حياتي حقًّا.».

رقصة الغزلان الأولى

من بين فجوة في السُّحب المتناثرة اللامعة ناحية الغرب، سكبَت شمس المغيب أشعتَها الحمراء على السهل المغطَّى بالأشنات، ولمعَت أنصال عُشب البامباس المتمايلة كالنيران البيضاء. في ذلك اليوم كنتُ متعبًا فتمدَّدتُ كي أنام. وبالتدريج بدأ حفيف النسيم يبدو لأذنَيَّ ككلام البشر، وسرعان ما أخذ يُخبرني بالقصة الحقيقية لرقصة الغزلان، التي ما زال سكان الريف يؤدُّونها في التلال وعلى امتداد سهل كيتاكامي.

منذ زمنٍ بعيد، عندما كان العُشب الطويل والغابات السوداء لا تزال تُغطِّي المنطقة، جاء للعيش هناك فتًى يُدعى كاجو، مع جده وآخرين، من مكان يقع إلى الشرق من نهر كيتاكامي. وفَور استقرارهم هناك، مهَّدوا الأرض وبدءوا بزرعها بالدُّخن.

في أحد الأيام سقط كاجو من أعلى شجرة كستناء فجُرِحَت ركبتُه قليلًا. في ذلك الوقت، جرت العادة أنه عند وقوع مثل هذه الأحداث أن يذهب الشخص المُصاب إلى الجبال غربًا حيث يُوجد نبعٌ ساخن، ويبني كوخًا صغيرًا هناك، ويستحم في النبع إلى أن يُشفى تمامًا.

وهكذا في صباح يومٍ جميل، انطلَق كاجو نحو النبع. وحاملًا معه بعض قطع الدامبلينج، ومعجون الفاصوليا، وقِدرًا على ظهره، أخذ يمشي ببطء وهو يَعرج قليلًا عَبْر الأرض المفتوحة، حيث كانت أنصال عُشب البامباس تلمع باللون الفضي.

استمَر في المشي فوق الجداول وعَبْر البقايا الحجرية حتى لاحت له سلسلة الجبال في الأفق ضخمةً وواضحة، وكان بإمكانه تمييز كل شجرة في الجبال مثل الدبابيس المغروزة في المِدبسة. في ذلك الوقت كانت الشمس تميل بشدة للغروب، وقد ألقت بنورها الخافت على قِمم صف من دُزَينة من شجر الألدر.

وضع كاجو ما كان يحمله على العشب، وأخذ بعض قِطع دامبلينج الكستناء والدُّخن وبدأ يأكلها. كان محوطًا بعُشب البامباس الذي كان وفيرًا لدرجة أنه بدا أنه ينتج تموجاتٍ

بيضاءَ لامعة بطول السهل. وبينما كان يأكل طعامه، لم يستطِع منع نفسه من الإعجاب بالمنظر الجميل لجذوع أشجار الألدر الشاهقة، التي تنبثق بنحوٍ مستقيم من العشب العالي.

لكن الرحلة كانت شاقةً للغاية مما جعله متعَبًا بشدة فلم يكن يستطيع الأكل. إذ سرعان ما شعَر بالامتلاء، وفي النهاية، مرغمًا، كان عليه أن يترك قطعةً صغيرة جدًّا من الدامبلينج.

قال مُحدِّثًا نفسه: «سأترك هذه من أجل الغزلان. أيتُها الغزلان، هيا تعالَي إلى هنا وكُلِي!» ثم وضع القطعة بجانب زهرةٍ بيضاءَ صغيرة كانت تنمو عند قدمَيه. وضع حِمله على كتفه، وانطلق يمشي مرةً أخرى ببطءٍ شديد.

لكنه مشى فقط لمسافةٍ قصيرة، وبعدها انتبَه إلى أنه قد نسي مِنشفتَه القطنية في المكان الذي استراح به، فرجع ثانيةً مسرعًا ليأخذها. كان لا يزال بمقدوره رؤية صف شجر الألدر بوضوحٍ تام؛ ولذا لم تكن هناك حقًّا صعوبةٌ كبيرة في العودة. غير أنه قبل أن يصل إلى المكان، توقف فجأة، مُدركًا، على نحوٍ أكيد، أن الغزلان كانت هناك بالفعل.

وبالفعل، كانت الغزلان موجودةً هناك؛ فقد كان على الأقل خمسة أو ستة منها تسير باتجاه شيء، وأنوفها الرطبة ممتدة أمامها. مشى كاجو على أطراف أصابعه على الأشنات باتجاهها، وكان حريصًا ألَّا يلمس عشب البامباس.

كان من الواضح أن تلك الغزلان قد أتت إلى ذلك المكان لتناول قطعة الدامبلينج التي تركَها. تمتَم كاجو لنفسه مبتسمًا: «هاه، إن الغزلان لا تُضيع الوقت»، وتسلَّل نحوها ببطء مُحنيًا نفسه.

اختبأ خلف أجمة من عشب البامباس وبدأ بمراقبتها، ثم تراجَع للخلف فجأةً مُندهشًا. كانت الغزلان تدور في حلقة على العشب. حبس أنفاسه، واستمر باختلاس النظر إليها من بين سيقان البامباس.

كانت الشمس قد لمسَت قمةً واحدة من أشجار الألدر، فلمعَت أغصانها العليا بضوءٍ أخضرَ غريب، فبدَت الشجرة لكل العالم كمخلوقٍ حي أخضر يقف بلا حَراك على الإطلاق يُحدِّق بالغزلان في الأسفل. كان كل نصلٍ من أنصال عشب البامباس يلمع بمفرده باللون الفضي، وكذلك بدا الفِراء الذي كان يكسو أجساد الغزلان أكثر لمعانًا من المعتاد. أما كاجو فقد جلس على ركبةٍ واحدة سعيدًا، وأخذ يُمعِن في مراقبة تلك الغزلان.

كانت الغزلان تتحرك في دائرةٍ واسعة، وسرعان ما لاحظ أن كل غزال كان يبدو مُركِّزًا على شيء يقع في مركز الحلقة. كان متأكدًا من ذلك لأن رءوسها وعيونها وآذانها كانت كلها

موجَّهة في ذلك الاتجاه. والأكثر من ذلك أنه من وقتٍ لآخر كان يكسر أحد الغزلان الدائرة ثم يخطو بضع خطواتٍ نحو الداخل كما لو أن هناك شيئًا ما يشُده إلى المركز.

بالطبع، في وسط الحلقة كانت تُوجد قطعة الدامبلينج التي كان قد تركَها كاجو منذ قليل. لكن الشيء الذي سبَّب القلق للغزلان لم يكن قطعة الدامبلينج على ما يبدو، وإنما مِنشفة كاجو القطنية البيضاء، والتي كانت ملقاةً بنحوٍ مَحني في المكان الذي سقطَت فيه. ثنَى كاجو ساقه المصابة بيده بلطف، ثم جلس على الأشنات بنحوٍ بارع على كعبَيه حتى يتابع الغزلان.

بالتدريج تباطأَت حركة الغزلان الدائرية. ثم بدأت تُهرول على نحوٍ خفيف، ومن آنٍ لآخر، كانت تخرج من الحلقة ثم تمُد إحدى أقدامها الأمامية للأمام باتجاه المركز كما لو كانت تستعد للجري، لكنها كانت تتراجع للخلف بسرعة وتُهرول مرةً أخرى. وكانت حوافرها تُصدِر صوتًا لطيفًا وهي تدُق بها على تربة السهل الداكنة. وفي النهاية، توقفَت تمامًا عن الدوران، ثم تجمَّعَت في مجموعة فيما بين كاجو والمنشفة.

فجأة، بدأَت أذنا كاجو في الطنين وجسمُه في الاهتزاز؛ انتابه شعورٌ غريب كان يأتيه على شكل موجات بأن العشب كان يتمايل بفعل النسيم، وهو نفس الشعور الذي كان ينتاب الغزلان. وفي اللحظة التالية، وبالرغم من أنه وجد صعوبةً في تصديق أذنَيه، أمكَنَه بالفعل سماع الغزلان وهي تتحدث بعضُها مع بعض.

كان يقول أحد الغزلان: «إذَن هل يجب أن أذهب الآن لأرى ما هو ذلك الشيء؟»

«لا، قد يكون خطيرًا. من الأفضل أن نُراقِبه لمدة أطول.»

«يجب ألا نتعرَّض للخداع كما حدث مع ذلك الثعلب العجوز. ففي النهاية، إنها مجرَّد قطعة دامبلينج.»

«هذا صحيح، صحيح. صحيح تمامًا.»

تابعَت الغزلان حديثها.

«ربما يكون شيئًا حيًّا.»

«نعم، يبدو في الواقع بعض الشيء أنه كذلك.»

في النهاية، بدا أن أحدَهم قد حسَم أمرَه. فقد فرَد ظهره، ثم غادر المجموعة متقدمًا للأمام. وقفَت الغزلان الأخرى تُراقِبه.

ببطء وحذَر شديدَين، تقدم باتجاه المِنشفة، مادًّا رقبته للأمام بأقصى نحوٍ ممكن، وضامًّا أرجُله الأربعة معًا تحته. ثم فجأة، قفز عاليًا في الهواء ورجع مسرعًا كالسهم.

توزَّعَت الغزلان الخمسة الأخرى في الاتجاهات الأربعة، أما هو فقد وقف في المكان الذي انطلق منه مُتسمرًا، وهكذا، هدأَت الغزلان الخمسة ورجعَت في خجل لتتجمَّع أمامه.

«كيف كان؟ كيف بدا؟ ذلك الشيء الطويل الأبيض؟»

«إنه شيءٌ لديه تغضُّنات بطول جسمه.»

«إذَن، إنه ليس كائنًا حيًّا. لا بد أنه فِطر عيش غراب أو شيءٌ من هذا القبيل، في نهاية الأمر! وربما يكون سامًّا أيضًا.»

«لا، إنه ليس فِطرًا. إنه كائنٌ حي، بكل تأكيد.»

«حقًّا؟ حي ولديه كثير من التغضُّنات أيضًا؛ إذَن لا بد أنه عجوز.»

«نعم، ذلك الحارس الذي يحرُس القطعة هو حارسٌ طاعن في السن. أوه، هههههههه!»

«إيه، هاهاها! حارسٌ أبيض وأزرق!»

«أوه، هوهوهوهو! الجندي أبيض وأزرق.»

«هل يجب أن أذهب وأُلقي نظرةً الآن؟»

«نعم، اذهب الآن. من المُفترَض أنه آمنٌ بما فيه الكفاية.»

«إنه لا يَعَض، أليس كذلك؟»

«لا، أستطيع القول إنه آمن.»

وهكذا، زحَف غزالٌ آخر إلى الأمام. وأخذَت الغزلان الخمسة الأخرى تُراقِبه وهي تُومئ برءوسها باستحسان.

بدا الغزال، الذي تقدَّم للأمام، مرعوبًا بشدة. ومرةً تلو الأخرى ضَم أرجُله الأربعة، وثنَى ظهرَه للخلف استعدادًا للهروب، فقط ليُمدِّدها بحذَرٍ شديد ويتقدَّم مرةً أخرى.

أخيرًا وصل إلى نقطة على بُعد خطوةٍ واحدة فقط من المِنشفة. مدَّ رقبتَه إلى أقصى حدٍّ وأخذ يتشمَّم المِنشفة، ثمَّ فجأةً قفز في الهواء ورجع مسرعًا للخلف. جفلَت الغزلان وبدأَت في الهروب، لكن الغزال الثاني تسمَّر في مكانه بمجرد عودته؛ لذلك تحلَّت بالشجاعة، وتجمَّعَت حولَه مُقرِّبةً رءوسها من رأسه.

«كيف كان؟ لماذا جريتَ؟»

«اعتقدتُ أنها سوف تَعَضُّني.»

«والآن، ماذا يمكن أن يكون؟»

«لا يمكن لأحدٍ تحديد ذلك. الشيء المؤكَّد أنه ذو بُقعٍ بيضاءَ وزرقاء.»

«كيف تبدو رائحتُه؟ هه؟»

«تبدو مثل أوراق الصفصاف.»

«هل يتنفَّس؟»

«لم أنتبه لهذا الأمر.»

«هل أذهب الآن؟»

«نعم، اذهب الآن.»

تقدَّم الغزال الثالث بحذَر. وفي تلك اللحظة حرَّكَت نسمةٌ خفيفةٌ المِنشفة. فتوقَّف من الرعب، وجفلَت الغزلان الأخرى بشدة.

لكن بعد فترة، بدا عليه الهدوء، وتقدَّم للأمام مرةً أخرى، إلى أن استطاع أخيرًا أن يمُد طرَف أنفه باتجاه المِنشفة.

كانت الغزلان الخمسة التي تقف خلفه تُومئ بعضها لبعض عن علم. لكن في تلك اللحظة تسمَّر الغزال الذي في المقدمة وقفز في الهواء، ثم رجع مسرعًا.

«لماذا هربتَ؟»

«لأنِّي شعَرتُ بشعورٍ غريب.»

«هل يتنفَّس؟»

«حسنًا، لستُ متأكدًا أنِّي قد سمعتُ تنفُّسًا. ويبدو كذلك أنْ لا فمَ له.»

«هل لديه رأس؟»

«لا أستطيع التحدث عن ذلك بدقَّة، أيضًا.»

«إذَن، هل يمكنني أنا أن أذهب وأراه هذه المرة؟»

انطلق الغزال الرابع. كان خائفًا تمامًا مثل البقية، لكنه ذهب مباشرةً نحو المِنشفة، وبجرأةٍ شديدة، قرَّب أنفه منها. ثم تراجع على عَجَل واندفع باتجاههم مباشرةً.

«آه، إنه ناعم.»

«هل هو مثل الطين؟»

«لا.»

«هل يُشبه الوبر الذي يُغطِّي قرون الفاصوليا؟»

«مم، إنه أخشنُ منه بقليل.»

«ماذا يمكن أن يكون، إذَن؟»

«على أي حال، إنه كائنٌ حي.»

«هل تعتقد ذلك، في النهاية؟»

«نعم، كانت تفوح منه رائحةُ عرَق.»

«أعتقد أنني سأذهب وأُلقي نظرةً عليه بنفسي.»

تسلَّل الغزال الخامس بدوره ببطء إلى الأمام. بدا هذا الغزال مثل أحد المُهرِّجين؛ لأن أنفه تدلَّى مباشرةً فوق المِنشفة، ثم أخذ يهزُّ رأسه بشدة وكأنه يقول: «هذا الشيء يبدو مريبًا للغاية.» قفزَت الغزلان الخمسة الأخرى في سعادة.

هذا شجَّع الغزال الخامس للاقتراب أكثر من المِنشفة ولعقها بشدة. لكن بعد ذلك، أصيب هو أيضًا فجأةً بالرعب، ورجع مسرعًا وفمُه مفتوح بينما لسانه يتدلى للخارج. كانت الغزلان الأخرى منزعجةً بنحوٍ رهيب.

«هل تعرَّضتَ للعَض، إذَن؟ هل تأذَّيتَ؟»

لم يرُد، وكان يرتجف فقط.

«هل فقدتَ لسانك، إذَن؟»

كان لا يزال يرتجف.

«والآن، ماذا حدث معك؟ هيا، تكلم!»

«تبًّا! آه! لقد فقدتُ الإحساس بلساني تمامًا!»

«أي نوع من المذاق لديك؟»

«لا مذاق.»

«هل هو كائنٌ حي؟»

«لا أعرف بالضبط. اذهب وألقِ نظرةً الآن.»

«حسنًا.»

ببطء، تقدَّم الغزال الأخير للأمام. أخذَت الغزلان الأخرى جميعًا تُراقِبه، وبدأَت في هز رءوسها باهتمام عندما انحنى فوق وتشمَّم الشيء لفترة من الوقت. ثم، فجأةً، التقطَه بفمه ورجع به وكأنه لم يعُد هناك شيءٌ يمكن أن يخاف منه أحدٌ بعد الآن. قفزَت الغزلان الأخرى لأعلى ولأسفل بفرح.

«أحسنتَ! أحسنتَ! بمجرد التقاطنا لهذا الشيء، لم يعُد هناك ما نخشاه!»

«بالتأكيد، إنها مجرد بزَّاقةٍ كبيرةٍ جافَّة.»

«هيا الآن، أنا سوف أغنِّي وأنتم ترقصون حولها.»

ذهب الغزال الذي قال هذا إلى منتصف المجموعة وبدأ في الغناء، وبدأ البقية في الدوران حول المِنشفة.

ركضَت المجموعة ودارت ورقصَت، وكلما فعلَت ذلك كان أحدهم يندفع للأمام ويطعن المِنشفة بقرنَيه أو يدوس عليها بحوافره. وهكذا وفي وقتٍ قصير أصبحَت مِنشفة كاجو المسكينة مُوحلةً ومُمزَّقة. ثم تدريجيًّا تباطأ دوَران الغزلان.

«أوه، الآن دعونا نتناول قطعة الدامبلينج.»

«أوه، إنها مسلوقة.»

«أوه، إنها مستديرة تمامًا!»

«أوه، يم يم!»

«أوه، رائعة!»

انقسمَت الغزلان وتجمَّعَت حول قطعة دامبلينج الكستناء. ثم قضم كل واحد منها جزءًا منها على التوالي، وكانت البداية للغزال الذي انطلَق نحو المِنشفة أولًا. وكان نصيب الغزال السادس والأخير جزءًا صغيرًا بحجم حبة البازلاء تقريبًا.

بعد ذلك، شكَّلَت الغزلان حلقة مرةً أخرى وبدأَت في الدوَران. كان كاجو يراقبها باهتمامٍ شديد لدرجة أنه شعَر أنه هو نفسه واحدٌ منها. وكان على وشك الاندفاع للانضمام إليها عندما وقع نظره على يده الكبيرة الخرقاء؛ لذلك تخلى عن الفكرة، واستمر في محاولة الحفاظ على هدوئه.

كانت قد وصلَت أشعة الشمس الآن إلى الأغصان الوسطى لشجرة الألدر، وكانت تتلألأ بنورٍ مُصفَر. أخذَت رقصة الغزلان في التباطؤ أكثر فأكثر. وبدأَت الغزلان في الإيماء بعضها لبعض بنحوٍ متواصل، وسرعان ما اصطفَّت جميعها في خطٍّ مواجه للشمس، واقفةً بنحوٍ مستقيم تمامًا وكأنها في حالة تبجيل وإجلال لها. كان كاجو يشاهد وكأنه في حُلم، ناسيًا كل شيءٍ آخر. وفجأة، بدأ الغزال الذي على الطرف الأيمن من الخط بالغناء بصوتٍ عالٍ ورفيع.

انظروا إلى الشمس الغاربة
وهي تسطع من خلف الأوراق،
التي تلمع باللون الأخضر،
برقَّة على شجر الألدر.

أغمَض كاجو عينَيه، وارتعش جسمه بالكامل عند سماع الصوت الذي كان يشبه عزف نايٍ بلوري.

وفجأة، قفز الغزال الثاني من اليمين لأعلى، ومحركًا جسمه للأمام وللخلف أخذ يدخل ويخرج من الحلقة بين الآخرين، مَحنيًّا رأسُه مرةً تلو الأخرى للشمس إلى أن رجع في النهاية لمكانه، ثم توقف تمامًا عن الحركة وبدأ يغنِّي.

بما أن الشمس الآن خلفها،
فانظروا كيف أن شجر الألدر المورقة
تبدو كمرآة انكسرَت،
وأخذَت تعكس الضوء في كل الاتجاهات.

التقَط كاجو أنفاسه، وانحنى للشمس وهي في مجدها، ثم انحنى لشجر الألدر أيضًا. الآن بدأ الغزال الثالث من اليمين بالغناء، مَحنيًّا ورافعًا رأسه طَوال الوقت.

رغم أن الشمس تغيب،
فيما وراء شجرة الألدر،
انظروا للعشب المتوهج،
الذي يلمع باللون الأبيض عَبْر السهل.

بالفعل، كان عُشب البامباس يتوهَّج بالكامل، ويبدو كبحر من النيران البيضاء.

يسقط الظل طويلًا وأسود
على عُشب البامباس المتلألئ،
حيث في مقابل السماء
تنمو شجرة الألدر مستقيمةً وطويلة.

تقدَّم الآن الغزال الخامس خافضًا رأسَه لأسفل، وبدأ يغنِّي بصوتٍ ليس أكثر من همهمة.

انظروا، الشمس تغوصُ لأسفل،
في عشب البامباس المتلألئ.
والنمل يعود الآن لجُحره،
عَبْر الأشنات فوق السهل.

وسرعان ما كانت جميع الغزلان تخفِض رءوسها. لكن فجأةً رفع الغزال السادس رأسه بفخر وغنَّى:

وردةٌ بيضاءُ خجولة، راضية بأن تقضي
أيامها الهادئة، حيث لا يمكن لأحدٍ رؤيتها
وسط عشب الخريف،
لكنها من بين الكل هي الأجمل بالنسبة لي.

ثم أطلق جميع الغزلان صيحةً قصيرةً حادَّة تشبه صوت صفير الناي، وقفزوا في الهواء، وبدءوا بالدوران في حلقة.

أتت رياحٌ باردة تُصفر من الشمال. كانت شجرة الألدر تلمع كما لو كانت بالفعل كمرآةٍ مكسورة. بدا أن أوراقها حقًّا تُصدِر خشخشة كلما كانت تتلامس بعضها مع بعض، وبدا أن أنصال العشب كانت كذلك تدور مع الغزلان.

عندها، كان كاجو قد نسي تمامًا كل شيء عن الاختلاف بينه وبين الغزلان. وصاح قبل أن يندفع خارج مخبئه: «أوه! رائع، رائع!»

للحظة، تجمَّدَت الغزلان في مكانها في فزَع، ثم سارعَت بالفِرار كأوراق شجرة قبل عاصفة. انحنَت أجسادها إلى الأمام على عَجَل، وهي تفرُّ بعيدًا بعيدًا، عَبْر أمواج العشب الفضي وغروب الشمس الساطع، مُخلِّفةً وراءها عشب البامباس الذي توهَّج أكثر وأكثر، مثل الأثر الذي يُخلِّفه قارب في بحيرةٍ هادئة.

ابتسَم كاجو ابتسامةً حزينة. ثم التقَط مِنشفتَه الممزَّقة المُوحلة وانطلق نحو الغرب.

وهكذا انتهى كل شيء حتى سمعتُ القصة من نسيم الخريف المنعش، أثناء غروب الشمس في ذلك اليوم على السهل المَكسُو بالأشنات.

دِبَبة ناميتوكو

إن قصة دِبَبة جبل ناميتوكو مثيرة للاهتمام. ناميتوكو جبلٌ ضخم ينبُع نهر فوتشيزاوا من مكانٍ ما داخله. في معظم أيام السنة، يمتص الجبل وينفُث ضبابًا وسُحبًا باردة. وتُشبِه القمم المحيطة به أيضًا البزَّاقات البحرية الخضراء المُسودَّة أو أسماك عفاريت البحر الصلعاء. وفي منتصفه، يُوجد كهفٌ كبير يخرج منه شلال قد شكَّلَته مياه نهر فوتشيزاوا، يبلغ طوله حوالَي ثلاثمائة قدم، والذي يسقط هادرًا متخللًا أشجار السَّرْو والقيقب الكثيفة النمو.

في الوقت الحاضر، لا أحد يستخدم الطريق السريع القديم؛ لذا نمَت عليه في جميع أنحائه نباتاتُ الأرام وعُشبة العُقدة، وهناك أماكنُ أقام فيها الأهالي أسوارًا على الطريق لمنع الماشية من الشرود وتسلُّق المنحدرات. لكن إذا توغَّلتَ لمسافة ستة أميال تقريبًا عَبْر حفيف الشجيرات، فسوف تسمع من بعيد صوتًا يشبه صوت الريح على قمة جبل. وإذا أمعَنتَ النظر جيدًا في هذا الاتجاه، فقد تُصاب بالحَيرة لرؤية شيءٍ طويل وأبيضَ وضيق يتدلى أسفل الجبل وسط موجة من الضباب؛ هذا الشيء هو شلال أوزورا. في تلك المنطقة، كما يقولون، كان يعيش عدد كبير من الدِّبَبة.

الآن، يجب أن أقِر بأنني في الواقع لم أشاهد بالفعل قطُّ جبل ناميتوكو أو كبد دُب قُتِل حديثًا. كل هذا يعتمد على ما سمعتُه من أشخاصٍ آخرين أو ما توصَّلتُ إليه بنفسي. قد لا يكون هذا حقيقيًّا بالكامل، على الرغم من أنني، من بينِ آخرين، أصدِّقه.

لكنني أعلم أن جبل ناميتوكو مشهور بكبد الدُّب، الذي هو مفيد لآلام المعدة، ويساعد على التئام الجروح. عند مدخل نبع ناماري الساخن، تُوجد لافتةٌ مكتوب عليها «كبد الدُّب من جبل ناميتوكو». لذلك تُوجد هناك بالتأكيد دِبَبة على الجبل. يمكنني تقريبًا رؤيتها،

وهي تمُر عَبْر الوديان بألسنتها الوردية المتدلية، وصغارها وهي تتصارع فيما بينها، حتى تفقد في النهاية أعصابها وتلكُم بعضها آذان بعض. كانت أمثال تلك الدِّبَبة هي التي قد قتلَها الصياد الشهير كوجورو فوتشيزاوا ذات مرة بحُريةٍ تامة.

كان كوجورو رجلًا داكن اللون، قوي البنية، في منتصف العمر، ويُوجد حَوَل في عينَيه. كان جسده ضخمًا مثل البرميل، وكانت يداه كبيرتَين وسميكتَين مثل أثَر يد الإله بيشامون الذي كانوا يستخدمونه لعلاج أمراض الناس في مقام كيتاجيما. في الصيف، كان كوجورو يرتدي رداءً مصنوعًا من لحاء الشجر للاحتماء من المطر مع سروالٍ ضيق، وكان يحمل في يده فأس حطَّاب ومسدسًا كبيرًا وثقيلًا يشبه بندقيةً قصيرة عتيقة الطراز. وبصحبة كلب الصيد الأصفر الضخم الخاص به، كان يتجوَّل عَبْر الجبال، من جبل ناميتوكو إلى وادي شيدوك، ومن ميتسوماتا إلى جبل ساكاي، ومن غابة ماميانا إلى وادي شيرا.

عندما كان يتنقل عَبْر الوديان القديمة الجافَّة، كان يجد المرور عَبْر الأشجار النامية بكثافةٍ أشبه بعبور نفقٍ أخضرَ باهت، رغم أنه في بعض الأحيان كان يلمع فجأةً باللونَين الأخضر والذهبي، وفي أحيانٍ أخرى كان ضوء الشمس يسقط في كل الأنحاء، فيبدو المكان كما لو أنه قد أُنير بالكامل. كان كوجورو يتحرك بخُطًا بطيئة وثقيلة، بارتياحٍ شديد كما لو كان في غرفة المعيشة الخاصة به. أما كلبه فكان يسبقه، فيجري بسرعة بطول الضفاف المرتفعة، أو يغوص في الماء. كان يَسبَح بكل ما أوتي من قوة في المياه النائية الراكدة والمخيفة بعض الشيء، وعندما كان يصل في النهاية إلى الضفة الأخرى كان يهزُّ نفسه بقوة لينفُض الماء عن جلده، ثم كان يقف بأنفٍ متجعد في انتظار سيده للحاق به. كان كوجورو يعبُر الماء بفمٍ مُلتوٍ قليلًا، وهو يُحرِّك ساقيه بقوة وحذَر مثل ساقَي الفرجار، بينما يتناثر الماء في موجةٍ بيضاء فوق ركبتَيه.

كانت الدِّبَبة في منطقة جبل ناميتوكو مُولعةً بكوجورو. وأحد الأدلة على ذلك أنها غالبًا ما كانت تُحدِّق لأسفل بصمت من مكانٍ عالٍ بينما كان يشُق طريقه عَبْر الوديان أو يمُر بطول الحواف الناتئة الضيقة المليئة بالنباتات الشوكية التي تُحيط بالوادي. كانت تتشبَّث بفرع في أعلى شجرة، أو تجلس على ضفةٍ واضعةً كفوفها حول رُكَبها، وتُراقِبه باهتمامٍ أثناء مروره.

وقد بدا حتى أن الدِّبَبة كانت تُحِب كلب كوجورو.

ومع ذلك لم تكن تُحبه كثيرًا عندما تصبح في مواجهةٍ فعلية معه وكان يهجُم عليها ككرة من نار، أو عندما يسدِّد كوجورو بندقيته نحوها ببريقٍ غريب في عينَيه. في مثل هذه

الأوقات، كانت معظمها تلوِّح بكفوفها كما لو كانت في محنة، وكأنها تقول له إنها لا تريد أن تُعامَل بهذه الطريقة.

لكن هناك أنواعًا مختلفة من الدببة، تمامًا كما يُوجد أنواعٌ مختلفة من الناس، وكانت أشرسُها تقف على أرجلها الخلفية، وتُزمجر عاليًا وتتقدم مادةً أقدامها الأمامية باتجاه كوجورو، متجاهلةً الكلب كما لو كان بإمكانها سحقُه تحت أرجلها بسهولةٍ شديدة. أما كوجورو فكان يُحافِظ على كامل هدوئه، ومن خلف شجرة يسدِّد بندقيته نحو منتصف جبهة الدُّب ثم يُطلِق النارَ عليه.

كانت الغابة بكاملها تبدو وكأنها تصرُخ بصوتٍ عالٍ، وكان الدُّب يسقط على الأرض. كان الدم الأحمر الداكن يتدفق من فمه ويخنفر بوتيرة متسارعة إلى أن يموت في النهاية.

بعد ذلك، كان كوجورو يُسنِد بندقيته على شجرة، ويتوجَّه بحذر نحو الدب ويقول له شيئًا كهذا:

«لا تظُن أيها الدب أنني قتلتُك لأنني كنتُ أكرهُك. يجب أن أكسب عيشي، تمامًا كما يجب أن تموت بطلقاتي. أتمنى أن أقوم بعملٍ آخر؛ أن أعمل بدون وجود خطيئة في الأمر، لكن ليس لديَّ حقول، ويقولون إن أشجاري هي ملكٌ للدولة، وعندما أذهب إلى القرية، لا يرغب أحد في التعامل معي. أنا صياد لأنه ليس بوسعي فعل شيءٍ آخر. إن القدَر هو الذي جعلك دُبًّا، وهو الذي يجعلني أقوم بهذا العمل. تأكَّدْ من أنك لن تُولَد دبًّا من جديد في المرة القادمة!»

في مثل هذه الأوقات، كان الكلب أيضًا يجلس بجانبه بعينَين شبه مغمضتَين وهيئةٍ كئيبة. كان الكلب، كما تلاحظون، الرفيق الوحيد لكوجورو. ففي صيف عامه الأربعين، كانت كل عائلته قد أصيبت بمرض الزُّحار وتُوفي ابنُه وزوجة ابنه. لكن الكلب ظل نشيطًا وبصحةٍ جيدة.

بعد ذلك، كان كوجورو يُخرِج من جيبه سكينًا قصيرًا حادَّ الشفرة، ويشُق جلد الدب بضربةٍ واحدة طويلة تمتد من تحت ذقنه حتى صدره وصولًا إلى بطنه. المشهد الذي كان يعقب ذلك لا أرغب في التفكير فيه. ففي كل الأحوال، في النهاية، كان كوجورو يضع كبد الدُّب الأحمر الفاتح في الصندوق الخشبي الذي يحمله على ظهره، ويغسل فراءه الذي كان يقطُر دمًا بالكامل في مياه النهر، ثم يلفُّه ويرفعه على ظهره، لينطلق بعدها أسفل الوادي بقلبٍ مُثقل.

لقد بدا حتى لكوجورو أن بإمكانه أن يفهم ما تقوله الدِّبَبة بعضها لبعض. ففي وقتٍ مبكِّر من أحد فصول الربيع، وقبل أن يتحوَّل لون أيٍّ من الأشجار إلى اللون الأخضر، أخذ كوجورو الكلب معه وذهب بعيدًا نحو المنطقة المستنقعية لوادي شيرا. ومع اقتراب الغَسَق، بدأ في الصعود إلى الممر المؤدي إلى وادي بكاي، حيث كان قد بنى كوخًا صغيرًا من عُشب الخيزران ليحتمي به. لكن لسبب أو لآخر، وعلى غير عادته، سلك كوجورو الطريق الخاطئ. ذلك أنه ولعدة مرات كان يصعد ثم ينزل ليبدأ بالصعود مرةً أخرى؛ حتى إن الكلب كان مرهَقًا جدًّا، وكان كوجورو نفسُه يتنفَّس بصعوبة من طرَفٍ واحد من فمه، قبل أن يعثُرا أخيرًا على الكوخ الذي كان قد بناه في العام السابق، والذي كان نصفُه متداعيًا.

متذكرًا أن هناك نبعًا عند أسفل الكوخ مباشرةً، انطلق كوجورو إلى أسفل الجبل، لكن لم يكن قد قطع سوى مسافةٍ قصيرة عندما تفاجأ بوجود دُبَّين، أم وصغيرها الذي بالكاد يبلغ من العمر سنةً واحدة، يقفان تحت الضوء الخافت للقمر الذي كان لا يزال جديدًا، ويُحدِّقان باهتمامٍ صوب الوادي البعيد، وقد رفَعا أقدامهما الأمامية إلى جبهتَيهما، تمامًا كما يفعل البشر عند التحديق في شيءٍ بعيد. بالنسبة لكوجورو، بدا الدُّبَّان كما لو كانا مَحوطَين بنوع من الهالة، وتوقف ونظر إليهما مذهولًا.

حينئذٍ، قال الدُّب الصغير بصوتٍ مداهن: «أنا متأكد من أنه ثلج، يا أمي. فقط الجانب القريب من الوادي لونُه أبيض، أليس كذلك؟ بلى، أنا متأكد من أنه ثلج!»

تابعَت الأم التحديق لبعض الوقت قبل أن تقول: «إنه ليس ثلجًا. لن يسقُط في ذلك المكان فقط.»

قال الصغير: «إذَن، لا بُد أنه الوحيد الذي قد تبقَّى بعد انصهار بقية الثلج.»

«لا، لقد مررتُ من هناك البارحة وأنا في طريقي للبحث عن البراعم الشوكية.»

حدَّق كوجورو بقوة في نفس الاتجاه. كان ضوء القمر ينزلق أسفل جانب الجبل المتلألئ مثل درعٍ فضي. وبعد بُرهة تحدَّث الصغير ثانية.

قال: «إذا لم يكن ثلجًا فلا بد أنه صقيع. أنا متأكد من أنه كذلك.»

اعتقد كوجورو أنه سيكون هناك صقيعٌ الليلة حقًّا. كانت تُوجد نجمة تتلألأ باللون الأزرق بالقرب من القمر؛ وحتى لون القمر نفسه كان تمامًا مثل الثلج.

قالت الأم: «أعرف ما هو. إنه زهر الكَرز.»

«هل هذا كل شيء؟ لكني كنتُ قد رأيتُ ذلك.»

«لا، لم تفعل يا عزيزي.»

«لكنني فعلتُ. ذهبتُ وأحضرتُ بعضه للمنزل بنفسي أخيرًا.»

«لا، ذلك لم يكن كَرزًا. كان نوعًا من الزَّان، على ما أعتقد.»

تساءل الصغير ببراءة: «حقًّا؟»

لسببٍ ما، شعَر كوجورو بالسعادة. ألقى نظرةً أخيرة على الزهور الثلجية في الوادي، وعلى الأم وصغيرها الواقفَين هناك وضوء القمر يغمرهما، ثم انسحَب خلسةً من مكانه مع حرصه الشديد على عدم إصدار أي صوت. وبينما كان يتسلل بعيدًا، وهو يدعو طوال الوقت ألا تحمل الريح رائحتَه باتجاههما، وصلَت إليه رائحة شُجيرة بنجامين بقوة تحت ضوء القمر.

عندما كان كوجورو الشجاع هذا يصل إلى البلدة لبيع جلود الدِّبَبة وأكبادها، كان يُبدي شخصيةً أكثر خنوعًا.

في مكان بالقرب من وسط البلدة، كان يُوجَد متجرٌ كبير لبيع المُعدَّات؛ إذ كانت تُباع سِلال التذرية والسكر، وأحجار الشحذ والسجائر الرخيصة الثمن، وحتى مصائد الذباب الزجاجية.

كان على كوجورو فقط أن يتخطَّى عتبة المتجر واضعًا مجموعةً كبيرة من جلود الدِّبَبة على ظهره، ليبدأ الناس هناك بالابتسام وكأنهم يقولون: «ها هو مرةً أخرى». كان صاحب المتجر سيجلسُ بمهابة بجانب مَوقدٍ ضخم في غرفة تؤدي إلى المتجر.

كان كوجورو سيقول: «شكرًا لكَ على لطفك في المرة الأخيرة، يا سيدي»؛ والصياد الذي كان في التلال سيد نفسه بالكامل، كان سيُنزِل كَومة الجلود من على ظهره وينحني بشدة نازلًا على ركبتَيه على ألواح الأرضية الخشبية.

«حسنًا، حسنًا. ... وما الذي يُمكِنني أن أفعله من أجلك اليوم؟»

«لقد أحضرتُ قليلًا من جلود الدِّبَبة مرةً أخرى.»

«جلود دِبَبة؟ الجلود الأخيرة ما تزال مُلقاةً هنا في مكانٍ ما. لا نحتاج لمزيد منها.»

«أرجوك، يا سيدي؛ امنحنا فرصة. سأدعُكَ تحصُل عليها بسعرٍ رخيص.»

كان صاحب المتجر سيقول له بهدوء وهو يضرب على الفوَّهة الصغيرة لغَليونه براحة يده: «أنا لا أهتم بمدى رُخْص ثَمَنها؛ فأنا لا أريدها.»

حينما كان يسمع ذلك، كان كوجورو، سيد التلال الشجاع، يشعُر بأن وجهه يتلوَّى من القلق.

في المكان الذي ينتمي إليه كوجورو، كان يُوجد كستناء في التلال، وكان ينمو الدُّخن في الحقل الفقير البائس الذي يقع في الجزء الخلفي من المنزل؛ لكن لم يكن ينبُت الأرز هناك، ولم يكن هناك معجونُ فول صويا لصنع الحَساء. لذلك، كان عليه الحصول على بعض الأرز، مهما كان قليلًا، ليعود به إلى عائلته المكوَّنة من سبعة أفراد؛ والدته العجوز وأحفاده.

لو كان يعيش في القرية، لزرَع القنب اللازم لصناعة الملابس، لكن في المكان الذي كان يعيش فيه لم يكن يُوجد سوى عددٍ قليل من مُعترشات الويستريا التي تُصنع منها السِّلال وما شابه.

بعد بُرهة، كان كوجورو سيقول بصوتٍ مبحوح من الضيق: «من فضلك ... من فضلك اشتَرِ بعضها، مهما كان الثمن.» وكان سينحني لأسفل بشدة مرةً أخرى.

كان صاحب المتجر سينفُث الدخان لبعض الوقت دون أن يَنبِس ببِنتِ شَفة، ثم، محاولًا إخفاء ابتسامةِ رضًا بسيطة، كان سيجلس أمام كوجورو ويناوله أربعَ قِطعٍ نقدية فضية كبيرة. كان كوجورو سيَقبَلها بابتسامة، ويرفعُها إلى جبهته باحترام. ثم كان صاحب المتجر سيبدأ تدريجيًّا في رفع الكُلفة.

«يا هذا ... أعطِ كوجورو بعض الساكي.»

بحلول ذلك الوقت، كان وجه كوجورو سيبدأ في التوهُّج فرحًا. وكان صاحب المتجر سيتحدث معه بارتياح عن هذا وذاك. وباحترام، كان كوجورو سيُحدِّثه عن بعض الأمور التي تحدُث في التلال. وسرعان ما كان صوت سيأتي من داخل المطبخ يقول بأن الطعام قد أصبح جاهزًا. كان كوجورو سينهض ليغادر، لكن في النهاية كان سيُحمل على الدخول إلى المطبخ، حيث كان سيُلقي تحياته المهذبة مرةً أخرى.

على الفَور، كانوا سيُحضِرون طاولةً صغيرةً مَطليَّة بالورنيش الأسود موضوعًا عليها شرائح من سمك السلمون المُملَّح مع الحبار المُقطَّع ودورق من شراب الساكي الدافئ.

كان كوجورو سيجلس بنحوٍ مؤدب للغاية على الطاولة ويبدأ بتناول الطعام، موازنًا قطع الحبار على ظهر يده قبل أن يبتلعها وصابًّا شراب الساكي الأصفر في الكوب الصغير بوقار. ...

أيًّا كان معنى البيع بسعرٍ منخفض، فإن أي شخص كان سيرى أن اثنين من الين كان سعرًا زهيدًا جدًّا مقابل زوجٍ من جلد الدِّبَبة.

لقد كان حقًّا قليلًا جدًّا، وكان كوجورو يعرف ذلك. إذَن، لماذا لم يَبِع جلوده لشخصٍ آخر غير تاجر المُعدَّات؟ سيبدو ذلك غامضًا بالنسبة لمعظم الناس. لكن في تلك الأيام كان يُوجَد قانون للأشياء؛ من شأن كوجورو طبعًا أن يتغلب على الدِّبَبة، وصاحب المتجر أن يتغلب على كوجورو، والدِّبَبة أن تتغلب ... لكن بما أن صاحب المتجر كان يعيش في البلدة، لم تستطع الدِّبَبة التغلب عليه، في الوقت الحالي على الأقل.

كون الأمور كانت تجري هكذا، فإن كوجورو كان يقتُل الدِّبَبة دون أدنى شعور بالكراهية تجاهها. لكن، في إحدى السنوات، حدَث أمرٌ غريب.

كان كوجورو في طريقه صعودًا إلى أحد الأودية، وقد تسلَّق صخرةً لينظر فيما حوله، عندما شاهد دُبًّا ضخمًا محني الظهر، يتسلق مثل القطة شجرةً أمامه مباشرة. على الفور، صوَّب كوجورو بندقيته إليه. مبتهجًا، كان الكلب موجودًا بالفعل عند أسفل الشجرة، وأخذ يجري بجنونٍ حولها.

لكن الدُّب، الذي بدا لبعض الوقت وكأنه في جدال مع نفسه فيما إذا كان عليه أن ينزل عن الشجرة ويهجُم على كوجورو أم يجعل من نفسه هدفًا لطلقاته ببقائه في مكانه، أطلق كُفوفَه فجأةً في الهواء وسقط على الأرض. على الفَور وبحذرٍ شديد، وضع كوجورو بندقيتَه على كتفه واقترَب منه. لكن عند هذه النقطة رفع الدُّب كُفوفَه وصرخ قائلًا:

«ما الذي تسعى إليه؟ لماذا عليك أن تطلق النار عليَّ؟»

أجابه كوجورو: «لا شيء سوى الحصول على جِلدكَ وكبدك. لا يعني ذلك أنني سأحصُل على كثير مقابلهما عند أخذهما إلى البلدة. أشعُر بالأسف من أجلك، لكن لا حيلة لي في الأمر. هذا على الرغم من أنني عندما سمعتُ كلامك، فكَّرتُ بقرارة نفسي بأنني من الأفضل أن أعيش على الكستناء والسرخس وما شابه، حتى وإن أدى ذلك إلى موتي.»

«ألا يمكنك الانتظار لمدة عامَين آخرَين فقط؟ بالنسبة لي، أنا لا أبالي إن مت أم لا، لكنَّ هناك أمورًا أخرى يجب عليَّ أن أفعلها. وبعد مرور عامَين، ستجدني ميتًا أمام منزلك، أعدُك بذلك. عندها يُمكنكَ الحصول على جِلدي وأعضائي أيضًا.»

ممتلئًا بشعورٍ غريب، وقف كوجورو ساكنًا تمامًا، وأخذ يفكِّر.

وضع الدُّب كُفوفَه الأربعة على الأرض، وبدأ في الابتعاد ببطءٍ شديد. أما كوجورو فقد استمر في الوقوف هناك مُحدِّقًا أمامه بوجهٍ خالٍ من التعبير.

ببطء، ابتعد الدُّب دون أن ينظر إلى الوراء، كما لو كان يعلم جيدًا بأن كوجورو لن يطلق النار عليه من الخلف أبدًا. للحظة، لمع ظهرُه العريض ذو اللون الأسود المائل للبُني، تحت في ضوء الشمس المتساقط من خلال أغصان الشجر، وفي نفس اللحظة تأوَّه كوجورو بألَم، ثم توجَّه نحو منزله عَبْر الوادي.

مرَّ عامان. وفي صباح أحد الأيام، هبَّت الريح بشدة لدرجة أن كوجورو، الذي كان متأكدًا من أنها كانت ستُسقِط الأشجار والسياج النباتي وكل شيء، قد خرج ليتفحَّص الأمر. فوجد أن سياج السَّرو كان لا يزال واقفًا على حاله، لكن عند أسفله كان هناك شيءٌ أسودُ مائل للبني يبدو مألوفًا. خفَق قلبه بشدة؛ لأنه مرَّ عامان بالضبط منذ ذلك اليوم، وكان يُساوِره القلق فيما إذا كان الدُّب قد حضر. تقدَّم نحوه، فوجد الدُّب نفسه يرقد هناك كما وعَدَه، وكان ميتًا يَسبَح في بركةٍ كبيرة من الدماء التي كانت تتدفق من فمه. دون تفكير تقريبًا، ضم كوجورو يدَيه معًا وبدأ يُصَلي.

كان ذلك في أحد أيام شهر يناير. بينما كان كوجورو يغادر المنزل في ذلك الصباح، قال شيئًا لم يكن قد قاله قطُّ من قبلُ.

قال: «أمي، لا بد أنني أتقدم بالعمر. هذا الصباح، ولأول مرة في حياتي، لا أشعر أنني أريد أن أخوض فيما كنتُ أخوض فيه.»

رفعَت والدته، ذاتُ التسعين عامًا، التي كانت تجلس في الشُّرفة تغزل الصوف تحت أشعة الشمس، عينَيها المتعبتَين، ونظرَت إليه بتعبير قد ينمُّ عن الحزن أو الابتسام.

انتَعل كوجورو صندلَه المصنوع من القش، ثم وقف على قدمَيه وانطلق. وواحدًا تلو الآخر، أخرج الأطفال وجوهَهم من الحظيرة وقالوا مبتسمين: «عد إلى المنزل سريعًا، يا جدي.»

نظر كوجورو إلى السماء الزرقاء الصافية، ثم التفَت إلى أحفاده وقال لهم: «سأعود في وقتٍ لاحق.»

صَعِد عَبْر الثلج الأبيض النقي المتراص في اتجاه وادي شيرا. كان الكلب بالفعل يلهثُ بشدة ولسانه الوردي يتدلى من فمه، بينما كان يركُض إلى الأمام ويتوقف ثم يركُض ويتوقف مرةً أخرى. وسرعان ما غاب كوجورو عن الأنظار خلف تلٍّ منخفض، وعاد الأطفال إلى ألعابهم.

اتَّبَع كوجورو ضفة النهر حتى وادي شيرا. هنا كانت المياه تتجمَّع في بِركٍ زرقاءَ عميقة، وهناك كانت مجمَّدة في ألواحٍ أشبه بألواح الزجاج، وهنا كانت الرقاقات الثلجية تتدلى بأعدادٍ لا حصر لها مثل الستائر المصنوعة من الخرَز، وعلى كلتا الضفتَين كانت ثمار شجرة المغزل تختلس النظر مثل الزهور الحمراء والصفراء. وبينما كان كوجورو يَصعَد أعلى النهر، شاهد ظله المتلألئ وظل الكلب، النيلي الغامق، والذي قد ارتسم بوضوح على الثلج، يتداخلان أثناء تنقُّلهما مع ظلال جذوع شجر البتولا.

على الجانب الآخر من الجبل من ناحية وادي شيرا، كان يعيش، كما كان قد أكد خلال الصيف، دُبٌّ ضخم.

استمر بالمضي أعلى مجرى النهر، مجتازًا خمسة روافدَ صغيرة جاءت متدفقةً إلى الوادي، عابرًا المياه مرةً بعد الأخرى من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. ثم وصل إلى شلالٍ صغير، بدأ من أسفله في التسلق باتجاه قمة الجبل. كان الثلج باهرًا لدرجة أنه بدا وكأنه مشتعل، وبينما كان كوجورو يُجاهِد للوصول للقمة، شعَر كما لو أنه يرى كل شيءٍ حوله من خلال نظارةٍ أرجوانية.

كان الكلب يتسلق الجبل وكأنه كان عازمًا على ألا تهزمه وعورة المنحدر، فكان يتشبث بالثلج بتجهُّم على الرغم من أنه كاد ينزلق عنه عدة مرات. وعندما وصلا أخيرًا إلى القمة، وجدا أنفسهما على هضبةٍ كانت تنحدر برفق؛ حيث كان الثلج يلمع كالرخام الأبيض والقمم المُغطَّاة بالثلوج ترتفع في السماء من حولهما.

ما حدث بعد ذلك وقع بينما كان كوجورو يستريح هناك على القمة. فجأة، بدأ الكلب ينبَح بجنون. مذهولًا، نظر كوجورو خلفه فرأى نفس الدُّب الضخم الذي كان قد لَمَحَه في ذلك الصيف وقد انتصب على ساقَيه الخلفيتَين وراح يمشي بتثاقلٍ نحوه. دون ذُعر، غرَز كوجورو قدمَيه في الثلج بثبات وصوَّب بندقيتَه نحوه.

رافعًا كفَّيه الأماميَّتَين الضخمَتَين، اندفع الدُّب نحوَه مباشرةً. حتى كوجورو شَحَب وجهه قليلًا من المنظر.

سمع كوجورو دَوي البندقية. لكن الدُّب لم يُظهِر أي علامة على السقوط، بل بدا أنه يتقدم متمايلًا نحوَه، أسوَدَ وغاضبًا كالعاصفة. غرَز الكلبُ أسنانَه في ساقه. في اللحظة التالية، امتلأ رأس كوجورو بضوضاء شديدة، وأصبح كل شيء من حوله أبيض. ثم، من مسافةٍ بعيدة، سمع صوتًا يقول: «أوه، كوجورو، لم أقصد قتلك.»

قال كوجورو في نفسه: «إنه الموت.» كل ما كان بإمكانه رؤيته من حوله كانت أضواءً تتلألأ بنحوٍ مستمر كنجومٍ زرقاء. قال لنفسه: «تلك هي العلامات التي تُشير إلى أنني قد

انتهيت؛ إنها النيران التي تراها وأنت تموت. سامحيني، أيتها الدِّبَبة.» أمَّا ما شعَر به بعد ذلك، فليس لديَّ أدنى فكرة عنه.

كان هذا مساء اليوم الثالث بعد ذلك. بدا القمر في السماء ككُرةٍ كبيرة من الجليد. لَمع الثلج بلونٍ أبيضَ مُزرقٍّ زاهٍ، وتوهَّجَت المياه باللون الفسفوري. كانت كوكبة الثريا وحزام أوريون يُومضان مرةً باللون الأخضر، ومرةً باللون البرتقالي؛ كما لو كانا يتنفَّسان.

على الهضبة الموجودة أعلى الجبل، المحوطة بأشجار الكستناء والقمم الثلجية، تجمَّعَت العديد من الأشكال السوداء الكبيرة في حلقة، كلٌّ منها كان يُلقي بظله الأسود، ويسجُد على الثلج مثل المسلم في الصلاة، دون أن يتحرك أبدًا. وهناك عند أعلى نقطة كان يمكن للمرء أن يرى، في ضوء الثلج والقمر، جُثة كوجورو وهي في وضعية الركوع. وقد يتخيل المرء حتى أن على وجه كوجورو الميت المتيبِّس يُمكِن رؤية ابتسامةٍ باردة كما لو كان لا يزال على قيد الحياة. تحرَّك حزام أوريون إلى وسط السماء، ثم مال بعيدًا إلى الغرب، غير أن الأشكال السوداء الكبيرة ظلت مكانها ساكنةً تمامًا، كما لو أنها قد تحوَّلَت إلى حَجَر.

القِط البرِّي وجوز البلُّوط

في إحدى أمسيات السبت، وصلَت لمنزل إيتشيرو بطاقةٌ بريدية غريبة للغاية. هذا ما جاء فيها:

١٩ سبتمبر

السيد إيتشيرو كانيتا

أرجو أن تكون على ما يُرام. غدًا لديَّ قضيةٌ صعبٌ عليَّ الحكم فيها؛ لذا أرجو منك الحضور. رجاءً، لا تُحضِر معك أي أسلحةٍ نارية.

مع خالص احترامي

القِط البَرِّي

كان هذا هو كل شيء. كانت الكتابة فظيعة، والحِبر ملطخًا لدرجة أنه كاد أن يلتصق بأصابعه. لكن إيتشيرو كان مسرورًا جدًّا. ووضَع البطاقة في حقيبته بينما لم يكن هناك أحدٌ يراه، وأخذها إلى المدرسة، وكان طوال اليوم يقفز لأعلى ولأسفل من الفرحة.

وحتى بعد أن دخل إلى السرير في تلك الليلة، ظل يتخيل وجه القِط البري بابتسامته العريضة، والمشهد في محاكمة الغد، وأشياءَ أخرى كثيرة لم تجعله ينام حتى وقتٍ متأخر جدًّا.

عندما استيقظ، كان النهار قد طلَع بالفعل. ذهب للخارج وكانت التلال تصطفُّ تحت سماءٍ زرقاءَ ساطعة، ترتفع بديعةً ونظيفة كما لو أنها قد خُلقَت للتو. تناوَل فطوره على عَجَل، وانطلق بمفرده على طول الطريق المحاذي للجدول في الوادي. كان نسيم الصباح

المنعش يهُب هناك، ومع كل نسمةٍ كانت أشجار الكستناء تُسقِط ثمارها في كل الاتجاهات. رفع إيتشيرو نظره نحوها.

وقال: «مرحبًا يا أشجار الكستناء. هل مرَّ القِط البرِّي من هذا الطريق؟»

توقفَت أشجار الكستناء عن حفيفها للحظة وقالت: «القط البري؟ أجل، لقد مرَّ من هنا مسرعًا في عربة في وقتٍ مبكر من هذا الصباح، متجهًا نحو الشرق.»

«الشرق؟ ذلك هو الاتجاه الذي أسير فيه الآن. يا للغرابة! على أي حال، سأستمر في هذا الطريق وأرى. شكرًا لكِ، يا أشجار الكستناء.»

لم ترُد أشجار الكستناء، بل استمرَّت في نثر جَوزها في كل مكان. تقدم إيتشيرو قليلًا حتى وصل إلى شلال فلوت. كانت مياه الشلال تنبُع من فجوةٍ صغيرة تقع تقريبًا عند منتصف مُنحدرٍ ناصع البياض، وكانت المياه تُصدِر صفيرًا كصوت الفلوت قبل أن تسقُط هادرةً إلى الوادي الذي يُوجَد أسفلها. وقف إيتشيرو في مواجهة الشلَّال، وصاح فيه بصوتٍ عالٍ قائلًا:

«مرحبًا يا شلَّال فلوت. هل مرَّ القط البرِّي من هنا؟»

أجاب الشلَّال بصوتٍ صفيرٍ مرتفع: «القط البري؟ أجل، لقد مرَّ بسرعة من هنا وهو يركب عربتَه منذ قليل متجهًا نحو الغرب.»

قال إيتشيرو: «الغرب؟ إن بيتي يقع في هذا الاتجاه. يا لَلغرابة! على أي حال، سوف أمضي أبعَد قليلًا وأرى. شكرًا لك أيها الشلَّال.»

لكن الشلال كان بالفعل يُصفر لنفسه كما يفعل دائمًا. لذا، مضى إيتشيرو في طريقه أبعد قليلًا إلى أن وصل إلى شجرة زان. تحت تلك الشجرة، كان يُوجد عددٌ كبير من فِطر عيش الغراب الأبيض يعزف لحنًا مُكوِّنًا معًا فرقةً موسيقيةً لطيفة: تيدلي–تم–تم، تيدلي–تم–تم. انحنى إيتشيرو لها.

وقال: «مرحبًا أيها الفطر. هل مرَّ القط البرِّي من هنا؟»

أجاب الفطر: «القط البري؟ أجل، لقد مر من هنا مسرعًا وهو يركب عربةً متجهًا نحو الجنوب مبكرًا في هذا الصباح.»

قال إيتشيرو في حَيرةٍ متزايدة: «هذا غريب. هناك في تلك الجبال الموجودة هناك. على أي حال، سوف أمضي أبعد قليلًا وأرى. شكرًا لك أيها الفطر.»

لكن الفطر كان قد انهمَك بالفعل مرةً أخرى في عزف موسيقاه المميزة: تيدلي–تم–تم، تيدلي–تم–تم. ...

كان إيتشيرو ماضيًا في طريقه عندما شاهَد سنجابًا يقفز حول أغصان شجرة جَوز. قال إيتشيرو مُلوِّحًا له ليتوقف عن القفز: «مرحبًا أيها السنجاب! هل مرَّ القط البري من هنا؟»

أجاب السنجاب وهو يحجُب الشمس عن عينَيه بأحد كفوفه بينما كان ينظر للأسفل حيث إيتشيرو: «القط البرِّي؟ أجل، لقد مرَّ من هنا مسرعًا وهو يركب عربة متجهًا نحو الجنوب في بداية هذا الصباح.»

قال إيتشيرو: «الجنوب؟ هذا غريب؛ لقد قيل لي ذلك مرتَين. آه حسنًا، سوف أذهب أبعد قليلًا وأرى. شكرًا لك أيها السنجاب.»

لكن السنجاب ذهب. كل ما كان بإمكان إيتشيرو أن يراه هو الفروع العليا من شجرة الجَوز وهي تتمايل قليلًا، وأوراق شجرة الزان المجاورة وهي تلمع للحظاتٍ في ضوء الشمس.

انطلَق لمسافةٍ أبعد قليلًا، فأصبح الطريق على طول الجدول أكثر ضيقًا ثم اختفى بالكامل. لكن كان هناك طريقٌ آخرُ ضيِّق، يؤدي إلى الغابة المظلمة إلى الجنوب من الجدول؛ لذلك انطلق إيتشيرو سالكًا إياه. كانت أغصان الأشجار سميكة ومتشابكة للغاية بعضها مع بعض، لدرجة أنه لم يكن بالإمكان رؤية حتى أصغر بقعة من السماء الزرقاء من خلالها. أخذ الطريق بالانحدار أكثر فأكثر. احمرَّ وجه إيتشيرو وأخذ العرَق يتصبَّب منه في قطراتٍ كبيرة. لكن بعد ذلك، وبنحوٍ مفاجئ، وجد نفسه في مكان يغمُره الضوء. كان قد وصل إلى مَرجٍ ذهبي جميل. كان العشب يتحرك مع النسيم محدثًا حفيفًا، وفي كل مكان كانت تنتصب الأشجار الزيتونية اللون الجميلة.

هناك، في منتصف المَرْج، كان رجلٌ قصيرٌ شديد الغرابة يراقب إيتشيرو. كان ظهره مَحنيًّا، وفي يده سَوط من الجلد. اقترب إيتشيرو منه ببطء، ثم توقف مندهشًا. كان الرجل القصير ذا عينٍ واحدة، وكانت عينه العمياء البيضاء تتحرك بعصبيةٍ طوال الوقت. كانت ساقاه متقوستَين للغاية كساقَي المعزة، أما أغرب شيء فيه فكان أنَّ كلًّا من قدمَيه تشبه المجرفة.

سأل إيتشيرو محاولًا إخفاء توتُّره: «لم يحدُث وأن صادفتَ القط البري، أليس كذلك؟»

نظر الرجل القصير إلى إيتشيرو بعينٍ واحدة وكان فمه ملتويًا شَزرًا.

«سيعود السيد القط البرِّي في غضون لحظة. أعتقد أنك إيتشيرو، أليس كذلك؟»

تراجع إيتشيرو مندهشًا.

وأجاب: «نعم، أنا إيتشيرو. لكن كيف عرفتَ ذلك؟»

لوى الرجل القصير فمه شَزرًا أكثر.

وسأله: «إذَن، لقد وصلَتك البطاقة البريدية؟»

قال إيتشيرو: «نعم، لهذا السبب أتيتُ.»

سأل الرجل القصير وهو ينظر بتجهُّم نحو الأرض: «لقد كُتبَت بنحوٍ سيئ، أليس كذلك؟» شعَر إيتشيرو بالحزن من أجله.

فقال: «لا. لقد بدت جيدةً جدًّا بالنسبة لي.»

أطلق الرجل تنهيدةَ فرحٍ صغيرة وقد تورَّدَت أطراف أذنَيه. وفتح مِعطَفه من عند الرقبة ليُبرد نفسه قليلًا وسأل إيتشيرو:

«هل كان الخط على ما يُرام؟»

لم يستطع إيتشيرو إخفاء ابتسامته.

وقال: «لقد كان جميلًا. أشُك إذا كان حتى طالب بالصف الخامس يُمكِنه الكتابة بخطٍّ جيد كهذا.»

بدا الرجل القصير فجأةً مكتئبًا مرةً أخرى.

وقال: «عندما تقول طالب بالصف الخامس، فإنك تعني طالبًا في المدرسة الابتدائية، أليس كذلك؟» كان صوتُه فاترًا ومثيرًا للشفقة مما جعل إيتشيرو ينزعج.

فقال على عَجَل: «أوه، لا. في الجامعة.»

ابتهج الرجل القصير مرةً أخرى، وابتسم ابتسامةً عريضة لدرجة أن وجهه بدا وكأنه كله فمُه.

ثم صاح قائلًا: «أنا من كتبتُ تلك البطاقة البريدية.»

سأل إيتشيرو محاولًا ألا يبتسم: «من تكون أنت، إذَن؟»

أجاب: «أنا سائق عربة السيد القط البرِّي.»

هبَّت عصفةُ ريحٍ مفاجئة على العشب، وانحنى سائق العربة انحناءةً كبيرة. اندهش إيتشيرو واستدار ليجد القط البرِّي يقف خلفه. كان يرتدي معطفًا جميلًا من الديباج الأصفر، وكانت عيناه الخضراوان مستديرتَين بالكامل وهو ينظر إلى إيتشيرو. بالكاد كان لدى إيتشيرو الوقت الكافي ليُلاحِظ أن أذنَيه كانتا مدبَّبتَين ومنتصبتَين تمامًا مثل القط العادي، قبل أن ينحني القط البرِّي انحناءةً صغيرة.

قال إيتشيرو بأدب وهو ينحني في المقابل: «أوه، صباح الخير. شكرًا لك على البطاقة البريدية.»

قال القط البرِّي وهو يفرد شاربه وينفخ صدره: «صباح الخير. أنا مسرور برؤيتك. في الواقع، لقد نشأ نزاعٌ مزعج جدًّا أول أمس، ولم أعرف تمامًا كيف أحسمه؛ لذلك فكَّرتُ في أن أستشيرك. لكن على أي حال، تصرَّف على راحتك؟ سيصل جَوز البلوط إلى هنا في أي لحظة. في الحقيقة، وكما تعرف، أواجه كثيرًا من المشكلات مع هذه المحاكمة كل عام.»

أخرج عُلبة سجائر من داخل معطفه ووضع سيجارةً في فمه.

ثم سأل وهو يعرض العلبة على إيتشيرو: «أتريد واحدة؟»

قال إيتشيرو مندهشًا: «أوه، لا، شكرًا لك.»

قال القط البرِّي بضحكةٍ مَهيبة: «ها-ها! بالطبع، أنتَ ما زلتَ صغيرًا للغاية.» أشعل سيجارته بعود ثقاب، ثم أطلق سحابة من الدخان الأزرق وهو يَلوي وجهه عن قصد. سائق عربته، الذي كان يقف جامدًا بانتظار أوامره، بدا عليه أنه يرغب بشدة في الحصول على سيجارة؛ إذ كانت هناك دموعٌ كثيرة تنهمر على وجهه.

عند ذلك، سمع إيتشيرو صوت طقطقةٍ بسيطة عند قدمَيه، يشبه صوت الملح المُلقى على النار. انحنى مندهشًا لينظر فرأى أن الأرض كانت مُغطَّاة بأشياءَ ذهبيةٍ صغيرة مستديرة، تتلألأ فوق العُشب. نظر إليها من كثَب ووجد أنها كانت جَوز بلوط — لا بد أنه كانت هناك أكثر من ثلاثمائة جوزة — وكانت جميعُها ترتدي سراويل حمراء، وتتحدث معًا عن شيءٍ ما بأعلى صوتها.

قال القط البري وهو يُلقي سيجارته بعيدًا: «ها هي قد أتت. بأعدادٍ كبيرة كالنمل تمامًا.» وعلى عَجلٍ أعطى أوامره لسائق العربة. فقال: «أنت هناك، اقرَع الجرس. واقطَع العشب هنا؛ فالمكان منير.»

أخذ سائق العربة مِنجلًا كبيرًا كان بالقرب منه، وراح يقطع العشب أمام القط البري. على الفور، جاء جَوز البلوط مندفعًا من العشب المحيط وهو يلمع تحت أشعة الشمس ويُثرثِر كالمجانين.

قرَع سائق العربة جرَسَه. ترن، ترن! تردَّد صدى صوت الرنين عَبْر الغابة، وأصبح الجَوز الذهبي أهدأ قليلًا. ودون أن يُلاحِظ إيتشيرو ذلك، ارتدى القط البري عباءةَ حريرٍ سوداءَ طويلة، وكان يبدو مَهيبًا وهو جالس الآن هناك أمام الجَوز الذهبي. هذا جعل إيتشيرو يتذكَّر صورًا كان قد رآها لحشودٍ من المصلين الصغار أمام معبودٍ برونزي عظيم.

ضرب السائق بسوطه فصدر الصوت التالي: سويش، كراك! سويش، كراك! كانت السماء زرقاء لا غيوم فيها، وكان الجَوز يلمع بنحوٍ جميل.

بدأ القط البري الكلام قائلًا: «دعوني أذكِّركم بأن هذا هو اليوم الثالث الذي تُنظر فيه القضية. والآن، لمَ لا تتوقفون وتُسوُّون الأمر فيما بينكم؟»

كان صوتُه عصبيًّا قليلًا، لكنه أجبَر نفسَه على أن يبدو مَهيبًا. لم يكَد يتكلم مرةً أخرى حتى بدأ الجَوز بالشجار مرةً أخرى.

«لا، هذا مستحيل! أيًّا كان ما تقوله، إن الجوزة التي لها رأسٌ مُدبَّب أكثر من غيرها هي الأفضل. وأنا من لديها هذا الرأس.»

«لا، أنت مخطئة؛ الجوزة الأكثر استدارةً هي الأفضل. أنا الأكثر استدارة.»

«دعُوني أخبركم بأن الحجم هو المهم! الجوزة الأكبر هي الأفضل. أنا الأكبر؛ لذلك أنا الأفضل.»

«هذا هُراء! أنا أكبر بكثير. ألا تتذكَّرين أن القاضي قال ذلك بالأمس؟»

«كلكم مخطئون! الجوزة الأطول هي الأفضل. صدِّقوني عندما أقول لكم إن الطول هو المهم!»

«لا، إن أفضل الجَوز هو الماهر في الدفع والشق. هذا هو حل المعضلة.»

وهكذا كانت الجلَبة التي يُحدِثها الجوز شديدةً بحيث من المستحيل تمامًا أن تفهم ما يحدُث. كان الأمر أشبه بإثارة عُش دبابير.

صرخ القط البري قائلًا: «هذا يكفي! أين تظنُّون أنفسكم؟ اصمتوا! اصمتوا!»

ضرب سائق العربة بسَوطه مرةً أخرى؛ سويش، كراك! وفي النهاية لاذ الجوز بالصمت.

قال القط البري وهو يفتل شاربه حتى انتصب: «دعوني أذكِّركم ثانيةً بأن هذا هو اليوم الثالث الذي تُنظَر فيه القضية. والآن، لمَ لا تتوقفون وتُسوُّون الأمر فيما بينكم؟»

«لا، لا، لا فائدة من ذلك! أيًّا كان ما تقوله، إن الجوزة التي لها رأسٌ مُدبَّب أكثر من غيرها هي الأفضل!»

«لا، أنت مخطئة. الجوزة الأكثر استدارةً هي الأفضل!»

«لا، أنت مخطئة، الجوزة الأكبر هي الأفضل!»

واستمر الجدال والثرثرة ثانية، بحيث كان من الصعب أن تفهم ما يحدُث.

صرخ القط البري قائلًا: «ذلك يكفي! أين تظنُّون أنفسكم؟ اصمتوا! اصمتوا!»

ومرةً أخرى ضرب سائق العربة بسَوطه سويش، كراك! وفتل القط البري شاربه حتى انتصب في النهاية ثم تحدَّث ثانية.

«لست بحاجة لأن أذكِّركم أن هذا هو اليوم الثالث الذي تُنظر فيه القضية. لماذا لا تُنهون هذا وتصبحون أصدقاء مرةً أخرى؟»

«لا، لا، لا فائدة من ذلك! الجوزة التي لها أكثر رأس مدبَّب ...» ثرثرة، ثرثرة، ثرثرة. ...

صرخ القط البري قائلًا: «ذلك يكفي! أين تظنون أنفسكم؟ اصمتوا! اصمتوا!»

ومرةً أخرى ضرب سائق العربة بسوطه، ولاذ الجوز ثانيةً بالصمت.

همس القط البري لإيتشيرو قائلًا: «ها أنت ترى ما يجري. ماذا تعتقد أنه يجب عليَّ أن أفعل؟»

ابتسم إيتشيرو. وقال «حسنًا، إليك أحد الاقتراحات. أخبِرْهم أن أفضلهم هو الأكثر غباءً، والأكثر سخافة، والأكثر في انعدام الفائدة. في الواقع، لقد سمعتُ ذلك في موعظة.»

أومأ القط البري برأسه بحكمة، واستعد لإصدار حُكمه. فتح العباءة الحريرية الخاصة به عند الرقبة فظهر قليل من مِعطف الديباج الأصفر الخاص به، واستجمَع هَيبتَه. ثم تكلم.

فقال: «حسنًا! اهدءوا الآن! ها هو حكمي. أفضلكم هو الأقل أهمية، والأكثر حماقة، والأكثر سخافة، وغير المفيد على الإطلاق، وغريب الأطوار تمامًا!»

ساد صمتٌ بين جَوز البلوط، والذي كان صمتًا تامًّا لدرجة أنه كان بإمكانك سماع صوت دبُّوس لو سقط.

خلع القط البري عباءته السوداء، ومسح العرَق من جبهته وصافح إيتشيرو، بينما ضرب سائق العربة بسَوطه خمس مرات أو ستًّا تعبيرًا عن فرحه الشديد.

قال القط البري لإيتشيرو: «أنا ممتنٌّ لك كثيرًا. عليَّ أن أعترف بأنك قد خلَّصتَني من أكثر القضايا صعوبةً في أقل من دقيقة ونصف. أتمنى أن تعمل قاضيًا فخريًّا في محكمتي مرةً أخرى في المستقبل. عندما أرسِل لك بطاقةً بريدية من الآن فصاعدًا، أرجو منك الحضور، ما رأيك؟ وسأسعى لمكافأتك بنحوٍ مناسب في كل مرة.»

قال إيتشيرو: «سآتي طبعًا. لكن لا أريد أيَّ مكافأة.»

قال القط البري معترضًا: «أوه، لا. يجب أن تحصُل على مكافأة. إنها مسألة شرف بالنسبة لي، كما تعلم. ومن الآن فصاعدًا، سوف أرسِل البطاقة البريدية إلى «حضرة المحترم إيتشيرو كانيتا»، وأطلِق عليها اسم «المحكمة»، فهل هذا جيد؟»

قال إيتشيرو: «هذا جيد.»

صمَت القط البري للحظة، وأخذ يبرمُ شاربه كما لو كان هناك شيءٌ آخر يريد أن يقوله. ثم بدا أنه قد استجمع شجاعته وقال:

«بالنسبة لصياغة البطاقة ... ماذا لو وضعتُها على هذا النحو: «فيما يتعلق بالقضية الحالية، فإن حضورك للمحكمة هو بمنزلة استدعاءٍ رسمي»؟»

ابتسم إيتشيرو. وقال: «تبدو العبارة غريبةً نوعًا ما بالنسبة لي. ربما من الأفضل أن تحذف هذا الجزء.»

حدَّق القط البري في الأرض على نحوٍ مغتم، وكان ما يزال يعبث بشاربه وكأنه نادم على أنه لم يَصُغها بنحوٍ أفضل. وأخيرًا قال بتنهيدة:

«حسنًا، إذَن، سنترُك الأمر كما هو. أوه أجل ... بشأن مكافأتك لهذا اليوم. أيهما تفضِّل؛ نصف كيلو من جَوز البلوط الذهبي أم رأس سمكة سلمون مملَّحًا؟»

قال إيتشيرو: «الجَوز، من فضلك.»

استدار القط البري مباشرةً نحو سائقه، وكأنما شعَر بالارتياح لأن المكافأة لم تكن رأسَ سمكة سلمون.

وقال متحدثًا بسرعة: «أحضِر نصف كيلو من جَوز البلوط الذهبي. إذا لم يكن يُوجد ما يكفي، فبإمكانك وضع بعض الجَوز المطلي بالذهب. هيا افعل ذلك بسرعة!»

بدأ سائق العربة في غَرف الجَوز في وعاءٍ خشبي مربع يُستخدم كمقياس. وعندما انتهى، قال بصوتٍ عالٍ: «نصف كيلو بالضبط.»

كان معطف القط البرِّي المصنوع من الديباج يُرفرِف في النسيم. تمطَّى القط، ثم أغلق عينَيه وكبَت تثاؤبه.

وقال: «رائع! والآن أسرِع وجهِّز العربة.»

ظهرَت عربةٌ مصنوعة من فِطرٍ أبيض كبير، يجُرها حصانٌ غريب الشكل للغاية ذو لونٍ رمادي؛ في الواقع، كان يبدو مثل الجرذ تمامًا. استدار القط البري نحو إيتشيرو.

وقال له: «والآن دعني أُقلكَ إلى المنزل.»

صَعِدوا إلى العربة، ووضَع سائق العربة المقياس المليء بالجَوز الذهبي بجانبهما، وضرب الحصان بسَوطه وانطلقوا. غادروا المَرج، وكانت الأشجار والشجيرات تتمايل في ضبابٍ مُزرق. كانت عينا إيتشيرو تُركِّزان على الجَوز الذهبي الخاص به، بينما كان القط البرِّي يُحدِّق ببراءةٍ تامة في الأفق البعيد.

ولكن مع تقدُّم العربة، فقد الجَوز بريقه، وعندما توقفَت العربة، بعد وقتٍ قصير، كما بدا، تحوَّل الجَوز الذهبي إلى جَوز من النوع العادي ذي اللون البُني. اختفى فجأةً بالكامل معًا كلٌّ من معطف القط البري المصنوع من الديباج الأصفر، وسائق العربة، وعربة الفطر، أما إيتشيرو فقد تُرك واقفًا أمام منزله ومقياس الجَوز في يده.

منذ ذلك الوقت فصاعدًا، لم تعُد تصل إلى إيتشيرو أي بطاقاتٍ بريدية تحمل توقيع «مع خالص احترامي، القط البرِّي». كان إيتشيرو يتساءل عن هذا الأمر أحيانًا. ربما كان عليه أن يُوافِق على أن يدَع القط البرِّي يكتب في البطاقة البريدية عبارة «إن حضورك هو بمنزلة استدعاء رسمي».

جورش عازف التشيلُّو

كان جورش هو عازف آلة التشيلُّو في دار السينما في البلدة. لسوء الحظ كان معروفًا عنه أنه ليس بالعازف الجيد. «ليس بالعازف الجيد» ربما ليس هو التعبير المناسب؛ لأن عزفه في الحقيقة كان أسوأ من عزف أيٍّ من زملائه الموسيقيين، وكان دائمًا يتعرَّض للنقد القاسي من قِبل قائد الفرقة الموسيقية لهذا السبب.

بعد ظُهر أحد الأيام، كانوا جميعُهم يجلسون في دائرة خلف الكواليس يتدرَّبون على السيمفونية السادسة لبيتهوفن، التي كانوا سيؤدونها في قاعة الحفلات الموسيقية في المدينة قريبًا.

كانت الأبواق تُدوِّي بكل قوة.

وكانت آلات الكلارينيت تدعمُها.

وكانت آلات الكمان أيضًا تعزف بحماسة.

أما جورش، فكان يشذُّ في عزفه عن الجميع؛ إذ كان غير متيقظ لما يدور حوله، يُطبِق شفتَيه ويُحملِق بالنوتة الموسيقية التي أمامه بعينَين كبيرتَين تبدُوان كصُحون الفناجين.

فجأة، صفَّق قائد الفرقة الموسيقية بيدَيه.

فتوقَّف الجميع عن العزف على الفور، وساد الصمت.

صاح القائد: «لقد تأخَّر التشيلُّو! تم–تيدي، تيدي–تي ... هيا أعيدوا العزف مرةً أخرى من الجزء الذي يبدأ بـ تم–تيدي، تيدي–تي. أفهمتم؟» وهكذا بدأ الجميع بالعزف من النقطة التي تسبق تلك التي كانوا قد وصلوا إليها. وبوجهٍ أحمر وجبينٍ متعرق بالكامل، تمكَّن جورش على نحوٍ ما من تجاوُز الجزء الصعب. وكان جورش يعزف الجزء الذي يليه بنوع من الارتياح، عندما صفَّق القائد بيديه مرةً أخرى.

«يا عازف التشيلُّو! إنك تخرُج عن الإيقاع! ما الذي يمكن أن نفعله معك؟ ليس لديَّ الوقت لأعلِّمك السُّلم الموسيقي البسيط، كما تعلم!»

شعَر الآخرون بالأسف تجاه جورش، وحدَّقوا عمدًا بنُوتهم الموسيقية، أو شرَعوا في ضبط آلاتهم. وعلى الفور، راح جورش يشُد أوتار آلته.

«من المازورة السابقة. أفهمتم؟»

بدأ الجميع بالعزف مرةً أخرى. كان فم جورش ملتويًا وهو يحاول العزف بنحوٍ صحيح. لأول مرة، تمكَّنوا من مواصلة العزف لنقطةٍ متقدمة دون أي مشكلات، وكان جورش يشعُر بالرضا الشديد عن نفسه عندما عبَس قائد الفرقة وأمر العازفين بالتوقف عن العزف. قال جورش محدثًا نفسه بقلبٍ مرتجف: «أوه، لا ... ليس مرةً أخرى.» لكن هذه المرة، لحسن الحظ، كان المخطئ شخصًا آخر. فتعمَّد جورش النظر من كثَب إلى نوتته الموسيقية، كما كان قد فعل الآخرون عندما شعَروا بالأسف من أجله، وبذل قصارى جهده ليبدو منغمسًا في شيءٍ آخر.

«دعُونا ننتقل مباشرةً إلى الجزء التالي. حسنًا؟»

لكن جورش، الذي كان يشعُر بالاعتداد بنفسه، لم يكَد يبدأ بالعزف حتى ضرب القائد بقدمه على الأرض بقوة وبدأ في الصراخ.

وقال: «لن يُجدي هذا. هناك حالة من الاضطراب والفوضى في الفرقة. هذا الجزء هو قلبُ العمل بأكمله، وانظروا كيف تُشوِّهونه. أيها السادة، لدينا عشرة أيام فقط حتى موعد العرض. نحن موسيقيون محترفون ... كيف لنا أن نُواجه الناس إذا كان أداؤنا أشبه بأداء مجموعةٍ غير منظَّمة من الموسيقيين غير المهرة؟ أنت يا جورش. أنت إحدى المشكلات الرئيسية. لا يظهر عليك أي تعبير. لا غضب، لا فرح ... أي شعور على الإطلاق. كما أنك لا تتزامن في عزفك مع عزف زملائك على الآلات الأخرى. أنت دائمًا تتأخر، وتشبه في ذلك من لا يُحكِم ربط رباط حذائه فيتدلى على الأرض مما يجعله يُبطئ في مشيه. لن يُجدي ذلك ... عليك أن تُطوِّر من نفسك. ليس من العدل للآخرين أن يصبح اسم فرقة فينوس الموسيقية ملطخًا بالوحل بسبب رجلٍ واحد. حسنًا، إذَن ... لنتوقف عن التدريب الآن. خذوا قسطًا من الراحة، وكُونوا في المكان المحدد عند الساعة السادسة تمامًا.»

انحنَوا جميعًا، ثم ذهبوا للتدخين أو التجول في الخارج.

حاملًا التشيلُّو الرخيص الخاص به الشبيه بالصندوق بين ذراعَيه، أدار جورش وجهه للحائط. كان فمُه ملتويًا وتنهمر دموعٌ غزيرة على خدَّيه، لكنه سرعان ما لملم شتات نفسه، وبدأ بمفرده وبهدوءٍ كبير في العزف مرةً أخرى من البداية الجزء الذي عزفوه للتو.

في وقتٍ متأخر من ذلك المساء، وصل جورش إلى منزله وهو يحمل شيئًا أسود ضخمًا على ظهره. لم يكن منزله في الحقيقة أكثر من طاحونةٍ قديمة متهالكة تقع بجوار نهر في ضواحي المدينة. وكان يعيش هناك بمفرده. وكان يقضي صباحه في تقليم الطماطم والتقاط اليرقات من حبات الكرنب في الحقل الصغير المحيط بالطاحونة، بينما كان يخرج دائمًا في فترة ما بعد الظهيرة.

دخل جورش المنزل وفتح الشيء الأسود. كان يُوجد بداخله بالطبع آلة التشيلُّو الضخمة القبيحة التي كان يعزف عليها في وقتٍ مبكر من ذلك المساء. أنزَلها برفق على الأرض، ثم أخذ كوبًا وصبَّ فيه بعض الماء من دلو وشربه بسرعة.

بعد ذلك، وهو يهزُّ برأسه، جلس على كرسي، وبدأ في عزف المقطوعة الموسيقية التي كانوا يتدربون عليها ذلك اليوم، مُغيرًا على آلته بضراوة نمر.

وهو يُقلب صفحات النوتة الموسيقية، أخذ يعزف لبُرهة ويفكِّر، ثم يفكِّر لبرهة ويعزف، وعندما كان يصل إلى النهاية كان يبدأ مرةً أخرى من البداية، ماضيًا بعزفه على نفس الوتيرة مرارًا وتكرارًا.

استمَر على ذلك المنوال إلى ما بعد منتصف الليل بوقتٍ طويل، حتى إنه في النهاية بالكاد أصبح يُميِّز فيما إن كان هو من يعزف أم أحدٌ آخر. بدا مُريعًا، وكأنه قد ينهار في أي لحظة؛ إذ كانت عيناه داميتَين بشدة ووجهُه متوردًا للغاية.

بعد ذلك مباشرةً، نقر أحدُهم على الباب الموجود خلفه ثلاث مرات.

نادى كما لو كان نصف نائم: «هل هذا أنت يا هورش؟» لكن لم يكن هورش من دفع الباب ودخل، بل كان قطًّا كبيرًا فراؤه يُشبِه صدفة السلحفاة كان قد رآه من قبلُ أكثر من مرة في الأنحاء.

كان القِط يحمل، بجهدٍ كبير كما بدا، حبة طماطم نصف ناضجة كان قد أتى بها من حقل جورش، ووضعها أمامه.

قال: «أُف! كان ذلك متعبًا. إن حمل الأشياء عملٌ فظيع.»

صاح جورش متعجبًا: «ماذا ...؟»

قال القط: «إنها هدية لك.»

كل الغيظ الذي كان يُراكِمه جورج بداخله منذ وقتٍ سابق في ذلك اليوم انفجر لتوِّه دفعةً واحدة.

«من طلب منكَ أن تُحضِر حبة الطماطم؟ لماذا أريد أي شيء من شخصٍ مثلك؟ وحبة الطماطم تلك، بالإضافة إلى ذلك، هي من حقلي. ما الذي تظن أنك فاعله؟ ... تقطفها قبل

نضوجها! أعتقد أنه أنت إذَن من كان يقطع السيقان ويُبعثِرها في أنحاء المكان؟ اخرُج من هنا، أيها القِط اللعين!»

كل ذلك جعل كتف القط الزائر يتدلى وعينَيه تضيقان، لكنه أجبَر نفسه على الابتسام ابتسامةً عريضة وقال: «يجب ألا تغضب يا سيدي هكذا؛ فهذا سيئ جدًّا على صحتك. لماذا لا تعزف شيئًا عوضًا عن ذلك؟ على سبيل المثال، «ترومبري» لشومان. ... سأكون أنا جمهورك.»

«لم أسمع بمثل هذه الوقاحة اللعينة قَط. ومن قِط!»

شاعرًا بغضبٍ شديد، قضى جورش بعض الوقت في التفكير في الأشياء التي يَرغَب في فعلها في هذا المخلوق.

قال القِط: «هيا، لا تخجل. أرجوك. كما تعلم، أنا لا أستطيع الخلود للنوم ما لم أستمع لعزفك.»

«لقد سئمتُ من وقاحتك! سئمت، أقول! سئمت!»

كان وجه جورش قد أصبح أكثر احمرارًا، وكان يصرخ ويضرب الأرض بقدمَيه، تمامًا كما كان قد فعل قائد الفرقة في وقتٍ سابق من ذلك اليوم. لكن، فجأة، غيَّر رأيه وقال: «حسنًا، إذَن، سوف أعزف!» بتجهُّم، أغلَق الباب وأوصَد جميع النوافذ، ثم أخرج آلة التشيلُّو وأطفأ الضوء. وعندما فعل ذلك، أضاء ضوءُ القمر القادم من الخارج نصف الغرفة.

«ما الذي كنتَ تريد أن تسمعه؟»

قال القط بصوتٍ جاد تمامًا وهو يمسح فمه أثناء كلامه: «... «ترومبري». لشومان.»

«أوه. «ترومبري». بالطبع. هل هكذا تُعزف؟»

متجهمًا مرةً أخرى، مزَّق منديله إلى قِطع وأغلَق بها كلتا أذنَيه. ثم بدأ بقوة في عزف قطعة تُسمَّى «صيد النمور في الهند».

استمع القط لفترة من الوقت ورأسه مَحْني، لكنه فجأةً رمش بعينَيه بسرعة وقفز نحو الباب. ارتطم جسده بالباب لكنه لم ينفتح. فأصابت القط حالة هياجٍ كبيرة، وتطايَر الشرَر من عينَيه ومن جبهته. ثم تطايَر من شاربه وأنفه أيضًا الذي أصبح يُدغدِغه، فبدا لوهلةٍ أنه على وشك أن يعطس، وبدأ يُهرول في المكان كما لو أنه لا يستطيع البقاء ساكنًا. كان جورش مسرورًا بالتأثير الذي أحدثه، وبدأ يعزف بقوةٍ أكثر.

قال القط: «سيد جورش، ذلك يكفي، شكرًا لك. هذا يكفي. أتوسَّل إليك أن تتوقف. أعدُك بأنني لن أخبرك مرةً أخرى بما يجب عليك فعله.»

«اهدأ! لقد وصلنا لتوِّنا إلى الجزء الذي يصطادون فيه النمر.»

عندها أصبح القِط يقفز صعودًا وهبوطًا في ألم، ثم بدأ يعدو بمحاذاة كل جدران الغرفة، مما أعطى وهجًا أخضر قصيرًا عندما كان يحتكُّ بها. وفي النهاية أصبح يلفُّ في حركةٍ دائريةٍ سريعة.

بدأ رأس جورش يدور قليلًا، فقال: «حسنًا، سوف أتركُك الآن.» وأخيرًا توقَّف عن العزف.

أجبر القِط نفسه على أن يبدو هادئًا. وقال: «سيد جورش، يوجد شيءٌ مختلف في عزفك لهذه الليلة. أليس كذلك؟»

مرةً أخرى، شعر جورش بالانزعاج الشديد، لكنه بدون تركيز أخرج سيجارة ووضعها في فمه، ثم أخذ عود ثقاب وقال: «ماذا عنك؟ هل أنت متأكد أنك على ما يُرام؟ دعني أُلقي نظرةً على لسانك.»

بنحوٍ فظٍّ نوعًا ما، أخرج القِط لسانه الطويل المدبَّب.

قال عازف التشيلُّو: «آها! أخشى أنه يبدو خشنًا بعض الشيء»، ودون سابق إنذار، أشعل عود الثقاب فوق لسانه وأشعل سيجارته. إن القول بأن القِط كان مصدومًا، لا يُعبِّر جيدًا عن الأمر؛ فقد ركض، وهو يُلوِّح بلسانه كلُعبةِ طاحونة الهواء، باتجاه الباب، وضرب رأسه به، ثم ترنَّح بعيدًا، وعاد واصطدم به مرةً ثانية وترنَّح، ثم عاد واصطدم به مرةً أخرى وترنَّح، محاولًا بيأسٍ الهروب.

لفترة من الوقت راقبه جورش بمتعة، ثم قال له: «سأدعُك تخرج. وتذكَّر ألا تعود مرةً أخرى. غبي!»

فتح الباب، واندفع القط بسرعة البرق عَبْر عشب البامباس. ابتسم جورش قليلًا بينما كان يُراقِبه وهو يذهب، ثم ذهب لسريره ونام بهدوء وكأن حِملًا قد انزاح عن كاهله.

في مساء اليوم التالي أيضًا، عاد جورش للمنزل وهو يحمل نفس الشيء الأسود على ظهره، وبعد أن شرب كميةً كبيرة من الماء، بدأ بالعزف بنشاز على التشيلُّو الخاص به مرةً أخرى. وسرعان ما أصبحَت الساعة الثانية عشرة، ثم الواحدة، فالثانية، وجورش كان ما يزال ماضيًا في عزفه. كان مستمرًّا في العزف، وهو بالكاد مُدرِك كم كان الوقت أو حتى حقيقة أنه كان يعزف، عندما سمع أحدهم يدُق على الجانب الآخر من السقف.

صرخ: «ماذا! ... ألَم تكتفِ بعدُ أيها القط؟» وعندئذٍ جاء صوت نقر من فتحة في السقف، وإذا بطائرٍ رمادي يعبُر من خلالها ويسقط على الأرض. لقد كان طائرَ وقواق.

قال جورش: «إذَن، أصبح لديَّ طيورٌ الآن أيضًا. ماذا تريد؟»

قال الوقواق بجديةٍ تامة: «أريد أن أتعلم الموسيقى.»

قال جورش مبتسمًا: «الموسيقى، صحيح؟ لكن كل ما يمكنك غناؤه هو كوكو، كوكو، أليس كذلك؟»

قال طائر الوقواق بجدية: «بلى، هذا صحيح. لكنك تعرف أنه من الصعب جدًّا القيام بذلك.»

«صعب؟ المشكلة الوحيدة لدى طيور الوقواق هي اضطرارها إلى الغناء كثيرًا. لا تُوجد صعوبة في النغمات الفعلية، أليس كذلك؟»

«بلى، فعليًّا هذا هو السبب في صعوبة الأمر الشديدة. على سبيل المثال، إذا غنَّيتَ هكذا — كوكو — ثم هكذا — كوكو — تجد أنهما مختلفان تمامًا فقط من خلال الاستماع، أليس كذلك؟»

«بالنسبة إليَّ يبدُوان نفس الشيء.»

«ذلك لأن أذنك ليست مُرهَفةً بما فيه الكفاية. بإمكانك أن تُغنِّي عشرة آلاف كوكو وستكون مختلفةً كلها بالنسبة لنا.»

«لن أجادلك في هذا. لكن إذا كنتَ جيدًا جدًّا في ذلك، فلماذا كان عليك أن تأتي إليَّ؟»

«أريد أن أتعلم السُّلم الموسيقي بنحوٍ صحيح.»

«لمَ عليك تعلُّم السلم الموسيقي؟»

«أوه، إن المرء يحتاج إليه إذا كان مسافرًا للخارج.»

«ولماذا تريد السفر للخارج؟»

«سيدي ... أرجو منك أن تُعلمني السُّلم الموسيقي. سوف أغنِّيه معك وأنت تعزف.»

«أوه، تبًّا! انظر، سوف أعزفه ثلاث مراتٍ فقط، وعندما أنتهي، أريد منك الخروج من هنا.»

أخذ جورش آلة التشيلُّو الخاصة به، وشد الأوتار حتى يضبطها، ثم عزف: دو، ري، مي، فا، صول، لا، سي، دو.

لكن طائر الوقواق خفق بجناحيه في حزن.

وقال: «لا، لا. ما هكذا ينبغي أن يسير الأمر.»

«ليس هناك ما يُرضيك. حاول أنت إذَن.»

«هكذا يكون.» انحنى الطائر للأمام قليلًا، واستجمع قواه، ثم صدَح بصوته كوكو واحدة.

«حسنًا! هل تُسمِّي ذلك سُلمًا موسيقيًّا؟ إذا كان كذلك، فإنه سلمٌ موسيقي عادي، والسيمفونية السادسة بالنسبة لكم يجب أن تكون عبارة عن كوكو متكرِّرة متماثلة.»

«أوه، لا، إنها مختلفة تمامًا.»

«كيف؟»

«إحدى الصعوبات تكون عندما تُكرِّرها كثيرًا بنحوٍ متتالٍ.»

«هل تقصد مثل هذا، على ما أعتقد؟» أخذ جورش التشيلُّو مرةً أخرى وبدأ يعزف عددًا من الكوكو بنحوٍ متتابع.

ابتهجَ الطائر كثيرًا عند سماعه ذلك كثيرًا، لدرجة أنه في وسط ذلك بدأ بغناء كوكو بالتزامن مع عزف جورش. استمَر بالغناء وهو يميل بجسده جيئة وذهابًا.

بدأ جورش يشعُر بأن يدَيه تؤلمانه؛ لذلك توقَّف.

وقال: «يا هذا، هذا يكفي، أليس كذلك؟»

لكن طائر الوقواق ضيَّق عينَيه في حزنٍ شديد، واستمر في الغناء لفترةٍ قصيرة، إلى أن صدح في النهاية كوكو، كوك–كوك–كوك–كو وتوقف.

في تلك اللحظة كان الغضب يتملك من جورش.

«انظر ... إذا انتهيت، يمكنك الانصراف.»

«أوه، أرجوك. ألن تعزفها مرةً أخرى فقط؟ لا يزال هناك شيءٌ غير صحيح فيها من جانبك.»

«ماذا؟ ليس من المفترض أن أتعلم منك. هيا، اذهب إلى المنزل.»

قال الطائر وهو يميل برأسه في تذلل: «أرجوك، لمرةٍ واحدة أخرى فحسب. أرجوك ...»

«حسنًا، إذَن، هذه المرة فحسب.» وهكذا جهَّز جورش قوسه.

غرَّد طائر الوقواق بكوك واحدة ثم قال: «لأطول فترةٍ ممكنة إذا كنتَ لا تمانع.» وانحنى برأسه مرةً أخرى.

قال جورش: «ليساعدنا الرب.» وبدأ العزف بابتسامةٍ ممتعضة. مرةً أخرى انغمس طائر الوقواق تمامًا في الحالة، وغنَّى بكل طاقته وهو يميل بجسده ذهابًا وإيابًا: كوكو، كوكو، كوكو.

في البداية، شعَر جورش بالغضب الشديد، لكن مع استمرار العزف بدأ ينتابه شعورٌ غريب بأن طائر الوقواق كان، بطريقةٍ ما، هو من كان يعزف نغمات السُّلم الموسيقي. في الواقع، كان كلما عزف أكثر، اقتنع أكثر بأن طائر الوقواق كان أفضل منه.

وقال: «يا للجحيم! سأصبح طائر وقواق إذا واصلتُ ذلك»، وتوقَّف عن العزف فجأةً.

ترنَّح طائر الوقواق كما لو أن أحدهم قد ضربه على رأسه، ثم، تمامًا كما كان قد فعل من قبلُ، غنَّى: كوكو، كوكو، كوك–كوك–كوك، وتوقَّف.

قال الطائر وهو ينظر إلى جورش باستياء: «لمَ توقفتَ؟ أي طائر وقواق جدير بالاحترام كان سيستمر في الغناء بأعلى صوته حتى يؤلمه حلقه بشدة بحيث لا يكون قادرًا على الاستمرار.»

«عجبًا، يا صفيق ... هل تظن أنه يمكنني الاستمرار في العبث بهذا النحو إلى الأبد؟ هيا، اخرج الآن. يا هذا، ألا تستطيع أن ترى أن الوقت الآن قد قارب الفجر؟» وأشار إلى النافذة.

كانت السماء الشرقية تتحول إلى اللون الفضي الباهت؛ إذ كانت السُّحب السوداء تمُر عَبْرها بسرعة باتجاه الشمال.

«ألا نستطيع الاستمرار حتى طلوع الفجر؟ ما علينا سوى الانتظار لوقتٍ قصير.»

أحنى طائر الوقواق رأسه مرةً أخرى.

«هذا يكفي! يبدو أنك تعتقد أنه بإمكانك فعل ما تريد دون مراعاة للآخرين. إذا لم تخرج، فسوف أنتف ريشك، يا أيها الطائر الغبي، وآكلك في الإفطار.» وضرب بقدمه على الأرض بقوة.

بدا أن هذا قد أخاف طائر الوقواق؛ ذلك لأنه فجأةً طار لأعلى نحو النافذة، فقط ليضرب رأسه بقوة بالزجاج، ويسقط على الأرض ثانية.

«انظر إلى نفسك أيها الأحمق، وأنت تصطدم بالزجاج!» وبسرعةٍ نهض جورش لفتح النافذة، لكن النافذة لم تكن قَط من النوع الذي يُفتح بسهولة، وأخذ يُحرِّك الإطار بقوة عندما ارتطم طائر الوقواق به، وسقط على الأرض مرةً أخرى.

كان بإمكان جورش رؤية قليل من الدم يسيل من قاعدة منقاره.

«سأفتحه لك؛ لذا انتظر لحظة، رجاءً.» بصعوبةٍ بالغة كان قد فتح النافذة بمقدار بضع بوصات فقط عندما نهض طائر الوقواق، ثم طار باهتياجٍ شديد وهو يحدِّق بقوة بالسماء الشرقية فيما وراء النافذة، وبدا وكأنه كان مصممًا على النجاح هذه المرة بأي ثمن

كان. في هذه المرة، بالطبع، ارتطم بالنافذة بقوةٍ أكثر من ذي قبل، وسقط على الأرض حيث بقي ساكنًا تمامًا لبعض الوقت. غير أنه عندما مد جورش إحدى يدَيه ليحمله نحو الباب ليدعه يطير بعيدًا، فتح الطائر فجأةً عينَيه وقفز بعيدًا عن متناول يدَيه. بدا عليه كما لو أنه كان سيطير باتجاه النافذة ليرتطم بها ثانية؛ لذلك، ودون تفكير تقريبًا، رفع جورش ساقه وضرب النافذة ضربةً قوية.

اثنان أو ثلاثة ألواح من النافذة تحطَّمَت مُحدِثةً صوتَ ارتطامٍ هائل، وسقطَت النافذة برُمتها إلى الخارج، الإطار وكل شيء. طار طائر الوقواق للخارج كالسهم من خلال الفتحة الكبيرة التي خلَّفها الحُطام. استمَر في الطيران لمسافةٍ بعيدة إلى أن غاب عن الأنظار كليًّا. لفترة من الوقت ظل جورش ينظر للخارج في اشمئزاز، ثم ارتمى بتثاقُل في زاويةٍ من زوايا الغرفة، واستسلم للنوم بمكانه.

في اليوم التالي، عزف جورش أيضًا على آلة التشيلُّو الخاصة به حتى منتصف الليل. كان متعَبًا ويشرب كأسًا من الماء عندما سمع نقرًا على الباب مرةً أخرى.

أيًّا كان زائره، كان يقول لنفسه إنه كان سيتخذ موقفًا تهديديًّا منذ البداية، ويُبعدُه قبل أن يحدُث الشيء نفسه الذي حدث مع طائر الوقواق. وبينما كان ينتظر وكأس الماء بيده، انفتح الباب قليلًا ودخل منه شِبل غرير. فتح جورش الباب أكثر قليلًا، ثم ضرب بقدمه على الأرض.

صاح: «أنت، اسمع، هل تعرف ما هو حَساء الغرير؟» لكن الغرير جلس بنحوٍ منظَّم على الأرض والحَيرة تبدو على وجهه، وبدأ يفكِّر لفترة بينما يميل برأسه إلى أحد الجانبَين.

قال بصوتٍ خافت: «حَساء الغرير؟ لا.»

تعابير وجه شبل الغرير جعلَت جورش يريد أن ينفجر ضحكًا، لكن سرعان ما رسَم على وجهه تعابيرَ صارمة، وتابع قائلًا: «إذَن سأخبرك. حَساء الغرير، كما تعلم، هو غرير مثلك تمامًا جرى غليه مع الكرنب والملح كوجبةٍ لذيذة مُعدَّة لمن هم مثلي.»

كان الغرير الصغير لا يزال ينظر بحَيرة وقال: «لكن والدي، كما تعلم، قال إن عليَّ أن أذهب لأدرس مع السيد جورش؛ لأنه رجل لطيف جدًّا، ولا داعي للخوف منه على الإطلاق.»

لدى سماعه هذا، ضحك جورش أخيرًا بصوتٍ عالٍ جدًّا. وقال: «وماذا قال لك إنك ستدرُس؟ عليك أن تعلم أنني مشغول. ونعسان أيضًا.»

تقدَّم الغرير الصغير للأمام كما لو كان قد استجمع شجاعته فجأةً.

وقال: «اعلم أنني من أعزف على الطبلة المطوَّقة، وقد قيل لي أن أذهب وأتعلم العزف برفقة آلة التشيلُّو.»

«لكنني لا أرى أي طبلةٍ مطوَّقة.»

«هنا ... انظر.» وأخرج الغرير عصوَين كانتا متدليتَين على ظهره.

«وماذا تنوي أن تفعل بهما؟»

«اعزف رجاءً مقطوعة «المدرب السعيد»، وسترى.»

««المدرب السعيد»؟ ما هذا؛ مقطوعة جاز أو شيء من هذا القبيل؟»

«هذه هي النوتة الموسيقية.»

هذه المرة، أخرج الغرير من خلف ظهره ورقةً عبارة عن نوتةٍ موسيقية. أخذها منه جورش وضحك.

«حسنًا، هذه قطعةٌ موسيقية مضحكة! تمام. دعنا نبدأ إذَن. أنت ستعزف على الطبلة، أليس كذلك؟» وبدأ العزف وهو يُراقِب شبل الغرير من زاوية عينه ليرى ماذا سيفعل.

ووسط دهشة جورش، بدأ الغرير بحيوية في الضرب بعصوَيه على جسم التشيلُّو تحت الجسر. ولم يكن أداؤه سيئًا على الإطلاق، وفيما كان يعزف وجد جورش نفسه قد بدأ يستمتع بالأمر.

عندما وصلا للنهاية، ظل الغرير يفكر لفترة من الوقت وهو يميل برأسه جانبًا. ثم أخيرًا بدا وكأنه قد توصَّل لنتيجة من نوعٍ ما؛ إذ قال: «عندما تعزف على الوتر الثاني هذا، فإنك تتأخر، أليس كذلك؟ يبدو أن ذلك يجعلني أخرج عن الإيقاع بطريقةٍ ما.»

فوجئ جورش بذلك. لقد كان محقًّا؛ فمنذ مساء اليوم السابق كان يشعُر أنه مهما كانت براعته في العزف على هذا الوتر بالذات، كان هناك دائمًا تأخير قبل أن يخرُج صوت النغمة.

فقال بحزن: «هل تعلم أنك ربما تكون على حق؟ هذا التشيلُّو ليس جيدًا.» بدا الغرير متعاطفًا معه، وسرح بتفكيره لبرهة مرةً أخرى.

«أتساءل أين الخلل فيه. هل تُمانِع في عزفها مرةً أخرى؟»

«بالطبع.» وبدأ جورش بالعزف ثانيةً. بدأ الغرير بالعزف كما حدث في المرة السابقة وقد أخذ يميل برأسه إلى جانبٍ واحد من حين لآخر كما لو أنه كان يُصغي لآلة التشيلُّو. وفي الوقت الذي انتهى فيه كلاهما من العزف كان هناك وميضُ ضوءٍ يسطع مرةً أخرى من جهة الشرق.

«انظر ... لقد قارب الفجر على البزوغ. شكرًا جزيلًا لك.» على عَجَل، رفع الغرير الصغير العصوَين والنوتة الموسيقية على ظهره وربطها هناك بشريطٍ مطاطي، وانحنى مرتَين أو ثلاثًا وخرج مسرعًا من المنزل.

جلس جورش لفترةٍ قصيرة وهو شارد الذهن، يستنشق الهواء البارد الذي يدخل من خلال النافذة التي كان قد حطمها الليلة الماضية، ثم قرر أن ينام ويستعيد نشاطه للذهاب إلى البلدة، فذهب إلى سريره.

في اليوم التالي، أيضًا، ظل جورش مستيقظًا طوال الليل يعزف على آلة التشيلُّو الخاصة به. كان الفجر على وشك البزوغ، وكان قد بدأ يغفو بينما كانت النوتة الموسيقية ما تزال في يده، عندما سمع مرةً أخرى نقر أحدهم. كان النقر خافتًا جدًّا لدرجة أنه كان من الصعب التأكد من أن أحدهم كان قد طرق بالفعل أم لا، لكن جورش، الذي اعتاد على هذا بحلول ذلك الوقت، سمع الطَّرق في الحال وقال: «فلتدخُل.»

فُتح الباب بحوالَي بوصة أو اثنتَين، ودخلَت منه فأرةُ حقل تقود فأرَ طفلٍ صغير الحجم للغاية. وبتردُّد، تقدَّمَت نحو جورش. أما بالنسبة للفأر الصغير، فقد كان صغيرًا جدًّا — تقريبًا بحجم مَمْحاة — لدرجة أن جورش لم يستطع منع نفسه من الابتسام. أخذَت الأم تنظر حولها وكأنها تتساءل فيما قد يكون سبب ابتسامه، ثم وضَعَت أمامها حبة كستناء خضراء، وانحنَت بنحوٍ جيد للغاية.

ثم قالت: «سيد جورش! هذا الطفل ليس على ما يُرام، وأخشى أنه قد يموت. أتوسل إليك، لطفًا منك، أن تشفيه.»

سألها جورش بفظاظة نوعًا ما: «كيف تتوقعين مني أن أفعل ذلك؟»

نظرَت الفأرة الأم إلى الأرض وبقيَت صامتةً لبعض الوقت، ثم بدا أنها استجمعَت شجاعتَها وقالت: «أعلم جيدًا أنك تُعالِج كل أنواع الأشخاص كل يوم، وأنك ماهرٌ جدًّا في ذلك أيضًا.»

«لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه.»

«لكن بفضلك تحسَّنَت جدة الأرنب، أليس كذلك؟ ووالد الغرير، وحتى ذَكَر البومة العجوز البغيض هذا قد شُفي، أليس كذلك؟ لذا في ظل هذه الظروف أعتقد أنه من غير اللائق جدًّا منك أن تقول إنك لن تُنقِذ هذا الطفل.»

«انتظري لحظةً ... لا بد أن هناك خطأً ما. فأنا لم أعالج قَط أيَّ ذكَرٍ بومةٍ مريض. لكن في الحقيقة كان عندي هنا الغرير الصغير الليلة الماضية، والذي بدا وكأنه عضو في الفرقة.»

ضحك وهو ينظر إلى الفأر الطفل في حَيرة.

لكن الفأرة الأم بدأت في البكاء.

«يا ويلي، إذا كان على الطفل أن يمرَض فقد كنتُ أتمنى فقط لو أنه فعل ذلك في وقتٍ أبكر. لقد كنتَ تُقعقِع بآلتك هنا منذ فترةٍ وجيزة، ثم ما إن مرض حتى تلاشى الصوت نهائيًّا، وأنت ترفض الآن العزف مرةً أخرى. يا له من صغيرٍ مسكين!»

صرخ جورش مذهولًا: «ماذا؟ تقصدين أنني عندما أعزف فإن الأرانب والبوم المريضة تتحسَّن حالتها؟ عجبًا، كيف؟»

قالت فأرة الحقل وهي تفركُ عينَيها بإحدى كفوفها: «كلما مرض سكان هذه المنطقة، فإنهم يزحفون تحت أرضية منزلك.»

«هل تعنين أنهم يتعافَون؟»

«نعم، إن العزف يُحسِّن الدورة الدموية بنحوٍ رائع. إنهم يشعُرون بتحسنٍ كبير. بعضُهم يُعالَجون على الفور، والبعض الآخر بعدما يزورون المنزل مرةً أخرى.»

«آه، لقد فهمت. تقصدين أنه عندما يقعقع التشيلُّو الخاص بي فإنه يعمل بمنزلة نوع من التدليك؟ ... الآن فهمت. حسنًا جدًّا، سأعزف لأجلك.» ضربَ على الأوتار قليلًا لضبطها، ثم فجأةً أمسك بالفأر الصغير بين أصابعه وأدخله في الفتحة الموجودة في التشيلُّو.

قالت الفأرة الأم باهتياج وهي تقفز داخل التشيلُّو: «سأذهب معه. كل المستشفيات تسمح بذلك.»

قال جورش: «إذَن أنتِ أيضًا تريدين الدخول، أليس كذلك؟» وحاول مساعدتَها للدخول من خلال الفتحة، لكنها استطاعت إدخال نصف وجهها فقط.

قالت لصغيرها في الداخل بينما كانت تدفع نفسها وتُصارِع من أجل الدخول: «هل أنت بخير بالداخل؟ هل سقطتَ بنحوٍ صحيح على كفوفك الأربعة كما كنتُ أُعَلمُك دائمًا؟»

قال الفأر الصغير بصوتٍ خافت جدًّا كان بالكاد يُسمع من أسفل التشيلُّو: «أنا بخير. لقد سقطتُ بنحوٍ جيد.»

قال جورش: «بالطبع هو بخير. لذلك لا نُريدكِ أن تبكي الآن.»

وضع جورش الفأرة الأم على الأرض، ثم تناوَل قوسَه وراح يعزف لحنًا مرتجلًا. جلسَت الأم تستمع بقلق إلى جودة الصوت، لكن، أخيرًا، بدا أنها لم تعُد تتحمل الانتظار، وقالت: «هذا يكفي، شكرًا لك. هل يمكنك إخراجه الآن، من فضلك؟»

«حسنًا! هل هذا كل شيء؟» قلَب جورش التشيلُّو، ووضع يده بجانب الفجوة، وانتظر. وعلى الفور تقريبًا ظهر الفأر الصغير. ودون أن يَنبِس بكلمة، وضعه جورش على الأرض. كانت عينا الطفل مغمضتَين تمامًا، وأخذ يرتجف ويرتجف وكأنه لن يهدأ أبدًا.

سألت الفأرة الأم طفلها: «كيف كان الأمر؟ كيف تشعُر؟ هل أنت أفضل؟»

لكنه لم يرُد، بل ظل جالسًا لفترة من الوقت مُغمَض العينَين وقد أخذ يرتجف ويرتجف، ثم قفز فجأةً لأعلى وبدأ يركض.

«انظر، إنه أفضل! شكرًا جزيلًا لك، يا سيدي، شكرًا جزيلًا.» ذهبت الفأرة الأم وركضَت قليلًا مع طفلها، لكنها سرعان ما عادت إلى جورش وقالت وهي تنحني مرارًا وتكرارًا: «شكرًا جزيلًا لك، شكرًا جزيلًا لك»، مُكرِّرةً ذلك حوالَي عشر مرات.

وبطريقةٍ ما، شعَر جورش بالشفقة الشديدة تجاههما.

قال: «والآن ... هل تأكلان الخبز؟»

بدَت فأرة الحقل الأم مصدومة. وقالت وهي تنظر حولها باضطراب: «أوه، لا! يقول الناس بأن الخبز خفيف جدًّا وجيد للأكل — إذ يبدو أنهم يصنعونه من الطحين المعجون — لكن نحن بالطبع لم نقترب قَط من خِزانتك، ولن نرغب أبدًا في القدوم لسرقته بعد كل ما صنعتَه من أجلنا.»

«لا ... هذا ليس ما أقصده. أنا أسأل فقط إذا كان بإمكانكما تناوُله. لكن بالطبع يمكنكما ذلك. انتظري لحظة، إذَن، سوف أعطي بعضًا منه لهذا الطفل لسوء معدته.»

وضع التشيلُّو على الأرض، وذهب إلى الخزانة، واقتطع بعضًا من الخبز، ووضعه أمامهما.

بكت الفأرة الأم وضحكَت وانحنَت لجورش تمامًا كما لو أنها قد فقدَت عقلها، ثم وبحذرٍ شديد وضعَت الخبز في فمها وخرجَت وهي تدفع بطفلها أمامها.

قال جورش: «يا إلهي! إنه لمن المرهق تمامًا التحدث إلى الفئران.» ثم رمى بنفسه على سريره، وسرعان ما نام وراح يشخر.

كان هذا في مساء اليوم السادس التالي للأحداث السابقة. بوجوهٍ متوهجة، ذهب أعضاء الفرقة الموسيقية فينوس، يحمل كل واحد منهم آلَتَه في يده، متفرقين من مسرح قاعة

البلدة إلى غرفة الموسيقيين في الخلف. لقد أدَّوا للتَّو السمفونية السادسة بنجاحٍ كبير. كانت عاصفة التصفيق ما تزال مستمرةً في القاعة. كان قائد الفرقة ويداه في جيبَيه، يسير ببطء بينهم كما لو أن التصفيق لم يكن يعني له شيئًا على الإطلاق، لكنه في الحقيقة كان سعيدًا للغاية. كان بعضهم يضع السجائر بين شفاهه ويُشعِل أعواد الثقاب، والبعض الآخر يضع آلاته داخل حقائبها.

كان التصفيق لا يزال مستمرًّا في القاعة. وفي الواقع، كان يعلو باطراد وبدأ يدعو للقلق لأن الأمور قد تخرج عن السيطرة. عند ذلك، دخل عليهم مدير الحفلات، والذي كان يضع وردةً تزيينية بيضاء كبيرة على صدره.

وقال: «إن الجمهور يدعوكم للظهور ثانيةً. هل بإمكانكم عزف مقطوعةٍ قصيرة من أجلهم؟»

أجاب قائد الفرقة بحزم: «أخشى أنه لا يمكننا ذلك. لا يُوجد شيءٌ يمكننا القيام به ويكون مُرضيًا لنا بعد هذا العمل الكبير.»

«إذَن ألن تخرج وتتحدث إليهم؟»

«كلا. أنت يا جورش. اذهب واعزف لهم شيئًا، ما رأيك؟»

قال جورش بدهشة كبيرة: «أنا؟»

قال مدير الحفلات فجأةً، رافعًا رأسه: «أنت ... نعم، أنت.»

قال قائد الفرقة الموسيقية: «هيا، الآن. هيا اذهب.»

وضع الآخرون التشيلُّو الخاص به في يدَيه، وفتحوا الباب، ودفعوا به للأمام. وعندما ظهر على خشبة المسرح ممسكًا بالتشيلُّو وهو يشعُر بالحرج، صفَّق الجمهور بصوتٍ أعلى وكأنه يقول: «انظروا هناك، هل ترونه؟» حتى إن بعضهم بدأ بالهُتاف.

قال جورش محدثًا نفسه: «لكن هل يجدون الاستهزاء بأحد الأشخاص أمرًا ممتعًا؟ حسنًا ... سأريهم. سأعزف لهم معزوفة «صيد النمور في الهند».»

بهدوءٍ تام الآن، تقدَّم إلى منتصف خشبة المسرح. وبدأ بعزف «صيد النمور في الهند» بكل طاقة فيلٍ غاضب، تمامًا كما فعل عندما أتى لمنزله القِط. ساد الصمت بين الجمهور، وأصغَوا بكل ما أُوتوا من قوة. استمر جورش بالعزف بثباتٍ وهمَّة. الجزء الذي أخذ القِط فيه يقفز صعودًا وهبوطًا في ألمٍ عُزف وانتهى. وهكذا الحال بالنسبة للجزء الذي رمى بنفسه عنده على الباب مرةً تلو الأخرى.

عندما انتهى من العزف أخيرًا، لم ينظر جورش حتى إلى الجمهور، بل رفع التشيلُّو، وجرى بسرعة، تمامًا كما كان قد فعل القِط، وذهب إلى غرفة الموسيقيين. لكن هناك وجد قائد الفرقة وجميع زملائه جالسين صامتين تمامًا، يُحدِّقون للأمام مباشرةً كما لو حدث حريقٌ للتَّو.

مشى جورش، الذي لم يعُد يهتم بما حدث، بسرعة من أمامهم، وألقى بنفسه على أريكة في الجانب الآخر من الغرفة، ووضع ساقًا على الأخرى.

استداروا جميعًا للنظر إليه، لكن بدلًا من أن يسخروا منه، كانت تعابيرهم جادَّة.

قال جورش في نفسه: «لا أستطيع فهم ما يحدُث هذا المساء.» لكن قائد الفرقة وقف وقال: «جورش، لقد كنتَ رائعًا! قد لا تكون الموسيقى معروفةً كثيرًا، لكنك جعلتَنا نُواصِل الإصغاء دون توقُّف. لقد تحسَّن أداؤك كثيرًا خلال الأسبوع أو الأيام العشرة الماضية. عجبًا، إن مقارنتَه بأدائك قبل أيام العشرة الماضية يشبه مقارنةَ مجنَّدٍ قليل الخبرة بمناضلٍ مخضرم. كنتُ أعلم دائمًا أنه باستطاعتكَ ذلك إذا حاولتَ، يا جورش!»

الآخرون أيضًا، تقدَّموا نحوه، وقالوا: «أحسنتَ!»

كان قائد الفرقة يقول من خلفهم: «كما ترَون، يُمكِنه فعلُ ذلك لأنه قويُّ الإرادة. إن الظروف التي وُضع فيها كانت كفيلةً بكسر أي رجلٍ عادي.»

في وقتٍ متأخر من تلك الليلة، عاد جورش لمنزله.

في البداية، شرب كميةً جيدة من الماء. ثم فتح النافذة ونظر إلى السماء البعيدة في الاتجاه الذي راقب طائر الوقواق وهو يذهب منه، وقال: «أتعلم أيها الوقواق ... أنا آسفٌ لما حدث. ما كان ينبغي أن أغضب هكذا.»

توكوبي توراكو

أعتقد أنكم قد سمعتم بأرواح الثعالب. بلا شك تُوجد أشكالٌ عديدة منها، لكن الروح الوحيد الذي أعرفه يُدعى توكوبي توراكو.

منذ زمنٍ بعيد، كان يعيش توكوبي توراكو على ضفة نهرٍ كبير؛ إذ كان يُعَد مصدر إزعاجٍ كبير للناس في الليل؛ إذ كان يسرق السمك من أولئك الذين كانوا يأتون لصيد السمك بالشِّباك، والتوفو المقلي من أولئك العائدين لمنازلهم متأخرين بعد الانتهاء من التسوُّق في القرية.

في إحدى الأمسيات، بينما كان رجلٌ جشِع طاعن في السن يُدعى روبي يمشي ثملًا بمحاذاة ضفَّة النهر عائدًا من القرية إلى منزله، قابل ساموراي حسن المظهر يرتدي كيمونو تقليديًّا مصنوعًا من الحرير الذهبي اللامع. ما كان ليصدُر من الرجل العجوز أثناء مروره بالساموراي سوى انحناءةٍ مهذبة، لولا أن اعترَض الأخير طريقه، ورفع بصره نحو السماء، ثم أمسك لحيته بقوة طالبًا منه التوقف. كانت تلك هي ليلة قمر الحصاد.

«أنت، توقف للحظة ... ما اسمك؟»

«نعم يا سيدي، نعم يا سيدي ... يَدْعونني روبي، يا سيدي.»

«روبي؟ أنت مُقرِض أموال، أليس كذلك؟»

«بلى، هو أنا يا سيدي. هذا صحيح تمامًا، يا سيدي. لكنني أخشى أنه ليس لديَّ أيُّ أموال يمكن أن أُقرِضها الآن.»

«كلا، كلا ... لستُ مهتمًّا باقتراض المال. أخبرني ... أعتقد أن إقراض المال عملٌ مربح، أليس كذلك؟»

«مربح؟ ها-ها، إنها مزحةٌ طريفة منك يا سيدي. نعم، إنه حقًّا كذلك، يا سيدي.»

فقال له الساموراي: «يتصادف أن لديَّ مبلغًا قليلًا من المال لا أحتاجه في الوقت الحالي. وأنا في طريقي إلى مقاطعةٍ بعيدة. فهل تعتني به من أجلي؟ لكن اعلم أنَّ لديَّ أعداءً في كل أنحاء المكان. فإذا حدث لي مكروهٌ وأنا في طريقي إلى هناك، فسيُصبِح هذا المال لك، وبإمكانك أن تفعل به ما تشاء. ما رأيك؟»

«موافق، يا سيدي ... سأكون مسرورًا جدًّا بالاعتناء به من أجلك، يا سيدي. ...»

«جيد. حسنًا، إنني أحتفظ بالمال هنا. بإمكانك رفعُ الغطاء بنفسك وإلقاء نظرة للتأكد من الأمر.»

بكثير من النخر واللهث، أخرج الساموراي حبلًا أبيض ربط به كُمَّي الكيمونو الخاص به، ثم شد تنُّورته الخَشِنة لأعلى، وذهب بخطواتٍ سريعة نحو حاجز الضفة. هناك انحنى لبُرهة إلى الأسفل، ورفَع صندوق مال وحمَله، وعاد به إلى روبي.

قال روبي في نفسه: «آها! إنه على الأرجح لص. أو مُزوِّر. على كل حال، لا يهمُّني من يكون. إذا أصابه مكروه في رحلته هذه، فلن يعود عليَّ ذلك بأي ضرر.»

ثم قال بصوتٍ مرتفع، كاتمًا ابتسامةَ فرح: «رائع جدًّا، يا سيدي.»

فتح غطاء الصندوق، ووجده مليئًا بقِطع النقود الذهبية التي تلمع في ضوء القمر.

بكثير من اللهث مرةً أخرى، أحضر الساموراي صندوق مالٍ آخر. مرةً أخرى، فحَصَه روبي بجدية. لقد كان أيضًا مليئًا بقطعٍ ذهبية تلمع في ضوء القمر.

وهكذا، وبكثير من اللهث، وصل عدد الصناديق في النهاية إلى عشرة.

«ما رأيك ... هل تستطيع حمل كل هذه الصناديق بمفردك؟ بالطبع سأتركُ لك منها فقط ما أنت قادرٌ على حمله.»

لم يستطِع روبي منع نفسه من الشعور بأن في الأمر ما هو مريبٌ قليلًا؛ لكن ما الذي كان سيَضيره حتى وإن كان في الأمر ريبة؟

«ليست هناك مشكلة، يا سيدي. فعشرة صناديق أو نحو ذلك ليست عبئًا عليَّ. أنا متأكد تمامًا أن بإمكاني حملها.»

«جيد. حسنًا، إذَن ... من الأفضل أن تبدأ.»

«كما تريد، يا سيدي. فلنبدأ ... يا مُعين! يا مُعين!»

«رائع، رائع! أنت لستَ بذلك الرجل الضخم لكنَّ لديك عزمًا شديدًا. أنا مُعجَب بك حقًّا. حسنًا، إذَن، سوف أترُكها في رعايتك.»

فتح الساموراي مروحته الفضية، وانحنى باحترام مودعًا روبي. لكن روبي لم يفكر في رد الانحناءة؛ لأنه كان يرزح تحت ثقل الصناديق العشرة.

رحل الساموراي وهو ينظر للأمام، ويقي عينَيه بمروحته الفضية، ويُتمتِم ببعض السطور، مما بدا أنه إحدى مسرحيات النو.

أما روبي، فكان يترنَّح في مشيته بسبب حمله الثقيل، وبالكاد كان ينتبه لسطوع القمر أو تعرُّجات الطريق، إلى أن وصل إلى المنزل أخيرًا، وحينها ألقى حمولتَه على أرض الحديقة، وقال بصوتٍ عالٍ وسعيد:

«افتحوا الباب! افتحوا الباب! لقد عاد ... لقد عاد المليونير!»

فتحَت ابنتُه المصراعَين الخشبيَّين للباب.

وقالت له: «عجبًا يا أبي ... لماذا تحمل كل هذا الحصى؟»

بذهولٍ شديدٍ نظر روبي إلى حمولته التي ألقاها لتَوِّه على الأرض، ولدهشته وجد أنها كانت مجرد عشرة أكياسٍ عادية من حصى حاجز الضفة.

بدأ الزَّبَد يخرج من فم روبي وأُغمي عليه على الفور. ثم سرعان ما أُصيب بحمَّى شديدة منعَتْه من القيام بأي شيء لمدة شهرَين سوى أن يصرُخ قائلًا:

«لقد خُدعتُ من قِبل توكوبي توراكو. لقد خُدعت!»

حسنًا، ما رأيكم في هذه القصة ... هل هي حقيقية؟ بالطبع لقد حدثَت هذه القصة منذ زمنٍ بعيد جدًّا لدرجة أنه ليس بإمكان أيِّ شخصٍ الآن أن يُحدِّد مدى صحتها، لكنني أظُن أنها من نسج الخيال، ألا تعتقدون ذلك؟

إذا سألتم عن السبب، فذلك لأن قصةً أخرى قد وصلَتني، والتي اختُلقَت بالتأكيد من قِبل شخصٍ ما. إن الأحداث التي تصفُها قد حصلَت منذ زمنٍ قريب جدًّا، لدرجة أنه لا شك فيها على الإطلاق. في الواقع لقد حدثَت الليلة الماضية فقط.

تقول القصة إنه على ضفَّة النهر الكبير نفسه، وعلى بعد نحو ميل من المكان الذي كان يسكُنه الثعلب، يُوجد منزلٌ يملكه رجلٌ يُدعى هايمون.

لقد عُيِّن هايمون عضوًا في مجلس القرية هذا الربيع، وبهذه المناسبة أقام حفلًا الليلة الماضية، دعا إليه جميع المعارف. قضى الجميع وقتًا ممتعًا للغاية، مليئًا بالضحك والمزاح والدعوة للاستمتاع بالشراب. كانت حفلةً جميلة حقًّا. لكن كان يجلس بينهم شخصٌ لم يبتسم ولو لمرةٍ واحدة. ذلك الشخص كان مزارعًا شاحبَ الوجه، قصير القامة، نكِدًا، وكان اسمه كوكيتشي.

كان كوكيتشي يشعُر بالسخط لبعض الوقت الآن.

كان يقول في نفسه في اشمئزاز: «هناك شيءٌ صغير مقرف على حافة وعاء الأرز الخاص بي. ... المكان قَذِر هنا. ... السمكة التي في هذا الصَّحن تُحدِّق بي بعينَيها البيضاوَين. ... لم يُقدِّم لي أي أحدٍ كأس ساكي لأشربه. ... أوه، هذا كثير!»

رأى أن هذا يكفي، وخرج وهو غاضب.

نادى عليه هايمون قائلًا: «تمَهَّل، لا تذهب الآن يا كوكيتشي. تناوَلْ كأسًا آخر. هيَّا، اجلس!»

لكن كوكيتشي انتعل صندله الخشبي، وغادر المكان في غضبٍ شديد.

كانت السماء صافية، وكان القمر الذي كان عمرُه ثلاثة عشر يومًا في ذروته. كان كوكيتشي يخرج من البوابة، عندما تصادَف أنه نظر إلى أسفل ورأى «الجنرال ميناموتو» يقف منتصبًا بجوار طريقٍ يمتد عَبْر حقول الأرز المجاورة للبوابة، والذي نُصب لدرء المرض.

كان «الجنرال ميناموتو» عبارةً عن عصًا من الخيزران ثُبِّت عليها قطعةٌ كبيرة من الورق مرسومٌ عليها وجهٌ مخيف.

تحت ضوء القمر الباهت، بدا «الجنرال ميناموتو» بوجهه غير المتناسق وكأنه يُحدِّق بغضب في كوكيتشي.

هذا جعل مزاجه أسوأ من ذي قبل، فسارع باقتلاع الجنرال من مكانه، وكان على وشك رميه في حقل الأرز عندما خطرَت فجأةً بباله فكرة جعلَتْه يبتسم ابتسامةً عريضة، وعِوضًا عن رميه في الحقل أعاد نصبه، لكن هذه المرة في منتصف الطريق تمامًا.

تابَع كوكيتشي سيره وهو يُتمتِم بسخط، وعبَرَ تلَّين منخفضَين قبل الوصول إلى منزله؛ إذ وبَّخ بشدةٍ أطفالَه الذين كانوا بانتظار الحصول على هدية منه، ثم انسَلَّ مباشرةً إلى سريره دون النَّبس بأي كلمةٍ أخرى.

في نحو ذلك الوقت تمامًا، كان الحفل قد انتهى في منزل هايمون، وكان الضيوف، بعد أن لفُّوا ما تبقَّى من الوليمة لأخذه إلى عائلاتهم، قد خرجوا إلى بوابة المنزل في جماعاتٍ مُكوَّنة من ثلاثة أو أربعة، وهم يترنَّحون ويتمايلون بعضهم على بعض بينما حُزَم الطعام تتدلى على أجنابهم.

خرج هايمون للشرفة لتوديعهم.

وقال لهم: «حسنًا، خذوا حذرَكم، إذَن. راقبوا الهدايا التي بحوزتكم، ولا تسمحوا لتوكوبي توراكو بسرقتها منكم. ها-ها-ها!»

نظر أحد الضيوف حوله، ثم أجاب بضحكةٍ مجلجِلة:

«توكوبي توراكو ... عجبًا، إذا ظهر، فسوف أُخرِج الشيطان العجوز الذي بداخلي وألتهمُه!»

وما إن قال ذلك حتى ظهر توكوبي توراكو المراوغ واقفًا بفرائه الناصع البياض في منتصف الطريق خارج البوابة وقد أخذ يُحدِّق بهم بغضب.

«النجدة، لقد جاء! تراجعوا، تراجعوا!»

حدثَت ضجةٌ مريعة. وبالكاد أسعفَتْهم قُواهم للعودة إلى غرفة الاستقبال دون محاولة خلع أحذيتهم المُوحِلة. بسرعة، التقط هايمون مِطردًا كان مُعلقًا على الجدار، وأخرجه من غمده، وأخذ يُلوِّح به بقوة حتى كاد أن يتسبَّب في قطع أنف أحد الضيوف.

قفز هايمون من الشرفة، وتقدَّم حافيَ القدمَين باتجاه الوجه الأبيض خلف البوابة. وهذا شجَّع البقية على اتِّباعه، والتجمُّع خلفه، وإطلاق صيحات التشجيع المبحوحة.

ارتعد هايمون من الخوف عندما واجه الثعلب الأبيض بلحمه ودمه، لكن بمراقبة الآخرين له لم يكن أمامه خيارٌ سوى الصُّراخ بصوتٍ عالٍ، والاندفاع للأمام ضاربًا بنصل سلاحه. مما لا شك فيه أنَّ النصل قد لامس شيئًا ما؛ فبعد لحظةٍ سقط جسمٌ أبيض أمامه، وكان يرتجف تحت نصل سلاحه.

قال هايمون بصوتٍ عالٍ: «لقد نلتُ منه! تعالَوا وانظروا!»

تجمَّع الجميع في دائرةٍ حول جسد الثعلب وقالوا بمرح: «إنه في النهاية مجرَّد حيوانٍ ضعيف ومسكين.»

لكن ما حدث بعد ذلك أصاب الجميع بصدمة كبيرة. وقد كانت الصدمة مبرَّرة، وذلك لأنَّ الثعلب العجوز الماكر كان قد فرَّ بعيدًا من أمامهم مُخلفًا وراءه وجهًا ورقيًّا مُثبَّتًا على عصًا.

قالوا بعضهم لبعض: «يا له من ثعلبٍ عجوز ماكر! أوه، كانت مقلتا عينَيه حمراوَين كالنار.»

«وفراؤه أيضًا ... شبيه بالإبر الفضية!»

«وفمُه ممتد للخلف حتى أذنَيه. أرجو ألا يعود وينتقم منا!»

«لا تقلق ... غدًا سنأخذ بعضًا من التوفو المقلي إلى ضفة النهر ونترُكه هناك من أجله.»

كان التعب قد نال منهم تمامًا، فلم يستطيعوا المغادرة؛ لذا فقد قضَوا الليل في منزل هايمون.

تحت ضوء القمر، بدا «الجنرال ميناموتو» الذي كان نصف مقطوع وكأنه كان يصِرُّ بأسنانه.

في وقتٍ ما بعد منتصف الليل، ظهر توكوبي توراكو ثانيةً ومعه مجموعة من الأتباع، وجمع حُزَم القش المليئة بالطعام، التي تركها الضيوف مُلقاةً في الحديقة، ثم رحل. كان الضيوف على يقينٍ أنهم سمعوا صوت الخشخشة الناتج عن ذلك، أو هكذا قالوا لي، منذ فترةٍ وجيزة.

ساق الزنابق

«يُقال إن الإله بوذا، عند الساعة السابعة من صباح يوم غد، سوف يعبُر نهر هيموكيا ويدخل البلدة.» هذا هو الخبر الذي وصل مع النسيم العليل، وانتشر في جميع المنازل في بلدة هاموكيا المُسوَّرة.

تحمَّس الناس الذين يعيشون هناك كثيرًا لدى سماعهم ذلك؛ فقد كانوا ينتظرون بوذا منذ فترةٍ طويلة، وبلهفةٍ شديدة. هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا منهم كان قد ذهب للانضمام إليه، والتتلمُذ على يدَيه.

«يُقال إن الإله بوذا، عند الساعة السابعة من صباح يوم غد، سوف يعبُر نهر هيموكيا ويدخل البلدة.»

تساءلوا كيف سيكون شكل وجه بوذا وما هو لون عينَيه. هل ستكون لديه عينان ذواتا لونٍ أزرقَ داكن مثل بتلات اللوتس، كما أشيع؟ وهل حقًّا ستلمع أظافر أصابعه كالنحاس؟ ماذا سيقول الرجال الذين ذهبوا للانضمام إليه من البلدة، وكيف ستبدو ملابسهم؟ ... بشغَف الأطفال، رتَّب الأهالي منازلهم، وعندما انتهَوا من ذلك خرجوا للشوارع ونظفوها جيدًا. هنا وهناك وفي كل مكانٍ كان يمكن رؤيتهم وهم يحملون المقشَّات خارج منازلهم. لقد أُزيلَت كل الأحجار وروث البقر بعناية، وبعد ذلك رُشَّت الأرض بالماء، ثم نُثر فوقها رمل الكوارتز الأبيض.

«يُقال إن الإله بوذا، عند الساعة السابعة من صباح يوم غد، سوف يعبُر نهر هيموكيا ويدخل البلدة.»

خلال وقتٍ قصير، كانت الأخبار قد وصلَت بالطبع إلى القصر الملكي.

«جلالة الملك، عند الساعة السابعة من صباح يوم غد، يُقال إن الإله بوذا سوف يعبُر نهر هيموكيا ويدخل هذه البلدة.»

سأل الملك متناسيًا نفسه، حتى إنه نهض عن عرشه المرصَّع بالعقيق: «حقًّا؟! هل أنت متأكد من ذلك؟»

«يبدو الأمر كذلك بالفعل يا سيدي. فهناك تاجران من بلدة هامورا يزعُمان أنهما قد سمعاه يَعِظ هذا الصباح على ضفة النهر البعيدة.»

«حقًّا؟ إذَن لا بُد أن الأمر كذلك. أوه، كم من الوقت انتظرناه! أَعطِ الأمر حالًا بتنظيف البلدة.»

«سيدي، جرى تنظيف البلدة بالفعل: لقد كان الأهالي مسرورين بشدة، لدرجة أنهم قد نظفوها بمقشاتهم دون انتظار أوامر جلالتك.»

هَمْهَم الملك كما لو كان غير مقتنع. وقال: «اذهب مع ذلك وتأكَّد من عدم إغفال أي شيء. ثم أصدر أمرًا بأن يُعَد طعامٌ لألف شخص.»

«حسنًا، يا صاحب الجلالة. كان رئيس المطابخ الملكية يَذرَع صعودًا وهبوطًا المطابخ لفترةٍ طويلة وهو ينتظر أمر جلالتك.»

«حسنًا. ...» ثم فكر الملك لبُرهة. وأضاف: «الأمر التالي هو بناء مساكنَ مناسبة. اذهب الآن واطلب من النجارين بناء مكان إقامة يتسع لألف شخص في أيكة البلوط خارج الأسوار.»

«تمام، جلالة الملك. جلالتك مهتمٌّ بأدق التفاصيل. في الحقيقة، النجارون بدءوا بالفعل في مسح الغابة، متوقعين مثل هذا الأمر الملكي.»

تمتم الملك متفاجئًا: «فعلًا؟! حقًّا إنَّ تعاليم بوذا تصل للناس بسرعة الريح. في صباح يوم غد سأذهب شخصيًّا إلى ضفة النهر لاستقباله. انشُر هذا الخبر على الملأ. وعليك أن تَحضُر عند الساعة الخامسة، مع بزوغ الفجر.»

«حسنًا يا جلالة الملك.» غادر رئيس الوزراء ذو اللحية البيضاء القصر الملكي مبتهجًا متورِّد الوجنتَين كطفل.

بزَغ فجر اليوم التالي.

من خلف ستائره، سمع الملك الوقع الخفيف لقدمَي رئيس وزرائه عند دخوله، وعلى الفور نهض جالسًا.

«يا صاحب الجلالة ... إنها الساعة الخامسة تمامًا.»

نخر الملك. وقال: «لم أنَم طَوال الليل، ومع ذلك فإن ذهني صافٍ بشدةٍ هذا الصباح. ماذا عن الطقس؟» ثم انسَلَّ من بين ستائره وانتصب واقفًا.

«الطقس جميلٌ بالفعل يا صاحب الجلالة. يمكن رؤية اللازَوَرد على الجانب الجنوبي من جبل سوميرو بوضوح كوضوح الرؤية من خلال البلورة. سيبدو بوذا، بكل تأكيد، وسيمًا بشدة في مثل هذا اليوم!»

«هذا جيد. هل البلدة نظيفة كما كانت البارحة؟»

«جلالتك، إنها نظيفةٌ كشاطئ البحيرة النقية.»

«هل الطعام جاهز؟»

«كل الاستعدادات كاملة.»

«ومكان الإقامة في أيكة البلوط؟»

«سيكون جاهزًا على أتمِّ وجه قبل انقضاء فترة الصباح. لم يتبقَّ سوى تثبيت النوافذ وتنظيفها.»

انطلَق الملك إلى ضفاف نهر هيموكيا مصطحبًا معه الجميع.

هبَّت الريح محدِثةً حفيفًا، ولمَعَت الأوراق على الشجر.

قال الملك: «هذه الريح يُمكِن أن تُنبئ المرء بحلول شهر سبتمبر.»

«هذا صحيح يا صاحب الجلالة. فالغبار الذي يحمله الهواء هو غبار الخريف؛ لاسعٌ وواضحٌ مثل شذرات البلور.»

«هل أزهرَت الزنابق؟»

«لقد نمَت جميع البراعم. إن الغبار الآن يُبلي العُقد الذهبية النامية عند أطرافها: يبدو من المُرجَّح أن جميع الزهور سوف تتفتَّح معًا هذا الصباح.»

«بلا شك. لديَّ رغبة بأن أقدِّم لبوذا زنبقةً كقربان.» التفَت نحو وزير الخزانة الذي كان وجهه مختبئًا وراء لحيةٍ سوداء. «أيها الوزير، اذهب إلى الغابة، وأحضر لي زنبقةً مزهرة.»

«حسنًا، يا جلالة الملك.»

انطلق الوزير وحدَه إلى الغابة. كانت الغابة كلها صامتةً وزرقاء، فأمعَن النظر في أنحائها قَدْر ما يستطيع، لكن لم يستطِع العثور على زَنبَقة.

تجوَّل الوزير في الغابة حتى وجد منزلًا كبيرًا مختبئًا بين الأشجار. كانت الشمس مشرقةً وبيضاء، وبدا المنزل نصف ساطع كما لو كان في حُلم. تحت شجرة كستناء أمام المنزل كان يقف طفلٌ حافي القدمَين يراقبه، ممسكًا في يده ساقًا تحمل عشر زنابقَ بيضاء، والتي كانت ناصعة البياض كما لو كانت منحوتةً من الصدف.

تقدَّم الوزير للأمام.

وقال: «بِعني هذه الزهور، هلَّا فعَلتَ؟»

قال الطفل وهو يزمُّ شفتَيه أثناء كلامه: «ليس لديَّ مانع.»

سأل الوزير بابتسامة: «كم ثمنُها؟»

قال الطفل بسرعة وبصوتٍ عالٍ: «عشرة بنسات.»

قال الوزير الذي شعَر حقًّا أنها غالية الثمن للغاية: «عشرة بنسات كثيرٌ جدًّا.»

أجاب الطفل بسرعة مرةً أخرى: «خمسة بنسات.»

قال الوزير بابتسامة، معتقدًا حقًّا أنها كانت لا تزال باهظة الثمن: «خمسة بنسات كثيرٌ جدًّا.»

صاحَ الطفل وقد احمرَّ وجهه: «بنس واحد.»

«اتفقنا. بنسٌ واحد. إذَن، أتخيل أن هذا سيفي بالغرض، أليس كذلك؟» خلع الوزير قلادتَه التي من الياقوت القرمزي.

صاح الطفل في سعادة وهو ينظر إلى الأحجار الحمراء: «رائع!» أعطاه الوزير القِلادة، وأخذ منه الزنابق.

سأله الطفل كما لو أنه قد خطر بباله للتو أن يتساءل: «ما الذي تُريد تلك الزهور من أجله؟»

«أريد إعطاءها للإله بوذا.»

«أوه، إذَن لا يمكنني السماح لك بالحصول عليها.» ورمى الطفل بالقِلادة على الأرض.

«لمَ لا؟»

«فكَّرتُ في منحها له بنفسي.»

«هل فعلتَ ذلك حقًّا؟ إذَن سأعيدها إليك.»

«لا، يمكنك الحصول عليها.»

«هل لي أن آخذها؟» وأخذ الوزير الزهور مرةً أخرى. وقال للطفل: «أنت ولدٌ صالح. عندما يصل الإله بوذا، تعالَ معه إلى القصر. أنا وزير الخزانة.»

قال الطفل بابتهاج: «حسنًا، سوف آتي.»

عاد الوزير عَبْر الغابة إلى ضفة النهر.

قال الملك آخذًا الزهور منه، ورافعًا إياها بوقارٍ أمام جبهته: «شكرًا لك. إنها مثالية.»

فجأة، شاهدوا تدفقًا خافتًا من الذهب يرتفع في السماء مثل قوس قُزح فوق هذا الجانب من الغابة الخضراء فيما وراء النهر. سجَد جميعهم. وجثا الملك معهم هناك على الرمل. ...

أنا متأكِّد من أن كل هذا حدث، في مكانٍ ما، منذ مائتَي مليون سنة مضت أو ما يُقارِب ذلك.

مطعم كثير الطلبات

كان هناك رجلان شابان يرتديان ملابس تشبه تمامًا ملابس العسكريين البريطانيين، يحملان بنادقَ لامعةً على أكتافهما، وفي أعقابهما يسير كلبان يشبهان الدِّبَبة البيضاء الكبيرة ويمشيان في الجبال؛ حيث كانت أوراق الشجر الجافة تُخشخِش تحت قدمَيهما. وكانا يتحدثان معًا أثناء سيرهما.

قال أحدهما: «لا بد من القول بأن هذا المكان مُوحشٌ حقًّا. فلا وجود لطير أو حيوان على مد البصر. أنا أتُوق بشدة لمطاردة أي شيء وإطلاق النار عليه: طاخ، طاخ! أي شيءٍ ما دام أنه يتحرك.»

قال الآخر: «نعم، كم سيكون من الممتع أن أصيب غزالًا أو ما شابه في خاصرته البنية الضاربة إلى الصفرة بطلقتَين! عندئذٍ، بإمكاني أن أراه يدور حول نفسه، ثم يسقُط على الأرض محدِثًا صوتًا مكتومًا.»

في الواقع، لقد توغَّل الشابان كثيرًا في الجبال. لقد توغَّلا بشدة، في حقيقة الأمر، حتى إن الصياد الماهر الذي كان يرافقهما كمرشدٍ لهما قد ضَلَّ الطريق واتجه نحو مكانٍ آخر. والأسوأ من ذلك، أن الغابة كانت مخيفةً جدًّا لدرجة أن الكلبَين الشبيهَين بالدِّبَبة قد أصيبا بالدوار، واستمَرَّا بالعُواء لفترةٍ وجيزة، ثم خرج الزَّبَد من فم كلٍّ منهما وفارقا الحياة.

قال أحد الشابَّين وهو يرفع رموش كلبه على نحوٍ عرَضي: «هل تعرف أن الكلب قد كلَّفَني ألفَين وأربعمائة قطعةٍ فضية؟»

قال الآخر وهو يميل برأسه بحزن إلى أحد الجانبَين: «أما كلبي فقد كلَّفَني ألفَين وثمانمائة قطعةٍ فضية».

ظهر على وجه الأول الشحوب.

وقال مُحدقًا في وجه الآخر: «أعتقد أنني سأرجع.»

فقال صديقه: «في الحقيقة، لقد بدأتُ أشعر قليلًا بالبرد والجوع؛ لذلك أعتقد أنني سأنضَم إليك.»

«إذَن دعنا نتوقف عما نقوم به. ما المشكلة في ذلك؟ وفي طريق عودتنا بإمكاننا أن نذهب إلى النُّزُل الذي كانا فيه بالأمس، ونشتري بعض طيور الطرائد لأخذها معنا إلى المنزل.»

«كان لديهم أيضًا أرانبُ برية، أليس كذلك؟ لذا، ليس من المهم كيف حدَث الأمر؛ فالنتيجة واحدةٌ في النهاية. حسنًا، لماذا لا نعود أدراجنا للمنزل إذَن؟»

لكن المشكلة أنه لم يعُد لديهما أدنى فكرة عن طريق العودة.

وفجأة، هبَّت عصفة ريح، فتحرَّك العشب، وأخذَت الأوراق بالحفيف والأشجار بالصرير والأنين.

قال أحدهما: «أنا جائع حقًّا. لديَّ شعورٌ مخيف بالجوع في داخلي منذ فترةٍ طويلة.»

قال الآخر: «وأنا كذلك. ليس لديَّ رغبةٌ في المشي لمسافةٍ أبعد.»

قال الأول: «أتمنى أن نجد شيئًا نأكله!»

كان عُشب البامباس يصدر حفيفًا من حولهما أثناء حديثهما.

عندها فقط، تصادف أن نظر أحدهما حوله، فلم يشاهد سوى مَبنًى جميل من الطوب. كان فوق مدخله لافتةٌ مكتوب عليها بأحرفٍ بارزة:

«مطعم بيت القطط البرية.»

قال أحدهما: «انظر! هذا ممتاز. هذا بالإضافة إلى أن المكان راقٍ. دعنا ندخله.»

قال الآخر: «من المضحك أن نجده في مكان كهذا. لكن أعتقد أن بمقدورنا الحصول على وجبة فيه، على أي حال.»

«بالطبع سنفعل، أيها المُغفَّل. برأيك ماذا تعني اللافتة؟»

«دعنا نجرِّب المكان. فأنا على وشك الانهيار من الجوع.»

دخلا قاعة المدخل، التي كانت فخمةً للغاية؛ إذ كانت مرصوفةً بالكامل بالبلاط الأبيض. كان هناك بابٌ زجاجي مكتوب عليه شيء بأحرفٍ ذهبية.

«من فضلكم ادخلوا. لا داعي للتردُّد ولو للحظة.»

تورَّدا من السعادة.

قال أحدهما: «انظر إلى ذلك! إن الأمور تسير دائمًا على ما يُرام في النهاية. كل شيء كان يسير على نحوٍ خاطئ طوال اليوم، لكن انظر كم نحن محظوظان الآن! إنهم يُخبروننا ألا نقلق بشأن الفاتورة!»

قال الآخر: «أرى أن الأمر كذلك بالفعل. هذا ما تعنيه عبارة «لا داعي للتردُّد ولو للحظة».»

فتحا الباب ودخلا. خلف الباب كان يُوجد رواق. كانت هناك لافتةٌ أخرى مكتوبة بحروفٍ ذهبية خلف الباب الزجاجي تقول:

«الزبائن المتلئون والشباب مرحَّب بهم بنحوٍ خاص.»

شعر كلاهما بسعادةٍ غامرة عند قراءة ذلك.

قال أحدهما: «انظر، حسب ما تقول اللافتة، إننا مرحَّب بنا بنحوٍ خاص.»

قال الآخر: «لأننا نستوفي كلا الشرطَين!»

مشَيَا بخفة وحيويةٍ عبر الرواق حتى وصلا إلى بابٍ آخر كان هذه المرة مدهونًا باللون الأزرق الفاتح.

«يا له من مكانٍ غريب! أتساءل لماذا تُوجد كثير من الأبواب!»

«هذا هو النمط الروسي في البناء، بالطبع. إنه دائمًا كذلك في الأماكن الباردة أو في الجبال.»

كانا على وشْك فتح الباب عندما شاهدا لافتةً أعلاه مكتوبًا عليها بأحرفٍ صفراء:

«نأمل أن تُقدروا أن هذا مطعمٌ كثير الطلبات.»

قال أحدهما: «إنه مزدحم للغاية، أليس كذلك؟ في هذا المكان البعيد على الجبال؟!»

قال الآخر: «نعم بالطبع. عجبًا، حتى في العاصمة، يُوجد عددٌ قليل جدًّا من أفضل المطاعم في الشوارع الرئيسية، أليس كذلك؟»

أثناء حديثهما فتحا الباب. فوجدا لافتةً على الجانب الآخر تقول:

«يُوجد بالفعل كثير من الطلبات، لكن نأمل أن تكونوا صبورين.»

قال أحد الشابَّين وهو يقبض وجهه: «الآن ماذا يعني هذا؟»

«ممم ... أعتقد أنها تعني أنهم مشغولون، وأنهم آسفون أنه سيمضي بعض الوقت قبل إعداد الطعام. أو شيء من هذا القبيل.»

«أعتقد ذلك أيضًا. أرغب في أن أجلس في غرفة في أسرع وقتٍ ممكن، ألا تريد أنت ذلك أيضًا؟»

«نعم، وأنا على استعداد لالتهام الطعام.»

لكن الوضع كان محبطًا للغاية؛ فقد كان هناك بابٌ آخر وقد عُلق على أحد جوانبه مرآةٌ تُوجد بالأسفل منها فرشاةٌ ذات يدٍ طويلة. وكانت تُوجد لافتةٌ على الباب مكتوبٌ عليها بأحرفٍ حمراء:

«على الزبائن تمشيط شعرهم، وتنظيف أحذيتهم من الوحل هنا.»

«صحيح وملائم جدًّا، أيضًا. بينما كنتُ في المدخل منذ قليل، كنتُ أعتقد أن هذا المكان مخصَّص للسكان المحليين فقط.»

«إنهم صارمون للغاية فيما يتعلق بآداب السلوك. أعتقد أنه لا بد أن بعض زبائنهم مهمُّون جدًّا.»

لذلك، مشَّط الشابان شعرهما بعناية، ونظفا حذاءَيهما من الوحل.

لكن ما إن وضَعا فرشاة الشعر على الرف المخصَّص لها حتى أصبحَت معالمُها غير واضحة، ثم اختفت، وعبَرَت جميع أنحاء الغرفة عَصْفة ريحٍ مفاجئة. أمسك الشابان أحدهما بالآخر، وفتحا الباب معًا، ثم دخلا الغرفة التالية. شعَر كلاهما بأنه إن لم يتَناوَلا في غضون وقتٍ قريب طعامًا ساخنًا فقد يحدُث تقريبًا أي شيء.

على الجانب الآخر من الباب كانت تُوجد لافتةٌ أخرى غير متوقعة تقول:

«من فضلكم، اتركوا بنادقكم وخراطيشكم هنا.»

بالفعل، كان هناك حاملُ بنادق أسودُ بالقرب من الباب.

قال أحد الشابَّين: «طبعًا. لن يتناول أحدٌ طعامه وهو يحمل بندقيته.»

قال الآخر: «بدأتُ أعتقد أن كل زبائنهم يجب أن يكونوا مهمِّين جدًّا.»

في الحال، نزَعا بندقيتَهما، وفكَّا حزامَيهما، ووضعوها على الحامل. الآن، كان هناك بابٌ آخر، بابٌ أسود كُتب عليه:

«لطفًا، اخلعوا قبَّعاتِكم، ومعاطفَكم، وأحذيتَكم.»

«ماذا عن ذلك ... هل نخلعها؟»

«أعتقد أنه من الأفضل أن نفعل ذلك. لا بد أنهم مهمُّون للغاية، أولئك الذين يتناولون طعامهم في الغرف الخلفية.»

علَّق كلٌّ منهما قبَّعته ومعطفه على المِشجَب، ثم خلَعا حذاءَيهما، وعَبَرا الباب. على الجانب الآخر من الباب كانت تُوجد لافتةٌ تقول:

«من فضلكم اخلعوا دبابيس رابطات العنق، وأزرار الأكمام، والنظارات، والمَحافظ، وأي شيءٍ آخر يُوجد معدنٌ بداخله، على وجه الخصوص أي شيءٍ مدبَّب.»

بجانب الباب كانت تُوجد خزنةٌ سوداءُ جميلةٌ مفتوحة لوضع الأشياء فيها. حتى إنه كان يُوجد مفتاح لها.

«بالطبع! أتخيل أنهم يستخدمون الكهرباء في مرحلةٍ ما في الطبخ. لذلك فإن الأشياء المعدنية على وجه الخصوص تُشكِّل خطرًا، خاصةً الأشياء المدبَّبة. أعتقد أن هذا ما تعنيه العبارة.»

«أنا أعتقد ذلك أيضًا. أتساءل عما إذا كان ذلك يعني أيضًا أنه علينا دفع الفاتورة هنا عند الخروج؟»

«يبدو الأمر هكذا، أليس كذلك؟»

«بلى، لا بد أنه كذلك.»

خلعا نظارتَيهما وأزرار الأكمام وما إلى ذلك، ووضعاها في الخزنة وأغلقاها.

على مسافةٍ أبعد قليلًا، وصلا إلى بابٍ آخر يُوجد أمامه جرةٌ زجاجية. كُتبَ على الباب:

«رجاءً خذوا مرطِّب البشرة من الجرَّة، وادهنوا به وجوهَكم وأيديَكم وأقدامَكم.»

«لماذا يريدون من الشخص استخدام المرطِّب؟»

«حسنًا، إذا كان الجو باردًا جدًّا في الخارج ودافئًا جدًّا في الداخل، فسوف يتشقق جلد المرء؛ لذلك هذا المرطب لمنع حدوث هذا. لا بد من القول إنه يبدو أنهم يستقبلون هنا أرقى الناس. على هذه الحال، قد نتحدَّث عما قريب مع أناسٍ من الطبقة الأرستقراطية!»

فرَكا وجهَيهما ويدَيهما ببعض المرطِّب من الجرَّة، ثم خلعا جوربَيهما، وفرَكا قدمَيهما أيضًا به. ومع ذلك، بقي هناك قليل منه؛ لذلك أكل كلاهما بعضَه خلسةً، متظاهرين بفَركِ وجهَيهما به.

بعد ذلك، فتحا الباب بسرعةٍ كبيرة، ليجدا فقط لافتةً على الجانب الآخر منه تقول:

«هل وضعتُم المرطِّب في كل مكان؟ حتى على آذانكم أيضًا؟»

كان يُوجد هنا جرةٌ أخرى أصغر من المرطِّب.

«بالطبع ... لم أفرك أذنَيَّ بالمرطِّب. ربما تكونان قد تشقَّقتا. إن مالك هذا المكان هو حقًّا شخصٌ يهتم بكل التفاصيل.»

«نعم، لقد أخذ بعين الاعتبار كلَّ التفاصيل الصغيرة. بالمناسبة، كل ما أريده تناوُلُ شيءٍ ما، لكن لا يبدو أن ذلك مرجَّحٌ جدًّا بوجود كل هذه الأروقة التي لا نهاية لها، أليس كذلك؟»

إن الباب التالي كان أمامهما بالفعل، وكان يحمل رسالةً أخرى:

«ستكون الوجبة جاهزة قريبًا. لن تنتظروا أكثر من خمسَ عشرةَ دقيقة. في هذه الأثناء، اسكبوا بعضًا من هذا العطر فوق رءوسكم.»

وهناك أمام الباب، كانت تُوجد زجاجةٌ ذهبيةٌ لامعة مليئة بالعطر.

لسوء الحظ، عندما سكَبا بعضًا من العطر عليهما، اكتشفا بنحوٍ غريب أنه كان له رائحة الخل.

قال أحد الشابَّين: «هذا الشيء له رائحة الخل بقوة. ما المشكلة فيه بحسَب اعتقادك؟»

«لقد ارتكبوا خطأً ما. لا بد أن الخادمة قد أصيبَت بدَور بردٍ أو ما شابه ذلك، ووضعَت مادةً أخرى في الزجاجة.»

فتَحا الباب، وعبَرا خلاله. وفي الجانب الآخر منه كان مكتوبًا على لافتة بحروفٍ بارزة ما يأتي:

«لا بد أنه قد أصابكم التعب بسبب كل هذه الطلبات، أيها المساكين. هذا آخرُ طلب؛ لذلك رجاءً خذوا بعض الملح من القِدْر، وافركوا به جيدًا جميع أنحاء جسمكم.»

كانت تُوجد بالفعل ملَّاحةٌ جميلةٌ مصنوعة من الخزف الأزرق، لكن في هذه المرة، انزعج الشابان بشدة. أدارا وجهَيهما الملطَّخَين بالمرطِّب ونظر أحدهما إلى الآخر.

قال أحدهما: «لا أحب هذا الأمر.»

قال الآخر: «ولا أنا أيضًا.»

«كثير من الطلبات يعني أنهم يُعطوننا أوامر.»

«نعم ... وأصبحتُ أعتقد أن ذلك المطعم ليس مكانًا لتقديم الطعام، بل مكان لطبخ الناس وتقديمهم كطعام. وذلك يعـ... يعـ... يعني أنـ... أنـ... أننا ...»

بدأ يرتجف، ويرتعش لدرجة أنه لم يستطِع أن يُكمِل كلامه.

«إذَن إنـ... إنـ... إننا ... يا إلهي!» بدأ الشاب الآخر أيضًا يرتجف ويرتعش؛ ولذلك لم يتمكن هو أيضًا من متابعة كلامه.

«دعنا نخرج.» دفع أحدهما وهو ما زال يرتجف من رأسه حتى أخمص قدمَيه الباب الذي يُوجد خلفه. لكن من الغريب أنه لم يتزحزح.

في الجانب الآخر، كان يُوجد بابٌ بفتحتَين كبيرتَين، منحوتٌ عليه سكينٌ وشوكة فضيَّتان. وهناك لافتةٌ عليه تقول:

«لطفٌ منكم أنكم هنا. هذا سيجعل الأمور على ما يُرام حقًّا. الآن نرجو منكم أن تدخُلوا.»

والأسوأ من ذلك، أن عينَين زرقاوَين كانتا تنظُران إليهما خلسةً من خلال ثُقب مفتاح الباب.

صرخ أحدهما وهو يرتعش ويرتجف: «يا إلهي!»

صرخ الآخر وهو يرتجف ويرتعش: «يا إلهي!»

وانفجَر كلاهما في البكاء.

بعد ذلك مباشرةً، سمعا أصواتًا تتحدث بهمسٍ عند الجانب الآخر من الباب.

«انظر ... لقد أدركوا الأمر. لا يبدو أنهم سوف يفركُون أجسادهم بالملح.»

«وماذا تتوقع؟ إن الطريقة التي اتبَعَها الرئيس كانت بالكامل خاطئة — «أيها المساكين» وما شابه ذلك — غبية، هذا هو حال الأمر.»

«مَن يهتم؟ في كلتا الحالتَين، لن نحصل حتى على القَدْر الكافي من العِظام.»

«كم أنت على حق! لكن إذا لم يحضُرا إلى هنا، فنحن من سيقع اللوم عليه.»

«هل ندعوهما؟ نعم، دعنا نفعل ذلك. مرحبًا أيها السيدان! من هذا الطريق، أسرِعا ... من هذا الطريق! لقد غُسلَت الصحون، ومُلحَت الخضراوات بنحوٍ جيد. كل ما تبقى هو أن نضعكما بنحوٍ منسَّق مع الخضراوات الورقية في بعض الأطباق الناصعة البياض. من هذا الطريق الآن، بسرعة.»

بدا الاضطراب الشديد على الشابَّين لدرجة أن وجهَيهما كانا شبيهَين بورق المُهمَلات المُجعَّد. حدَّق كلٌّ منهما في الآخر، وأخذا يرتعشان ويرتجفان ويبكيان بصمت.

كانت هناك ضحكاتٌ مكتومة قادمة من خلف الباب، ثم صاح صوت مرةً أخرى قائلًا: «من هذا الطريق، من هذا الطريق! كلما أجهشتُما بالبكاء هكذا، زول كل المرطِّب الذي دهنتُما فيه وجهَيكما. (نعم، سيدي، إنهما قادمان، سيدي. سوف نُحضِرهما خلال لحظات، سيدي.) هيَّا، أسرِعا!»

«نعم، أسرِعا! فالرئيس قد وضع منديل المائدة الخاص به، وأمسك بسكِّينته في يده وهو يلعَق شفتَيه، بانتظاركما.»

غير أن الشابَّين المُحترمَين أخذا يبكيان ويبكيان.

ثم، فجأة، سمعا نُباحًا وهريرًا قادمًا من ورائهما، وفجأةً اقتحم الغرفةَ الكلبان الشبيهان بالدِّبَبة البيضاء. وفي لَمْح البصر اختفت العينان من خلف ثقب مفتاح الباب. أخذ الكلبان يجريان في أنحاء الغرفة في دوائر، وهما يُزمجران، ثم علا نُباحهما مرةً أخرى، وألقيا بأنفسهما على الباب الآخر. انفتح الباب، وتلاشيا داخل الغرفة كما لو أنهما قد ابتُلعا. من خلف الظلام الدامس أتى صوت مُواءٍ وبصقٍ وهريرٍ عالٍ، ثم صوت خشخشة.

اختفت بعد ذلك الغرفة في سحابة من الدخان، ووجد الشابان أنفسهما يقفان على العُشب وهما يرتعشان ويرتجفان من البرد. جميع أشيائهم من معاطفَ وأحذيةٍ ومحافظَ ودبابيس ورابطات عنق كانت موجودةً بقربهما، مُعلَّقةً على الأغصان أو مرميةً وسط جذور الأشجار. هبَّت عصفةُ ريح، فتحرَّك العشب، وأخذَت الأوراق بالحفيف والأشجار بالصرير والأنين.

رجع الكلبان وهما يلهثان، وكان شخصٌ ما من خلفهما ينادي قائلًا: «أيها السيدان! أيها السيدان!»

قالا بصوتٍ عالٍ وقد استعادا معنوياتهما فجأةً: «مرحبًا! مرحبًا! نحن هنا. من هذا الطريق بسرعة!»

أسرع نحوَهما، مُحدِثًا جلبةً عَبْر العُشب، مرشدهما الصياد المُحترِف، بردائه المصنوع من القَش، فشعَرَا أخيرًا حقًّا بالأمان.

تناوَلا قطع الدامبلينج التي أحضَرَها لهما المرشد، ثم عادا إلى العاصمة، وفي طريقهما اشترَيا بعض طيور الطرائد.

لكن بالرغم من عودتهما إلى العاصمة، ونقع جسدَيهما لمدةٍ طويلة في الماء الساخن، فإن وجهَيهما اللذين تجعَّدا بالكامل كأوراق المهملات ما كانا ليعودا قط إلى حالتهما الطبيعية مرةً أخرى.

رجل التلال

كان رجل التلال، بعينَيه الذهبيتَين الكبيرتَين كصحون الفناجين وجسمه المَحني، يسير عَبْر غابة السرو على جبل نيشاين بحثًا عن الأرانب.

لكن لم يكن أرنبًا ما قد اصطاده، بل طائر درَّاج.

كان الدرَّاج قد طار لتوه لأعلى مذعورًا، عندما أمسك به رجل التلال بيدَيه بسرعة وبقوة، فأصبح ذلك المخلوق المسكين نصف مسحوق.

بوجهٍ متورِّد وفمٍ كبير ملتوٍ في ابتسامةٍ عريضة تدُل على الفرح، خرج رجل التلال من الغابة وهو يلُف الدرَّاج ذا العنق المتدلي على يده.

بعد ذلك، ألقى رجل التلال فريسته على منحدرٍ جنوبي مشمس من العشب الجاف، ثم استلقى مُتكوِّرًا على الأرض وقد أخذ يحُك شعره الأحمر الأشعث.

غرَّد طائرٌ صغير في مكانٍ ما، وتمايلَت أزهار البنفسج الخجولة هنا وهناك في العشب.

تقلَّب رجل التلال ليستلقي على ظهره، ثم أخذ يُحدِّق لأعلى في السماء الزرقاء الصافية. كانت الشمس تبدو ككُمَّثرى برية مرقَّطة باللونَين الأحمر والذهبي، وقد انتشرَت في الأرجاء رائحة العشب الجاف الذكية؛ وعلى سلسلة الجبال الممتدة من خلفه تمامًا، كوَّن الثلج هالةً بيضاءَ لامعة.

«أعتقد أن حَلوى غزل البنات الآن ستكون لذيذة. وبالرغم من أنَّ الشمس العجوز تصنع كثيرًا منها، فإنها لا تُقدِّم لي أيًّا منها أبدًا.»

كان رجل التلال يفكر في شرود في مثل هذه الأفكار عندما مرَّت غيمةٌ بيضاءُ خفيفة غير واضحة المعالم دون هدفٍ عَبْر السماء الزرقاء الصافية تمامًا باتجاه الشرق. أصدر صوتًا عميقًا أجشَّ من حلقه وقال في نفسه ثانيةً: «إذا سألتَني، فسأقول لك إن الغيوم

أشياءُ مضحكة. اعتمادًا على الريح، إنها تأتي وتذهب، تتلاشى — بوف — ثم فجأةً تظهر مرةً أخرى. لهذا السبب يُطلِقون وصف «رأس سحابة» على الرجل الذي يتجوَّل في الأنحاء دون فعل شيء.»

بينما كان يفكر في ذلك، شعَر بخفةٍ شديدة في ساقَيه ورأسه، وانتابه إحساسٌ غريب، كما لو أنه كان يطفو مقلوبًا رأسًا على عقب في الهواء. الشيء التالي الذي أدركه أنه هو من قد أصبح «رأس سحابة». وسواء كانت الريح تحمله معها أم كان يتحرَّك من تلقاء نفسه، فقد كان ينجرف بخفة في الهواء دون أي مكانٍ محدَّد يذهب إليه.

قال لنفسه: «عجبًا، تلك هي التلال السبعة. هناك سبعةٌ منها، جميعها مغطَّاة بالأشجار؛ أحدها مغطًّى بالكامل بأشجار الصنَوبَر، والآخر مغطًّى بأشجارٍ جرداءَ من أعلى وصفراء. ... لكن بهذا المعدل، سرعان ما سأكون في البلدة. وإذا كنت سأذهب هناك، يجب أن أتحوَّل إلى شيءٍ آخر وإلا فسيضربونني حتى الموت.»

عندئذٍ، حوَّل نفسه إلى حطَّاب. وخلال وقتٍ قصير وجد نفسه عند حافة البلدة. كان لا يزال يشعُر بخفة رأسه الشديدة، حتى بدا أن جسده كله قد اختل توازنُه، لكنه مع ذلك استمر في تقدُّمه.

من بين المنازل الأولى التي مرَّ بها متجرٌ لبيع الأسماك، حيث تُوجد منصَّات عليها سلالُ قشٍّ غير منتظمة مليئة بالسلمون المُملَّح وحُزَم من السردين وما شابه، بالإضافة إلى خمسة أخطبوطاتٍ مسلوقة ذات لونٍ أحمر مائل للأسود متدلية من الحافة السفلى البارزة للسقف. استوقفه منظر الأخطبوطات فحدَّق بها. قال في نفسه: «انظر فقط إلى المنحنى على تلك الأرجل الحمراء المتعرجة ... هناك شيءٌ مختلف فيه! إنها حقًّا مثيرة للإعجاب أكثر حتى من ذلك المسئول في مكتب المقاطعة في سروال ركوب الخيل الخاص به. فقط تخيَّل واحدًا من هذه الأخطبوطات وهو يزحف وعيناه مفتوحتان على مصراعَيهما في القاع المظلم للبحر الهائل!»

وقف رجل التلال هناك مُحدقًا في الأخطبوطات، وهو يضع إبهامه في فمه دون وعي منه.

وبينما هو على هذه الحال، دخل رجلٌ صيني يرتدي رداءً قذرًا ذا لونٍ أزرقَ فاتح، ويحمل على ظهره صُرةً كبيرة، وأخذ يُحدِّق فيما حوله بعصبية. قال وهو يَنقرُ على كتف رجل التلال دون سابق إنذار:

«أنت ... هل تُحب القماش الصيني؟ تُوجد حبوب «الآلهة الستة» أيضًا ... إنها رخيصة جدًّا.»

التفَت رجل التلال مذهولًا.

وردَّ بصوتٍ عالٍ: «لا، شكرًا لك!» ثم لاحظ أن ارتفاع صوته قد جعل صاحب محل الأسماك، الذي لديه شعرٌ مفروق من المنتصف بعناية، يأتي منتعلًا قبقابًا خشبيًّا في قدمَيه ويحمل في يده خُطافًا منحني الشكل. ظهر بعضٌ من سكان البلدة أيضًا، وأخذوا يراقبونه، فلوَّح بيدَيه وقال بسرعة بصوتٍ أهدأ:

«أنا آسف ... لم أقصِد ذلك. سآخُذ بعض القماش، نعم سآخذ بعضه.»

قال الرجل الصيني وهو يضع صُرَّته في منتصف الطريق: «لا تشترِ، ليس مهمًّا أن تشتري. فقط ألقِ نظرةً صغيرة.» لم يسَع رجُلَ التلال إلا الشعورُ بالخوف من عينَيه الورديتَين الدامعتَين، اللتين ذكَّرتاه بطريقةٍ ما بالسحلية.

وبينما هو كذلك، كان الرجل الصيني قد فك، بسرعة، العقدة حول صُرَّته، ورفع قطعة القماش التي تُوجد بأعلى محتوياتها، وبعد ذلك رفع الغطاء عن سلة الخيزران بالداخل، ليكشف عن صفوفٍ عديدة من الصناديق الكرتونية الموضوعة فوق القماش. من بينها أمسَك بما بدا وكأنه زجاجةُ دواءٍ حمراءُ صغيرة.

قال رجل التلال في نفسه: «يا إلهي! كم هي طويلةٌ ورفيعةٌ أصابعه! وأظافره مدبَّبة للغاية، الأمر الذي يُخيفُني أكثر.»

الآن أخرَج الرجل الصيني من صُرَّته كأسَين صغيرَتَين لا يزيد حجمُهما عن طرف إصبعك الصغير، وقدَّم إحداهما لرجل التلال.

وقال له: «أنت ... تناوَل الدواء. هذا ليس سمًّا. هذا ليس سمًّا على الإطلاق. أُقسِم لك بذلك! تناوَلْه! أنا سأتناوَلُه أيضًا ... لا داعي للقلق. أنا أشرب الجِعَة، وأشرب الشاي ... ولا أشرب السم. هذا الدواء من أجل عيش حياةٍ طويلة. تناوَلْه!»

ثم ابتلع هو جُرعةً منه.

كان رجل التلال يتساءل فيما إذا كان فعلًا من الصواب أن يشربه عندما وجد، وهو ينظر حوله، أنه لم يعُد موجودًا في البلدة، بل في منتصف منطقةٍ مفتوحة من الريف لها اللون الفيروزي نفسه مثل السماء، وأنه كان يقف مُقابِل الرجل الصيني بعينَيه الحمراوَي الحواف. كان الاثنان بمفردهما وقد وُضعت الصُّرة بينهما، وكان ظِلاهما مُلقيَين على العُشب باللون الأسود.

«هيَّا ... تناوَلْه! إنه جيد من أجل عيش حياةٍ مديدة. اشرب!»

بحماسة، وجَّه الرجل الصيني أحد أصابعه نحوه حاثًّا إياه على تناوُل الدواء. ودون أن يعرف ما يجب فعله، قرَّر رجل التلال أخيرًا أنه من الأفضل تجاوُز الأمر والمغادرة. لذلك شرب الدواء دفعةً واحدة. ثم ما حدث بعد ذلك يمكن القول إنه غريب؛ فقد بدا أن كل الكتل والتجاويف في جسده قد بدأت بالاختفاء، وتقلَّص جسدُه وأصبح أكثر سلاسة، حتى إنه في النهاية عندما فحَص نفسه بعنايةٍ وجد أنه قد أصبح أشبه بصندوقٍ صغير مُلقًى على العشب.

«تبًّا، لقد وقعتُ في الفخ في النهاية! كنتُ أعرف أن هناك شيئًا مريبًا فيه، بأظافره المدبَّبة تلك. لقد نجح في خداعي!»

غاضبًا، حاول المقاوَمة، ولكن قد كان من الواضح أن ذلك دون جدوى؛ فقد أصبح منذ الآن مجرد صندوقٍ صغير من حبوب الآلهة الستة.

لكن كان الرجل الصيني سعيدًا. وقد أخذ يقفز لأعلى وأسفل، رافعًا بخفة كلًّا من ساقَيه بالتناوب، وموجهًا ضرباتٍ قوية إلى باطن قدمَيه بيدَيه. كان صدى الصوت يرنُّ في الريف كما لو أن أحدهم يقرع طبلةً يدوية.

ثم، فجأة، ظهرَت يد الرجل الصيني الضخمة أمام عينَيه، وفي اللحظة التالية سُحب لأعلى حتى وصل إلى صُرة الرجل الصيني ليستقرَّ بين الصناديق الأخرى.

قال لنفسه عندما نزل غطاءُ سلة الخيزران بقوةٍ فوق رأسه: «يا إلهي! لقد أصبحتُ في النهاية داخل السجن.» وعلى الرغم من أن رجل التلال حاول أن يبتهج عند رؤية ضوء الشمس، الذي كان لا يزال يسطع من خلال شبكة السلة، فإنه حتى ذلك سرعان ما اختفى.

قال رجل التلال بهدوءٍ قَدْر استطاعته: «أوه، أوه ... لقد وضع غطاء الصُّرة. يبدو أن الأمور تسير نحو الأسوأ. ستكون هذه رحلةً مظلمة.»

لكن بعد ذلك، ولدَهشتِه، تحدَّث أحدهم بجانبه مباشرةً قائلًا:

«وأين أمسَك بك؟»

في البداية اندهش رجل التلال، لكن بعد ذلك بلحظةٍ قال لنفسه: «لقد فهمتُ ... إن حبوب الآلهة الستة هي جميع البشر الذين تحوَّلوا إلى دواءٍ بنفس الطريقة التي تحوَّلتُ بها. هذا هو تفسير ما يحدُث!» تشجع وأجاب:

«أمام محلٍّ لبيع الأسماك.»

سمعَه الرجل الصيني فصرَخ متوعدًا من الخارج:

«الصوت عالٍ جدًّا ... اسكت!»

لكن رجل التلال كان يشعُر بالغضب الشديد من الرجل الصيني حتى إنه انفجر قائلًا:

«ماذا؟ أسكُت؟ يا لك من لصٍّ ملعون! حالما نذهب لقرية، سوف أقول بصوتٍ عالٍ: «هذا الرجل الصيني شرير!» ما رأيك في هذ؟!»

لزم الرجل الصيني الصمت. واستمر الصمت لفترةٍ طويلة. بدأ رجل التلال في تخيُّله وهو يبكي وذراعاه مطويتان على صدره حسب الطريقة الصينية. وهذا ما جعله يفكر أن جميع الرجال الصينيين الذين كان قد قابلهم قبل ذلك على المسارات فوق التلال أو في الغابات وصُررهم على الأرض، والذين كانوا يَبْدون كما لو أنهم في حالة تفكيرٍ عميق، قد تحدَّث إليهم شخصٌ ما بنفس الطريقة. وهذا جعله يشعر بالأسف من أجلهم لدرجة أنه كان على وشك أن يقول: «لم أقصِد ذلك» عندما سمع الرجل في الخارج يقول بصوتٍ أجشَّ حزين:

«كما ترى، لا أحد يُعيرُني اهتمامه. أنا لا أكسب المال. لا أتناول الأرز. وربما سأموت. لذا لا أحد يهتم بي.»

عندها أشفق رجل التلال عليه للغاية، وشعَر أنه سيفعل أي شيء لمساعدته في كسب القليل من المال، بحيث يستطيع الذهاب إلى مطعمٍ ما وتناوُل وجبةٍ من رءوس سمك السردين وحَساء الخضراوات.

قال له: «كل شيء سيكون على ما يُرام، فلا داعي للبكاء هكذا. عندما نصل إلى قرية سوف أكون حريصًا على عدم صُنع كثير من الضوضاء. لا تقلق.»

بدا أن هذا قد جعل الرجل الصيني يهدأ أخيرًا، وسمع رجل التلال تنهيدةً عميقة تُعبِّر عن الارتياح مع صوت الصفع على القدمَين. إذَن لا بد أن الرجل الصيني قد حمل صُرَّته مرةً أخرى على ظهره؛ لأن عُلب الحبوب الكرتونية كانت تصطدم بعضها ببعضٍ بصخب.

قال رجل التلال: «مرحبًا ... أيٌّ منكم تحدَّث معي الآن؟»

فجاء الردُّ من جواره مباشرةً: «أنا. ولمتابعة ما كنتُ أقوله، إذا كان قد وجدك الرجل الصيني أمام متجر أسماك، كما قلت، فبإمكانك، على الأرجح، أن تُخبرَني كم تكلفة سمكة القاروس ومقدار زعانف سمك القرش التي تحصُل عليها مقابل عشر تيلات، أليس كذلك؟»

«لا أعتقد أنه كان يُوجد أي شيء من هذا القبيل في متجر الأسماك ذلك. رغم أنه كان يُوجد لديهم أخطبوط.» وأضاف بحزن: «إن له سيقانًا سمينة وجميلة.»

«حقًّا؟ لقد كان جيدًا، أليس كذلك؟ أنا أفضِّل الأخطبوط أيضًا.»

«ومن ليس كذلك؟ أيُّ شخص يقول إنه لا يحبه عليه التأكد من سلامة عقله.»

«أوافقُكَ الرأي. لا يُوجد شيءٌ في العالم أفضل من قطعةٍ جميلة من الأخطبوط.»

«بالتأكيد، على أي حال، من أين أنت؟»

«أنا. من شنغهاي.»

«هذا يجعلك إذَن صينيًّا أيضًا. أشعُر بالأسف تجاهكم، أنتم الأشخاص الذين تعملون على تحويل بعضكم بعضًا إلى صناديق حبوب وبيع بعضكم بعضًا.»

«أنت مخطئ. إن الذين تراهم هنا هم من أدنى المستويات، مثل تشين هذا. لكن هناك العديد من الأشخاص الشرفاء اللطفاء بين الصينيين الحقيقيين. كما ترى، نحن جميعًا منحدرون من القديس العظيم كونفوشيوس.»

«حسنًا، لا أريد أن أعرف شيئًا عن ذلك. ... لكنك تقول بأن الرجل الذي بالخارج يُدعى تشين؟»

«هذا صحيح. ... آه، لكن الطقس حارٌّ هنا! يا ليتَه يرفع الغطاء.»

«نعم ... يا سيد تشين! إن الجو خانق هنا بنحوٍ مريع. هل تسمح بدخول قليل من الهواء إلى هنا؟»

قال تشين: «عليك أن تنتظر.»

«إذا لم تسمح بدخول بعض الهواء حالًا، فسوف نختنق جميعًا. وستكون أنت الخاسر!»

عندها، نظر تشين إلى الداخل مضطربًا.

وقال: «سأقع في مشكلةٍ كبيرة. لا تموتوا أرجوكم.»

«لا تموتوا؟! أنت لا تعتقد أننا نريد الاختناق، أليس كذلك؟ هيا ارفع الغطاء، بسرعة.»

«عليكم الانتظار عشرين دقيقةً أخرى.»

«أوه حسنًا، أسرِع في مَشْيك إذَن، تبًّا لك!» والتفَت إلى الصندوق المجاور له. وسأل: «هل أنت الوحيد الآخر هنا؟»

«لا، هناك الكثير. إنهم يَبْكون طوال الوقت.»

«يا للمساكين! إن تشين هذا شخصٌ سيئ. أليست هناك طريقةٌ ما نستعيد من خلالها أشكالنا الأصلية؟»

«حسنًا، في الحقيقة تُوجد طريقة. أنت لم تصبح بعدُ تمامًا حبةً من حبوب الآلهة الستة؛ لذلك عليك فقط تناوُل حبةٍ مغايرة لتعود إلى شكلك الطبيعي. انظر، هناك، بجانبك تمامًا، زجاجة الحبوب السوداء.»

«حسنًا، هذا يَبعث على الارتياح. سوف أتناوَل واحدة، إذَن. لكن ماذا عنك وعن الآخرين ... أليست الحبوب مجديةً لكم أيضًا؟»

«كلا. لكن بمجرد أن تأخذ واحدة وتتعافى، أريدك أن تنقعَنا جميعًا في الماء حتى نصبح أكثر نعومة. بعدها عندما نتناول الحبوب، أنا على يقينٍ من أننا سنعود جميعًا إلى حالتنا الطبيعية أيضًا.»

«حقًّا؟ حسنًا، سوف أقوم بذلك، لا تقلق ... قريبًا سوف أجعلكم جميعًا في حالةٍ جيدة مرةً أخرى، أعِدُكم بذلك. تلك هي الحبوب، أليس كذلك؟ وهذا السائل الذي في الزجاجة هو المادة التي تُحوِّل الأشخاص لحبوب الآلهة الستة، أليس كذلك؟ لكن تشين تناول هذا الدواء السائل معي في الوقت نفسه ... أتساءل لماذا لم يتحوَّل إلى حبة من حبوب الآلهة الستة أيضًا؟»

«ذلك لأنه تناول واحدةً من الحبوب السوداء معه.»

«أوه، لقد فهمت. ماذا كان سيحدث إذَن لو أن تشين تناول هذه الحبة السوداء فقط؟ أشك في أنه لن يظل شخصًا طبيعيًّا، أليس كذلك؟»

عندها سمعوا صوت تشين في الخارج يقول:

«هل تُحب القماش الصيني؟ أنت ... هل تشتري القماش الصيني؟!»

قال رجل التلال بصوتٍ منخفض: «أوه، أوه ... لقد عاد لذلك مرةً أخرى»، وكان بانتظار أن يرى ماذا سيحدث عندما رُفع الغطاء فجأةً ولم يعُد يرى جيدًا من شدة الضوء. فأمعن النظر جاهدًا، ورأى طفلًا بشعرٍ مسترسل على الجبهة يقف هناك أمام تشين وعلى وجهه تعبيرٌ بليد.

كان لدى تشين بالفعل حبة دواء بين أصابعه، وكان ممسكًا بها بالقرب من فمه عندما قدَّم الدواء السائل.

وقال: «الآن، اشرب. هذا دواء لعمرٍ مديد. الآن، اشرب!»

قال أحدهم من داخل سلة الخيزران: «ها هو ذا مرةً أخرى ... القصة القديمة ذاتها.»

«أنا أشرب الجِعَة، وأشرب الشاي، ولا أشرب السُّم. الآن، من الأفضل أن تشرب. أنا سأشربه أيضًا.»

في تلك اللحظة، حصَل رجل التلال على إحدى الحبوب بهدوء. فبدأ ينتفخ وينتفخ ... وفي وقتٍ قصير عاد بالكامل لحالته القديمة مرةً أخرى بشعره الأحمر وجسمه القوي. أما تشين، الذي كان على وشك أن يبتلع الحبة مع الدواء السائل، فبدا مذهولًا بشدة لدرجة أنه سكب الدواء السائل وتناول الحبة فقط.

كان هذا هو ما حدث: بدأ رأس تشين يكبر بنحوٍ واضح وأصبح بضعف حجمه الطبيعي، أما جسمه فازداد طوله أكثر فأكثر. ثم حاول الانقضاض على رجل التلال بصرخةٍ جامحة. تملص منه رجل التلال وركَض بكل ما أوتي من قوة، لكن رغم محاولته الهروب بكل قوة، بدا أن ساقَيه كانتا تُهرولان في المكان نفسه دون أن تتحرَّكا إلى أي مكان، إلى أن أمسكَت به أخيرًا يدٌ من الخلف.

صرخ بصوتٍ عالٍ: «النجدة! آآآه! ...»

كانت الغيوم تسير لامعةً عَبْر السماء، وكان العشب الجاف دافئًا وطيب الرائحة.

لفترةٍ من الوقت رقد رجل التلال خالي البال، مُحدِّقًا بريش طائر الدرَّاج اللامع الذي كان يرقد في المكان حيث رماه، وكان يفكِّر أنه يجب أن ينقع صندوق الكرتون الخاص بحبوب الآلهة الستة في الماء، مما يجعلها أكثر نعومة. لكن بعد ذلك أطلق تثاؤبةً كبيرة وقال:

«هاه! ماذا؟ ... لقد كان مجرَّد حلم! إذَن فليذهب تشين إلى الجحيم. وليأخذ معه حبوب الآلهة الستة الخاصة به!» وتثاءب مرةً أخرى.

رئيس الشرطة

أربعةُ جداولَ جبليةٍ جليدية متفرِّعة من النهر الجليدي على جبل كاراكون انحدرَت تعلوها موجةٌ من الرغوة البيضاء باتجاه بلدة بوهارا. في بلدة بوهارا، اجتمعَت الجداول الأربعة لتشكل نهرًا واحدًا كبيرًا هادئًا. كانت مياه النهر عادةً صافية، وكانت السحب والأشجار تنعكس على سطح البِرَك الراكدة التي تشكَّلَت على طول مجراه. لكن عندما كانت تحدُث الفيضانات كانت المياه الهادرة تغمُر السهول الرسوبية المجاورة للنهر، والتي تبلُغ مساحتها حوالي خمسة وعشرين فدانًا وتنمو فيها أشجار صَفْصاف. ثم بمجرد انحسار المياه، كانت تظهر السهول البيضاء المبهجة مرةً أخرى.

هنا وهناك فوقها كان ينتشر ما بدا وكأنه بِرَكٌ طويلة وضيقة محاطة بالبوص والبوط. كانت هذه علاماتٍ على المكان الذي كان يجري فيه النهر في الماضي؛ كان شكلها يتغيَّر على نحوٍ ما في كل مرة كان هناك فيضان، لكنها لم تختفِ تمامًا. كانت تحتوي على كمياتٍ كبيرة من الأسماك، وخاصةً سمك اللوتش وسمك السلور، وبما أن سكان بوهارا اعتبروا أن هذه الأسماك غير صالحة للأكل، فقد استمرَّت أعدادها في الزيادة بنحوٍ مطرد. وسمك الشبوط وسمك الروش يأتيان، كما قد تتوقع، بعد سمك السلور من حيث العدد، غير أنه كان يُوجد أيضًا سمك الداس.

في إحدى السنوات، ظهرَت شائعة عن وجود سمكة حفش عملاقة، بعد أن فرَّت إلى هناك من البحر. لكن الكبار والأطفال الأكثر توقدًا في الذهن استبعدوا حدوث ذلك بابتسامة. ففي النهاية، كانت قد بدأَت بحلاقٍ يُدعى ريتشيكي، الذي كانت لديه فقط شفرتا حلاقة، وكان سيئًا في مهنته، ولم يكن موثوقًا به بنحوٍ عام. ومع ذلك، كان الأطفال

الأصغر سنًّا يذهبون إلى هناك كل يوم لبعض الوقت على أمل رؤية الوافد الجديد. لكن على الرغم من أنهم يُمعِنون النظر جيدًا، فإنهم لم يُلاحِظوا أي علامةٍ على وجود السمكة العملاقة، سواء بالقرب من السطح أو أسفله؛ لذلك انتهى الأمر بريتشيكي إلى أن أصبح محل سخريةٍ كبيرة.

تنُص المادة الأولى من قانون البلاد على أنه «يُحظر استخدام البارود لقتل الطيور، ويُحظر استخدام أكياس السم من أجل صيد الأسماك»، وأكياس السم تلك هي التي وصفَها الحلاق ريتشيكي نفسه بالطريقة الآتية:

«تُقشِّر بعض لحاء أشجار السانشو في ليلة مظلمة في يوم الحصان في الربيع، ثم تُجفِّفه مرتَين تحت الشمس الحارقة، ثم تطحنه بمدقَّة وهاون. ثم تخلط رطلَين من هذا مع رطل ونصف من رماد خشبٍ ناتج عن حرق خشب القيقب في يومٍ جميل، وتضع الخليط في كيس، ثم تعصرُه في الماء بيدك.»

تبتلع الأسماك السُّم فتطفو على السطح، بطونُها متجهة للأعلى وأفواهُها مفتوحة، وهي طريقةٌ للقتل يُطلق عليها في اللغة المحلية اسم «هيب-كاب»، وهو تعبيرٌ ملائم جدًّا.

على أي حال، كانت إحدى أهم مهام شرطة بوهارا هي منع الناس من استخدام هذه الأكياس السامة.

ذات صيفٍ جاء إلى البلدة رئيسٌ جديد للشرطة.

بشاربه الأحمر السميك، كان يشبه إلى حدٍّ ما القضاعة، وكانت أسنانه مغطَّاة تمامًا بالفضة. وكرئيس للشرطة، كان يرتدي عباءةً حمراءَ طويلة مع جديلةٍ ذهبية رائعة، ويتجوَّل كل يوم لمراقبة الأوضاع بعناية.

إذا رأى بغلًا مطأطئ الرأس، فإنه كان يسأل سائق البغل ليتأكد من أن الحمل ليس ثقيلًا جدًّا، وإذا سمع طفلًا يبكي بصوتٍ عالٍ داخل منزل، فإنه كان يخبر الأم بضرورة اتخاذ الإجراءات المناسبة ضد مرض الجُدري قبل فوات الأوان.

في نحو ذلك الوقت، على الرغم من ذلك، كان هناك أشخاصٌ بدَءوا في تجاهل المادة الأولى من القانون. فتوقفَت بعض البِرَك الكبيرة في سهول النهر عن إنتاج أي أسماك على الإطلاق. في بعض الأحيان كانت هناك أسماكٌ ميتة متعفنة عائمة على السطح. وفي كثير من الأحيان، بعد يوم الحصان في الربيع، كان يُعثر على أشجار السانشو المتوفرة بكثرة

في البلدة وقد جُردَت من لحائها أثناء الليل. لكن بدا أن كلًّا من رئيس الشرطة ورجال الشرطة في شكٍّ فيما إذا كانت مثل هذه الأشياء قد حدثَت بالفعل.

ذات صباح، مع ذلك، كان اثنان من مجموعة من الأطفال يقفون على قطعة أرضٍ عُشبية أمام منزل مُدرِّس الخط يتحدث كلٌّ منهما للآخر:

«لقد تلقَّيتُ توبيخًا مُهذبًا من رئيس الشرطة.»

قال الطفل الآخر الأكبر قليلًا: «لقد وبَّخكَ رئيس الشرطة؟»

«أجل! رميتُ حجرًا. لم أكن أعرف أن أحدًا كان هناك، لكن كان هو وثلاثة أو أربعة رجالٍ آخرين يختبئون عند ضفة البركة، محاولين القبض على الأشخاص الذين يستخدمون السُّم لصيد الأسماك.»

«ماذا قال لك بالضبط؟»

قال: «من هذا الذي يرمي الحجارة؟ ألا تعلم أننا نقضي النهار كله هنا بحثًا عن المجرم الذي يُخالِف المادة الأولى؟ لذلك اذهب بعيدًا ولا تُحدِّث أحدًا بالأمر أيضًا.»

قال الآخر: «حسنًا، إذَن، لن يمُر وقتٌ طويل قبل أن يُقبض على المجرم، أليس كذلك؟»

في الواقع، مرَّ نصف عام دون حدوث أي شيء، وبدأ الأطفال يتحدثون مرةً أخرى:

قال أحدهم: «اسمع. لديَّ دليلٌ قاطع! الليلة الماضية عندما كان القمر يظهر، رأيتُ رئيس الشرطة، مرتديًا عباءةً سوداء وغطاءَ رأس، يتحدث إلى رجلٍ غريب الشكل — أعني ذلك الرجل القصير الغريب الذي يذهب للصيد ببندقية — وكان يقول له: «انظر هنا ... أريده أن يكون طحنُه ناعمًا أكثر قليلًا قبل أن تُحضِره.» حينها قال الصياد شيئًا، واستطرد رئيس الشرطة قائلًا: «ماذا، أتريد تيلَين ثمنًا للحُزمة بالرغم من أنك تخلِط رماد البلوط بها؟ دعك من ذلك!» أراهن أنهما كانا يتحدثان عن مسحوق لحاء شجر السانشو!»

عند ذلك صاح طفلٌ آخر قائلًا: «مهلًا، لقد تذكَّرتُ للتو! رئيس الشرطة ... اشترى كيسَين من الرماد من عندنا. هذا يعني أنهم يخلطونه مع مسحوق اللحاء، أليس كذلك؟»

صاحوا وهم يصفِّقون بأيديهم ويلوِّحون بقبضاتهم المضمومة: «نعم! هذا كل ما في الأمر! هو كذلك بالتأكيد!»

ريتشيكي الحلَّاق، الذي لم يكن لديه كثير من الزبائن ولديه كثير من وقت الفراغ، سمع عن ذلك لاحقًا، وبدأ على الفور الحساب:

الميزانية العمومية لصيد الأسماك بأكياس السم

(١) المصروفات:	
كيس من اللحاء	٢ تيل
كيس من الرماد	٣٠ ميسًا
الإجمالي	تيلان، و٣٠ ميسًا
(٢) الدخل:	
ثلاث عشرة سمكة أنكليس	١٣ تيلًا
أسماك أخرى مقدَّرة بـ	١٠ تيلات
الإجمالي	٢٣ تيلًا
(٣) ربح رئيس الشرطة	٢٠ تيلًا، و٧٠ ميسًا

انتشرَت الشائعات بشدة لدرجة أن الأطفال الصغار، عندما كانوا يرَوْن شرطيًّا، كانوا يسارعون بالهروب، ثم التوقف والانحناء إلى الأمام، والصياح من مسافةٍ بعيدة: «شرطي أكياس السم ... دعنا على الأقل نحصُل على سمك السلور!»

في الواقع، أصبحَت الأمور خطيرةً للغاية، لدرجة أن عمدة بوهارا أخذ على مضَض ستةً من طاقمه، وذهب لمقابلة رئيس الشرطة.

بينما جلس الاثنان جنبًا إلى جنب على الأريكة في غرفة الزوار، كانت عينا رئيس الشرطة الذهبيتان تبدوان شاردتَين.

قال العمدة: «يا رئيس الشرطة، أتساءل عما إذا كنتَ على علم بالحديث الذي يدور حول أن شخصًا ما لا ينفك يُخالِف المادة الأولى من القانون؟ ما رأيك بذلك؟»

«عجبًا ... هل هذا صحيح حقًّا، إذن؟»

«أخشى أن يبدو الأمر كذلك. إن شجرة السانشو في منزلي قد جُردَت من لحائها، ويقولون، كما تعلم، إن الأسماك الميتة كثيرًا ما يُعثر عليها عائمةً على سطح الماء.»

عندها ابتسم رئيس الشرطة ابتسامةً غريبة. أو ربما كان ذلك مجرد توهُّم من جانب العمدة.

«أوه، هل هذا ما يقوله الناس؟»

«إنهم بالتأكيد يفعلون ذلك. أخشى أن ... الأطفال يقولون إنك المسئول. إنه أمرٌ محرج جدًّا، أليس كذلك؟»

قفَز رئيس الشرطة من كُرسيه.

«إنه أمرٌ مريع! أحد الأسباب أنه يطعن في سمعتي. سأعتقل الجاني على الفور.»

«هل لديك أي أدلة؟»

«دعني أفكِّر. أجل، بالطبع ... في الواقع، لديَّ دليلٌ قاطع.»

«أنت تعرف، إذَن ...؟»

«دون أدنى شك. إن رجل أكياس السم هو أنا!»

وأدار رئيس الشرطة وجهه نحو العمدة وكأنه يقول: انظر إليَّ جيدًا. أصيب العمدة بالذهول.

«أنت؟ إذَن كنتَ أنت، في النهاية؟»

«هذا صحيح.»

«أنت متأكد تمامًا، إذَن؟»

«قطعًا.»

وقارعًا بهدوءٍ الجرَس الذي على الطاولة، استدعى رئيس الشرطة أحد كبار المحققين الذي كان بلحيةٍ حمراءَ كثة.

وهكذا قُبض على رئيس الشرطة، وحُوكم، وحُكم عليه بالإعدام.

في اللحظة التي كان السيف المقوَّس الكبير على وشك أن يقطع رأسه، ابتسم رئيس الشرطة وقال:

«حسنًا، لقد كان أمرًا ممتعًا! أنا شخصيًّا لم أستمتع بشيء أكثر من صيد الأسماك بأكياس السم طوال اليوم. والآن أعتقد أنني، على الأرجح، سأحاول فعل ذلك في الجحيم.»

لقد صُدم الجميع بشدةٍ من ردِّه.

العنكبوت والبزَّاق والراكون

عنكبوتٌ أحمر بأذرعٍ طويلة وبزَّاقٌ فضي اللون وراكون لم يغسل وجهه قط، بدأ ثَلاثتُهم الدراسة معًا في مدرسة الغرير. كانت هناك ثلاثة أشياء علَّمها لهم السيد الغرير.

أولًا: حكى لهم قصة السباق بين السُّلَحْفاة والأرنب. ثانيًا: أوضَح لهم، كما تشير تلك القصة، أن بإمكان أي شخصٍ أن يتفوَّق على الآخرين ويُصبِح أكبرَ وأكثرَ أهميةً منهم. ثالثًا: قال لهم إن الشخص الأكبر حجمًا هو الذي ينال الاحترام الأكبر.

منذ ذلك الحين، عمل الثلاثة بكل قوَّتهم، وأخذوا يتنافسون فيما بينهم للحصول على المركز الأول في الصف.

في عامهم الأول، عُوقب كلٌّ من البزَّاق والراكون لتأخُّرهما الدائم؛ لذلك صَعِد العنكبوت إلى المقدمة. بينما كان البزَّاق والراكون يَذرِفان الدموع من الغيظ.

في عامهم الثاني، أخطأ السيد الغرير في حساب علاماتهم؛ لذلك جاء البزاق في المركز الأول. أما العنكبوت والراكون فقد أخذا يَجزَّان على أسنانهما من شدة الغيظ.

وفي اختبار السنة الثالثة، كان الضوء شديدًا جدًّا في قاعة الاختبار؛ فدمعَت عينا السيد الغرير مما جعله يُغلقهما باستمرار. أثناء ذلك فتح الراكون الكتاب المدرسي ونقل الأجوبة منه، فجاء في المرتبة الأولى.

وهكذا فإن العنكبوت الأحمر ذا الأذرع الطويلة والبزَّاق الفضي والراكون الذي لم يغسل وجهه قط تخرَّجوا جميعًا من مدرسة السيد الغرير في نفس الوقت.

قام الثلاثة، والذين بدَوا ظاهريًّا أنهم أصدقاءُ حميميون، بكل ما في وُسْعهم للاحتفال بهذه المناسبة. فقد أقاموا حفلةً للسيد الغرير تعبيرًا عن شكرهم له على كل ما قد فعله لهم، وأتبَعوا ذلك بحفلة وداعٍ خاصة بهم، لكن في أعماق قلوبهم، كان كلٌّ منهم مشغولًا

بالتفكير في الاثنَين الآخرَين، ويقول في نفسه: «ها! ما الذي لديهما ليفخرا به؟ انتظِرا فقط لتُشاهِدا من سيصبح الأكبر والأكثر أهمية!»

بمجرد انتهاء الحفلتَين، عادوا جميعًا إلى منازلهم لتطبيق ما تعلَّموه. وكان السيد الغرير مشغولًا مرةً أخرى بالفعل؛ إذ كان يُلاحِق أحد جرذان المجاري من أجل إلحاقه بالمدرسة.

لقد كان الوقت الذي تتفتَّح فيه أزهار البنفسج النابي. وكان عددٌ لا يُحصى من النحل ذي العيون الزرقاء يطير وهو يطنُّ في الأنحاء بابتهاجٍ تحت أشعة الشمس، ويُلقي بتحيَّاته على كل زهرةٍ وردية صغيرة قبل أن يمتصَّ رحيقها، ثم يحمل كُرات حبوب اللقاح الذهبية إلى زهورٍ أخرى، أو يجمع الشمع الذي لم تعُد براعم الأشجار الغضَّة بحاجة إليه لاستخدامه في بناء منازلهم ذات الجوانب الستة. لقد كان يومًا سعيدًا مليئًا بالنشاط والحيوية في بداية الربيع.

ما حَلَّ بالعنكبوت

في المساء الذي تلا الحفلتَين، رجع العنكبوت إلى شجرة البلوط التي كان يعيش فيها عند طرَف الغابة.

لسوء الحظ، كان قد استنفَد كل أمواله في مدرسة الغرير ولم يَبقَ شيءٌ واحد يمتلكه. لذلك تَحمَّل جوعه، وبدأ في غزل شبكةٍ تحت ضوء القمر الخافت.

كان جائعًا للغاية لدرجة أنه لم يبقَ في جسده سوى القليل من الخيوط. لكنه كان يُتمتِم في نفسه: «سيران! سيران!» واستمَر في الغزل بأقصى طاقته، إلى أن أنشأ في النهاية شبكةً بحجم عُملةٍ نُحاسية صغيرة. ثم اختبأ خلف غصن، وأخذ يراقب الشبكة بعيونٍ لامعة طوال الليل.

قرابة الفجر، جاء أحد ذُباب الخيل الصغير يطير في الأنحاء، ويطنُّ لنفسه، ووقع في الشبكة. لكنه سرعان ما تخلَّص منها؛ ذلك لأن العنكبوت كان جائعًا جدًّا عند نسجها، فلم تكن الخيوط لزجةً كما ينبغي.

بالقرب منه اندفَع العنكبوت من خلف الغصن، وغرَز أسنانه فيه.

قال صغير الذُّباب وهو يبكي: «لا تفعل، أتَوسَّل إليك!» لكن ودون أي كلمة التهَمه العنكبوت؛ التهم رأسَه وجناحَيه وقدمَيه وكل شيء فيه. تنفَّس العنكبوت الصُّعَداء، واستلقى

لفترة من الوقت ينظر إلى السماء ويفرُكُ بطنه، ثم بدأ ينسج مزيدًا من الخيوط. فزاد حجم الشبكة إلى الضعف.

رجَع العنكبوت إلى خلف الغُصن، وكانت عيونه الستة تلمع وهو جالس بلا حَراكٍ يراقب الشبكة.

سأل ذكَر ذُباب مايو أعمى بينما كان يتقدَّم متكئًا على عصاه: «ما هذا المكان؟»

قال العنكبوت وعيونه الستة تطرف كلٌّ على حدة: «هذا نُزلٌ يا سيدي.»

جلس ذكَر ذُباب مايو على الشبكة وهو يبدو عليه التعب. خرج العنكبوت من مخبئه.

وقال: «إليك بعض الشاي»، لكن ودون سابق إنذار غرَز أسنانه في جسم ذكَر ذباب مايو.

رفع ذكَر ذُباب مايو اليد التي كان سيُمسِك بها كوب الشاي، وراح يُصارِع بلا جدوى، وهو يقول في الوقت نفسه بصوتٍ يلتمس الشفقة:

آه، أشفِق على ابنتي، حالما
الأخبار المُروِّعة ...

قال العنكبوت: «أنتَ، ذلك يكفي! وتوقَّف عن المقاومة!» وعندها ضَم ذكَر ذُباب مايو باطن كفَّيه معًا وقال مُتوسلًا:

«أشفِق لحالي، سيدي الطيب. دعني أُلقي قصيدتي الأخيرةَ على الأقل!»

قال العنكبوت وهو يشعُر بقليل من الأسف من أجله: «حسنًا، لكن أسرِع!» ثم جلس ينتظر مُحكِمًا قبضتَه على ساقَي ذكَر ذباب مايو.

وهكذا، بدأ ذكَر ذُباب مايو يتلو قصيدته بصوتٍ خافت يدعو بحقٍّ للشفقة، راجعًا مرةً أخرى لبدايتها:

آه، أشفِق على ابنتي حالما
الأخبار المُروِّعة،
عن رحيل والدها البعيد جدًّا عن المنزل،
تصل إلى أذنها الحزينة!
على نحوٍ مثير للشفقة جدًّا، ستحمل
في يدها الصغيرة عصا الحاج،
وفي رحلةِ حجٍّ مُرهِقة

ستنطلق عَبْر الأرض.
ستتجوَّل من باب لباب،
وسط الرياح والمطر.
تتوسل: «أوه، أعطوني صدقةً
كي أصَلي من أجل أن ترقُد روحُه في سلام.»
ابنتي العزيزة، احذَري وتجنَّبي
مخبأ العنكبوت القاسي.
خذي وصيتي الأخيرة هذه بعين الاعتبار،
واحذَري الأنزال الشبكية!

صاح العنكبوت: «كيف تجرؤ على ذلك؟ ... هذا يكفي!» ثم ابتلَعه دفعةً واحدة. استلقى لفترة من الوقت وهو ينظر إلى السماء ويفرُكُ بطنه، ثم طرَف بعيونه وبدأ يُغَني بمرح: «فات الأوان لتعلُّم الاحترام»، وبعد ذلك عاد لغزل الخيوط مرةً أخرى.

ازداد حجم الشبكة ثلاثة أضعاف، فأصبحَت تشبه مظلةً كبيرة. بذهنٍ صافٍ، اختبأ العنكبوت ثانيةً بين أوراق الشجرة. بعد ذلك مباشرة، سمع أحدَهم بالأسف يُغَني بصوتٍ حسن:

أوه، العنكبوت الأحمر الطويل الأرجل
يزحف عاليًا في السماء!
وهو يُخرِج
خيطه الفضي من النور الناعم واللامع،
في شبكةٍ لامعةٍ منسوجة عاليًا.

نظر العنكبوت لأسفل، فوجد أنثى عنكبوتٍ جميلة.
قال لها، تاركًا خيطًا طويلًا جدًّا يتدلى من أجلها: «اصعَدي إلى هنا.»

أمسكَت أنثى العنكبوت بالخيط في الحال وبدأَت بالصعود. وسرعان ما أصبحا زوجًا وزوجة. كان يُوجد جميع أنواع الطعام في الشبكة كل يوم، وأكلَت زوجة العنكبوت كثيرًا منه، وحوَّلَته إلى أطفال. لذلك وُلد كثير من العناكب الصغيرة. لكنهم كانوا جميعًا صغار الحجم للغاية لدرجة يصعُب معها رؤيتهم.

كانت الحياة مُفعَمةً بالحيوية بوجود الأطفال وهم ينزلقون، ويتصارعون ويتأرجحون على الشبكة. والأفضل من ذلك كله، أنه في أحد الأيام ظهر اليَعْسوب ليُخبرَهم بأن الحشرات قد قرَّرَت جعل العنكبوت نائبًا لرئيس جمعية الحشرات والديدان.

بعد ذلك بفترةٍ وجيزة، وبينما كان العنكبوت وزوجته يختبآن يشربان الشاي بين أوراق الشجرة، سمعا أحدهم يُغَني بصوتٍ مُتغطرِس:

أوه، العنكبوت الأحمر الطويل الأرجل
أنجب من الأبناء مائتَين،
لكن حتى أكبرهم
كان صغير الحجم لدرجة لا يمكن تخيُّلها
مثل حبة الرمل، لا أكثر.

نظرا فشاهَدا البزَّاق الفضي، الذي كان حجمُه قد تضاعف بنحوٍ كبير منذ أن رآه آخرَ مرَّة.

أُصِيبَت زوجة العنكبوت الطيبة بضيقٍ شديد لدرجة أنها أخذَت تبكي وتبكي، ولم تُفلِح المحاولات في تهدئتها.

لكن العنكبوت الطويل الأرجل نخر وقال:

«إنه يغار مني، هذا كل ما في الأمر. أنت! أيها البزَّاق ... لقد عُيِّنت نائبًا لرئيس جمعية الحشرات والديدان! ما رأيك بذلك، هه؟ لا يمكنني أن أتخيل أمثالك يصبحون ذلك مهما بلغ حجمهم. ها-ها، ها-ها!»

غضب البزاق الفضي غضبًا شديدًا لدرجة أنه أُصِيب بالحُمى لعدة أيام، ولم يستطِع أن يقول شيئًا سوى: «أوه، يا له من عنكبوتٍ بغيض! يا لها من إهانة! هذا العنكبوت البغيض!»

من وقتٍ لآخر كانت الشبكة تتدمَّر بفعل الريح، أو تتضرَّر بسبب فعلٍ أخرق من قِبل خنفساء أيل، لكن العنكبوت كان سرعان ما ينسج خيطًا جديدًا طويلًا وناعمًا ويُصلِح الشبكة مجددًا.

من بين أطفالهما المائتَين، مائةٌ وثمانية وتسعون طفلًا سُرقوا من قِبل النمل، أو اختفَوا دون تركِ أي أثَر، أو ماتوا بمرض الزُّحار. لكن الأطفال كانوا جميعهم متشابهين إلى حدٍّ بعيد لدرجة أن والدَيهم سرعان ما نسياهم.

أصبحَت الشبكة الآن شيئًا عظيمًا. وقد وقع في خيوطها سيلٌ منتظم من الحشرات.

في أحد الأيام كان العنكبوت وزوجته متواريَين عن الأنظار يشربان الشاي بين أوراق الشجرة، عندما جاءت بعوضةٌ متجولة، وألقت نظرةً سريعة على الشبكة، وانحرفَت بعيدًا. وضَع العنكبوت ثلاثةً من أرجله داخل الشبكة، وراقبَها بازدراءٍ وهي تمضي.

بعد ذلك مباشرةً، وصلَ لمسامع العنكبوت وزوجته صوتُ ضحكةٍ مجلجلة قادمة من أسفل، وبدأ صوتٌ رائع يُغَني:

أوه، أيها العنكبوت الطويل الأرجل
العنكبوت الأحمر الطويل الأرجل ...
شبكتُك سيئة للغاية،
البعوض المتجوِّل بالقرب منها
طنَّ فقط ورحل.

لقد كان هذا هو الراكون الذي لم يغسل وجهه قط.

قال العنكبوت وهو يكزُّ على أسنانه بغضب: «انتظِر أيها الراكونُ الأحمق! بعد فترةٍ وجيزة سأصبح رئيسًا لجمعية الحشرات والديدان، وبعدها سأجعلك تنحني لي ... انتظِر فقط وسترى!»

منذ ذلك الحين، بدأ العنكبوت بالعمل بجِد. ونسَج عشر شبكاتٍ كاملة في أماكنَ مختلفة، وداوم على مراقبتها حتى في الليل.

لكن من المُحزِن القول بأن الضعف قد بدأ في الظهور. لقد تَراكَم كثير من الطعام لدرجة أن فسادَه كان لا مفَر منه. وقد وصل الضعف إلى العنكبوت وزوجته وطفلَيهما. بدأ الأربعة جميعهم بالشعور بالضعف والهشاشة، بدءًا من أطراف أرجلهم، حتى جرَفَهم المطر في النهاية بعيدًا.

حدَث هذا في نحو الوقت الذي كان فيه البرسيم في حالة إزهار، وكان النحل قد انتشر بعيونه الزرقاء في الريف؛ حيث كان يجمع العسل من كل زهرةٍ صغيرة كما لو كان يأخذ ضوءًا من مصباحٍ يدوي صغير.

ما حلَّ بالبزَّاق الفضي

في نحو الوقت الذي كان العنكبوت ينسجُ فيه شبكتَه الأولى التي بحجم عُملةٍ نُحاسية في شجرة البلوط على طرَف الغابة، صَعِد حلزون إلى المقر الجميل للبزَّاق الفضي.

في ذلك الحين، كان البزَّاق الفضي يتمتع بسمعةٍ طيبة في الغابة. كان الجميع يرى أنه مُتَعلم، ولطيف ومُراعٍ للآخرين.

قال الحلزون: «أيها البزَّاق، إنني أمُر في الوقت الحاضر بظروفٍ صعبة. ليس لديَّ أيُّ طعام لأتناولَه، ولا ماء؛ لذا هل تسمح لي بتناول قليل من عصير نباتات الأرام الذي تُخزِّنه؟»

قال البزَّاق: «عجبًا، بالطبع. تعالَ إلى الداخل، هلَّا فعلتَ؟»

قال الحلزون وهو يشرب عصير نباتات الأرام: «هذا لطفٌ كبيرٌ منك. إنك كما يُقال صديق عند الضيق.»

قال البزَّاق: «تناوَل المزيد. أقصِد، نحن شبه أخوَين، أليس كذلك؟ ... ها-ها-ها. هيا، تناوَل مزيدًا منه.»

«حسنًا، إذَن، ربما قليلًا فقط. شكرًا لك، شكرًا لك.» وشرب الحلزون كما قال.

قال البزَّاق: «أيها الحلزون، هل نتصارع قليلًا عندما تشعُر بالقدرة على ذلك؟ لم نتصارع منذ وقتٍ طويل — ها-ها-ها — لم نفعل هذا منذ وقتٍ طويل.»

قال الحلزون: «إنني أتضوَّر جوعًا لدرجة أنه ليست لديَّ القوة لذلك.»

قال البزَّاق وهو يُخرِج بعض البراعم الشوكية وما شابه: «إذَن سأعطيك شيئًا لتأكُله. هيا، تفضَّل.»

«حسنًا، ما دُمتَ مصممًا. ...» والتهمَها الحلزون كلها.

قال البزَّاق وهو ينهض أثناء كلامه: «الآن دعنا نتصارع، ها-ها-ها.»

قال الحلزون وهو يقف على قدمَيه على مضَض: «أشعُر بالوهن إلى حدٍّ كبير؛ لذا من فضلك لا ترمِني بقوةٍ شديدة.»

«هيا! لتسقُط!» سقط الحلزون على الأرض بقوة. «دعنا نكرِّر ذلك، ألن نفعل؟ ها-ها-ها!»

قال الحلزون: «لا، أنا حقًّا مُتعَب.»

«أوه، دعكَ من هذا. هيا مرةً ثانية، ها-ها-ها!» مرةً أخرى سقط الحلزون على الأرض. «ومرةً أخرى، ها-ها-ها.»

«لا، لقد اكتفيت.»

«هيا، مرةً أخرى فقط. لتسقط. ها-ها-ها. ...» وسقط الحلزون على الأرض مرة أخرى.

«لا، أنا ...»

«أوه، هيا! لتسقط! ها-ها-ها-ها.» وسقط الحلزون. «مرةً أخيرة؟»

«إنني أموت. وداعًا.»

«قف على قدمَيك، الآن! هيا، دعني أساعدك في الوقوف ... الوقوف، وها أنت تسقط، ها-ها-ها. ...»

ومات الحلزون. فأكله البزَّاق الفضي بالكامل بشهية؛ الأجزاء الخارجية الصلبة وغيرها.

بعد حوالي شهر من ذلك، جاء ذكَر سحلية وهو يعرُج إلى المنزل الجميل للبزَّاق.

وقال: «أيها البزَّاق، أتساءل هل بإمكاني الحصول على قليل من الدواء؟»

سأل البزَّاق مبتسمًا: «ما المشكلة؟»

قال ذكَر السحلية: «لقد لدغَني ثعبان.»

قال البزَّاق مبتسمًا: «أوه، هذا سهل. سألعق مكان العضَّة من أجلك. إذا لعقتُها فسيزول سُم الثعبان على الفور. يجب أن يحدُث ذلك؛ نظرًا لأن بإمكاني إذابة الثعبان نفسه، ها-ها-ها!»

قال ذكَر السحلية وهو يمُد ساقه: «حسنًا، إذا لم يكن لديك مانع.»

«عجبًا، طبعًا، طبعًا. نحن أخَوان على نحوٍ ما، أليس كذلك؟ وكذلك أنت والثعبان، هه؟ ها-ها-ها!» ووضع البزَّاق فمه على جُرح ذكَر السحلية.

قال ذكَر السحلية بعد برهة: «شكرًا لك.»

تمتم البزاق وهو يتابع اللعق: «انتظر، لم ننتهِ بعدُ. لا أريد منك أن تطلب المساعدة مرةً أخرى فيما بعدُ، ها-ها-ها.»

قال ذكَر السحلية بانزعاج: «أيها البزَّاق ... أعتقد أن ساقي قد بدأت تذوب!»

أجاب البزَّاق بغموض كما كان من قبلُ: «ها-ها-ها، لا يُوجد هناك ما يدعو للقلق.»

قال ذكَر السحلية بقلق: «أيها البزَّاق ... أشعُر بنوع من السخونة في المنتصف.»

تمتَم البزاق: «ها-ها-ها، يجب ألَّا تدَعَ ذلك يُزعِجك.»

قال ذَكر السحلية وهو يبكي: «أيها البزَّاق ... أعتقد أن نصف جسدي قد ذاب. توقَّف عن ذلك الآن، أرجوك!»

قال البزَّاق: «ها-ها-ها، كل شيء على ما يُرام ... بأمانة إنه كذلك.»

عندما سمع ذلك، توقف ذكَر السحلية عن القلق أخيرًا. توقف عن القلق لأنه في تلك اللحظة تمامًا قد ذاب قلبه.

وهنا، التهَم البزَّاق بصوتٍ عالٍ ذكَر السحلية بأكمله. وأصبح ضخمًا بنحوٍ يبعث على السخرية. وكان يشعُر بسعادةٍ بالغة بداخله بحيث لم يستطِع مقاومة رغبته في مضايقة العنكبوت.

لكن في المقابل كان العنكبوت قد سَخِر منه؛ لذلك رجَع لمنزله ولَزِم سريره يشكو من الحمى، وكان كل يوم يُردِّد: «انتظِر فقط. سأصبح ضخمًا بقَدْر استطاعتي. ومن شبه المؤكد حينها أنني سأصبح عضوًا فخريًّا في جمعية الحشرات والديدان. وإذا قال العنكبوت أي شيء، فلن أرُد عليه، بل سأكتفي بالنظر إليك باحتقارٍ كبير.»

لكن المشكلة أن سُمعة البزاق لسبب أو لآخر قد بدأت بالتدهور في ذلك الوقت.

كان الراكون على وجه الخصوص يستخف دائمًا بالبزَّاق عند أي ذِكرٍ له، قائلًا وهو يبتسم: «لا أستطيع القول بأنني مُعجَب بطريقة البزَّاق في فعل الأشياء. عجبًا، إن بإمكان أي شخصٍ أن يصبح ضخمًا بالطريقة التي يسلُكها!»

عندما سمع البزَّاق ذلك استشاط غضبًا أكثر، وحاول بكل جنونٍ أن يُنتخب عضوًا فخريًّا في الجمعية في أقرب وقتٍ ممكن.

بعد فترةٍ قصيرة، تعفَّن العنكبوت وذاب ثم جرفَته مياه الأمطار بعيدًا؛ مما خفَّف قليلًا من غضب البزَّاق. وانتظر بفارغ الصبر قدوم زائرٍ آخر.

ثم جاء في أحد الأيام ضفدع.

قال: «طاب يومُك أيها البزَّاق. هل تسمح لي ببعض الماء؟»

قال البزَّاق بصوتٍ لطيف على نحوٍ مصطنع: «من الجميل أن أراكَ أيها الضفدع»؛ لأنه كان يتوق إلى التهامه. «ماء؟ خذ منه ما تشاء. فقد حلَّ الجفاف منذ عهدٍ قريب ... لكن أنت وأنا شبه أخوَين، أليس كذلك؟ ها-ها-ها!» ثم أخذ الضفدع إلى إناء الماء.

شرب الضفدع حتى ارتوى، ثم نظر إلى البزَّاق لبُرهة بتعبيرٍ بريء، وقال له: «ما رأيك بقليلٍ من المصارعة، أيها البزَّاق؟»

فرِح البزَّاق. فقد قدَّم الضفدع الاقتراح الذي كان على وشك أن يُقدِّمه هو بنفسه. إن مخلوقًا ضعيفًا مثل هذا من المحتمل أن يكون جاهزًا للابتلاع بعد خمس رميات أو نحو ذلك.

قال البزَّاق: «نعم، دعنا نتصارع. هيا! لتسقُط، ها-ها-ها!» سقط الضفدع على الأرض. «دعنا نُحاوِل مرةً أخرى. لتسقُط، ها-ها-ها!» ومرةً أخرى أُلقيَ الضفدعُ على الأرض.

هنا، أخرج الضفدع بسرعة كيسَ مِلحٍ من جيبه.

وقال وهو يرُش حَفْنة من المِلح في المكان: «يُطهِّر مصارعو السومو دائمًا الحلبة بالملح.»

قال البزَّاق: «هيا، أنا متأكدٌ أنك ستهزمني في المرة القادمة. فأنت قويٌّ جدًّا. هيا! دعنا نتصارع، ها-ها-ها!» ومرةً أخرى ارتطَم الضفدع بالأرض.

رقد هناك مُمدَّدَ الذراعَين والساقَين، وبطنُه الباهت اللون كان يتجه لأعلى، فبدا وكأنه قد فارق الحياة. لكن عندما أراد البزَّاق الفضي التوجُّه نحوه لابتلاعه، لم يستطِع أن يُحرِّك ساقَيه لسببٍ ما. نظر، فوجد أنه قد ذاب نصفهما.

صرَخ البزَّاق: «أوه، يا إلهي، الملح!»

عند ذلك قفَز الضفدع وجلس متربعًا على الأرض، وفتح فمَه الكبير على مصراعَيه وراح يضحك.

قال بانحناءة: «الوداع، أيها البزَّاق. لا بد أن ذلك أكثر شيءٍ مزعج بالنسبة لك.»

كان البزَّاق على وشك البكاء.

وقال: «أيها الضفدع، الودا...» لكن حين ذلك ذاب لسانُه.

أخذ الضفدع يضحك ويضحك.

وقال: «أتوقَّع أنكَ كنتَ ستقول «الوداع». حسنًا، إذَن، الوداع لك. عندما أعود إلى المنزل سأبكي عليك كثيرًا.» وانطلق مسرعًا دون النظر إلى الوراء ولو مرةً واحدة.

كانت الأزهار البيضاء للحنطة السوداء المبذورة في الخريف، قد بدأت في التفتح للتو، وأعدادٌ لا حصر لها من النحل ذي العيون الزرقاء كان يحوم بين السويقات الوردية المنتشرة في أحد الحقول المربَّعة، متمايلًا على الأغصان الصغيرة التي تحمل الأزهار، ومشغولًا بجمع آخر عسلٍ في السنة.

ما حَلَّ بالراكون

لم يسبق للراكون هذا أن غسل وجهه عن قصد.

بحلول الوقت الذي كان العنكبوت قد بنى فيه شبكتَه الأولى التي كانت بحجم عُملةٍ نحاسية في شجرة البلوط عند طرَف الغابة، عاد الراكون إلى المعبد حيث كان يعيش في الريف. لكنه كان أيضًا جائعًا جدًّا، وكان يتكئ على شجرة صنَوبَر وعيناه مغمضتان عندما جاء أرنب باتجاهه.

قال الأرنب: «أيها الراكون، من المخيف أن يكون الشخص جائعًا هكذا، أليس كذلك؟ وقد يموت بسبب ذلك.»

قال الراكون: «نعم بالفعل. لا يبدو أن هناك كثيرًا من الأمل. لكن كل هذا بإرادة القط البري، القط المبارك. السلام عليه، السلام عليه!»

قال الأرنب أيضًا: «السلام عليه.»

«السلام عليه، السلام عليه، السلام عليه!» أمسك الراكون بكف الأرنب وقرَّبه منه قليلًا.

تمتم الراكون قائلًا: «السلام عليه، السلام عليه. كل شيء بإرادة القط المبارك. السلام عليه، السلام عليه. ...» وأخذ قضمةً من أذن الأرنب.

صرَخ الأرنب في ذعر: «آه! ماذا تفعل أيها الراكون؟»

تمتَم الراكون وفمه ممتلئ بأذن الأرنب: «السلام عليه، السلام عليه.» وأضاف: «كل شيء على الأرض تحكُمه إرادة القط البري. أوه، إن حِكمتَه التي فوق الوصف تقضي بأن أقضم أذنَيك حتى تصل للحجم المعقول! السلام عليه. ...» وانتهى به الأمر إلى أكل أذنَي الأرنب.

لكن، وبينما كان يستمع، امتلأ الأرنب تدريجيًّا بالفرح وبدأ يذرف دموعًا غزيرة.

وقاطعه قائلًا: «السلام عليه، السلام عليه. تباركتَ أيها القط البري! ما أعظم الحُب الذي يهتم بمضغ أذنَي بائسٍ مثلي! ما الذي تعنيه أذنان، أو أكثر، إذا كان في ذلك إنقاذٌ لروح أحدهم؟ السلام عليه.»

وراح الراكون أيضًا يَذرِف دموعًا زائفة غزيرة.

«السلام عليه، السلام عليه. هل تأمرني بمضغ أرجل الأرنب هذه المرة؟ لأنه يقفز كثيرًا جدًّا، على الأرجح؟ نعم، نعم ... سأمضُغها، سأمضُغها! السلام عليه، السلام عليه! سيُنفَّذ أمرك!» وأخذ قضمةً كبيرة من أرجل الأرنب الخلفية.

بكى الأرنب بابتهاجٍ أكثر من أي وقتٍ مضى قائلًا: «آه، الحمد له! الآن، الشكر للقط البري المقدس، لقد اختفت رجلاي الخلفيتان، ولم أعُد بحاجة إلى المشي! آه، الحمد له! السلام عليه، السلام عليه!»

بدا الراكون وكأنه غارقٌ في دموعه.

«السلام عليه، السلام عليه. كل شيءٍ حسب إرادتك. لذا الآن، أنت تقول إن مخلوقًا متواضعًا مثلي يجب أن يعيش لتنفيذ إرادتك؟ حسنًا جدًّا، إذا كان هذا أمرك ... السلام عليك، السلام عليك، السلام عليك. إن مشيئتك سوف تنفُذ. هممم، هممم ...»

واختفى الأرنب بالكامل.

قال الأرنب من بطن الراكون: «لقد خدعتَني! إن جوفكَ ظلامٌ دامس! آه، كم كنتُ أحمق!»

قال الراكون بغضب: «اهدأ، يا هذا! هيا دعني أهضِمكَ بسرعة.»

نادى الأرنب مرةً أخرى: «اسمَعوا جميعًا! لا تجعلوا الراكون يخدعُكم!»

وبينما كان ينظر حوله بقلق، أغلق الراكون فمه وأبقاه هكذا لفترة من الوقت، وغطَّى كذلك أنفه بكفه حتى يكتُم أيَّ صوت.

بعد هذه الحادثة بشهرَين تمامًا، كان الراكون يؤدي صلواته المعتادة، عندما جاء إليه ذئبٌ يحمل نصف مكيال من الأرز غير المقشَّر، وتوسَّل إليه بأن يُلقيَ خطبة.

بدأ الراكون كلامه قائلًا: «إن الأرواحَ التي أخذتَها لن يُكفَّر عنها بسهولة. من منا الذي يموت طواعيةً؟ غير أنك التهمتَ الكثير، أليس كذلك؟ أسرِع بالتوبة، وإلَّا فإن العذاب الشديد ينتظرك! أوه، يا لَشِدته! السلام عليه، السلام عليه!»

مرعوبًا بشدة، نظَر الذئب حوله بقلق.

وقال: «إذَن ما الذي يجب أن أفعله برأيك؟»

«يجب أن تفعل بالضبط كما أقول لك؛ لأن القط المبارك يتحدث من خلالي. السلام عليه، السلام عليه!»

سأل الذئب مذعورًا: «وما الذي يجب أن أفعله؟»

قال الراكون: «حسنًا، الآن. فقط ابقَ هادئًا، وسأقتلع أنيابك. آه، كم من أرواحٍ بريئة قد سلبَتْها هذه الأنياب! يا له من أمرٍ مرعب! الآن سوف أقتلع عينَيك. كم من مخلوقات حدَّقَت بها هاتان العينان حتى الموت! إنها لفكرةٌ مُروِّعة. والآن (السلام عليه، السلام عليه، السلام عليه!) سوف أقضِم قليلًا من أذنَيك. هذا من قبيل العقاب. السلام عليه! السلام عليه! تحمَّل الآن. سوف أقضِم رأسك. غمغم، غمغم. السلام عليه! الشيء المهم في هذا العالم هو القدرة على التحمُّل. السلام ... غمغم، هممم ... الآن سوف ألتهم سيقانك. إنها لذيذة

جدًّا. السلام عليه، غمغم، هممم. الآن ظهرك ... مم، هذا جيد أيضًا. غمغم، غمغم، غمغم، هممم، هممم ...»

في النهاية التُهِم الذئب بالكامل. وصرَخ من داخل معدة الراكون قائلًا:

«إن الظلام دامسٌ هنا. لكن يُوجد بعضُ عظام أرنب. من كان بإمكانه قتلُه؟ اسمعوا يا من بالخارج، أنا أحذِّركم ... لا تدَعوا هذا الراكون يَعِظكم، وإلَّا فإنه سوف يبتلعُكم.»

قال الراكون: «إنك تُصدِر كثيرًا من الضجيج. سأضع غطاءً فوقك.» ومرةً واحدة ابتلع الصُّرة التي تحتوي على نصف مكيال الأرز، التي كان الذئب قد أحضَرَها معه.

لكن في اليوم التالي، شعَر الراكون أنه ليس على ما يُرام على الإطلاق. لسببٍ ما أصيب بألمٍ فظيع في معدته، وكان يشعُر بوخز في حلقه.

في البداية، خفَّف من الألم بشرب كثير من الماء. لكن حالته كانت تزداد سوءًا مع مرور الأيام، إلى أن أصبح الألم في النهاية أكثر مما يستطيع تحمُّله.

أخيرًا، في اليوم الخامس والعشرين من بعد التهامه للذئب وقد انتفَخ جسدُه، وأصبح كالبالون المطاطي، انفجر مُحدِثًا دويًّا هائلًا.

عندما اجتمعَت جميع حيوانات الغابة مذعورةً، وجدَت أن جسد الراكون كان محشوًّا بالأرز. كان الأرز الذي ابتلَعه قد نبَت ونما.

جاء السيد الغرير أيضًا، متأخرًا قليلًا. ألقى نظرةً سريعة، وقال بتثاؤبةٍ كبيرة: «يا إلهي، يا لَلأسف! الثلاثة كانوا تلاميذ شديدي الذكاء.»

كان الشتاء في أوَّله في ذلك الوقت، وكلُّ نحلة من النحل الأزرق العينَين كانت في المنزل ذي الجوانب الستة الذي قد صنَعَته من الشمع تنام بسلام، وتحلُم بقدوم الربيع.

الدِّثار الأحمر

كانت امرأة الثلج العجوز، بعيدة، بعيدةً جدًّا. بأذنَيها المدبَّبتَين مثل أذنَي قطة وشعرها الرمادي المُلتف، كانت بعيدة، بعيدةً جدًّا فيما وراء الغيوم المتلألئة المتناثرة فوق الجبال الغربية.

كان هناك طفلٌ ملتفٌّ بدِثارٍ أحمر، وعقلُه مشغولٌ بأفكار عن الحَلوى المنزلية، يُسرِع في مشيه، مستعجلًا العودة إلى منزله الواقع خلف سفح تلٍّ صغير مغطًّى بالثلوج، على شكل رأسِ فيلٍ كبير.

قال مُحدِّثًا نفسه: «سوف أصنع مخروطًا من ورق الجرائد، وسوف أنفُخ وأنفُخ حتى يحترق الفحم ويُصبِح مُتوهجًا وأزرق. ثم سأضع حَفنة من السكر البني في مقلاة الحَلوى وحَفنةً من سُكَّر النبات. ثم سأضِيف بعض الماء، ثم كلُّ ما سيكون عليَّ فِعلُه بعد ذلك هو غَليُ الخليط جيدًا. ...»

لم يكن يُفكِّر حقًّا في أي شيء سوى الحَلوى المنزلية وهو يُسارِع في سيره.

في تلك الأثناء، بأعلى في المناطق الباردة الصافية من السماء، كانت الشمس مشغولة بتأجيج نيرانها البيضاء الباهرة. سطع الضوء بانتظام في كل الاتجاهات؛ بعضُه سقط على الأرض فجعل الثلج الذي يُغطي النجود الصامتة أشبه بالطبقة السكرية البيضاء اللامعة التي تُغطِّي الكعك.

بالقُرب من قمة التل الصغير الشبيه برأس الفيل، كان اثنان من الذئاب الثلجية يسيران، وكان لسانهما ذوا اللون الأحمر الفاتح يتدليان للخارج. إن الذئاب الثلجية تكون غير مرئية للبشر، لكن بمجرد أن تُثيرها الريح فإنها تقفز من على الثلج على حافة النجود، وتندفع هنا وهناك عَبْر السماء، وتطأ فوق الغيوم الثلجية المُلتفَّة.

جاء صوتٌ من خلف الذئبَين الثلجيَّين: «لا تَبعُدا! ألَم أخبركما ألا تبتعدا كثيرًا؟»

لقد كان هذا صبيَّ الثلج، الذي كان يتقدم ببطء، بقبَّعته المدبَّبة المصنوعة من فِراء الدُّب القطبي، والتي كانت تنسدل على مؤخرة رأسه ووجهه المشرق المتورِّد كالتفاحة.

هزَّ الذئبان الثلجيان رأسَيهما واستدارا بسرعة، ثم انطلقا مرةً أخرى وهما يلهثان ولسانهما الأحمران يتدلَّيان من فمَهما. حدَّق فتى الثلج لأعلى في السماء الزرقاء الصافية، وحيَّا النجوم المَخفيَّة فيما وراءها. كان الضوء الأزرق يُومِض في موجاتٍ منتظمة، وكان الذئبان على مسافةٍ بعيدة بالفعل، ولسانهما الأحمران كانا يرتعشان كاللهب.

صرَخ فتى الثلج مرةً أخرى في الذئبَين: «لا تَبعُدا، قلتُ! لا تَبعُدا!» وهو يقفز بغضب حتى تحوَّل ظله، الذي كان واضحًا وأسوَدَ على الثلج، إلى بريقٍ باهت. وعاد الذئبان مُسرعَين في خطٍّ مستقيم وقد انتصبَت آذانهما.

بسرعة الريح، صَعِد فتى الثلج إلى قمة التل الذي كان يبدو كرأس فيل. كان الثلج فوق التل قد تَراكَم على شكل كُتل تشبه الأصداف البحرية بفعل الريح، وعلى قمته كانت تُوجد شجرة كستناء كبيرة عليها كُتلة من الدبق تحمل ثمارًا ذهبية كروية جميلة.

قال فتى الثلج بلهجةٍ آمرة بينما كان يصعد التل: «أحضِرا إليَّ جزءًا منها!» مع أول بريق لأسنان سيده البيضاء الصغيرة، كان قد قفز أحد الذئبَين كالكرة على الشجرة وأخذ يقضم غصنًا صغيرًا يحمل توتًا ذهبي اللون. وقد سقط ظل الذئب، برأسه الذي كان يميل بانشغال إلى جانبٍ واحد، على نطاقٍ واسع فوق الثلج. في الحال انفصل اللحاء الأخضر عن اللب الأصفر للفرع بحيث سقط الأخير عند قدمَي فتى الثلج فور وصوله إلى قمة التل.

قال فتى الثلج: «شكرًا لك.» عندما التقَطَه، مسَح ببصره المكان وصولًا إلى البلدة الجميلة القابعة بعيدًا على السهل الأبيض والنيلي. كان النهر يتلألأ بينما يتصاعد دخانٌ أبيضُ من جهة محطة السكك الحديدية. ثم ألقى ببصره إلى سفح التل. وعلى طول الطريق الضيق عَبْر الثلج الذي يحيط به، كان الطفل ذو الدثار الأحمر يُسرِع بلهفة نحو منزله في التلال.

قال فتى الثلج في نفسه: «هذا هو الطفل الذي كان يدفع حِملًا من الفحم على زلَّاجةٍ البارحة. لقد اشترى لنفسه بعض السكر وها هو يعود بمفرده.»

ضحك وقذفَ غصن الدبق الذي كان يحملُه في يده باتجاه الطفل. طار الغصن على نحوٍ مستقيم كالسهم، وسقط أمام عينَي الطفل.

شَعَر الطفل بالذهول. والتقَط الغُصن، ونظر حوله باندهاش. ضحك فتى الثلج وضرَب بسوطه. فإذا بالثلج الأبيض، من جميع أنحاء السماء الشديدة الزُّرقة الصافية

اللامعة، قد بدأ يتساقط كريشِ طائر مالك الحزين الثلجي؛ مما جعل ذلك الأحدَ الهادئ والجميل، الذي يتساقط فيه الثلج على السهل أدناه، حيث أشجار السَّرو ذات اللون الكهرماني الفاتح والبني، أجملَ من أي وقتٍ مضى. بدأ الطفل في المشي بأسرعِ ما يُمكِن وهو لا يزال ممسكًا بغصن الدبق بيده.

بعد ذلك، وبمجرد توقُّف ذلك الثلج اللطيف عن التساقُط، بدَت الشمس وكأنها تتحرَّك بعيدًا في السماء إلى المكان الذي تُغذي فيه نيرانها البيضاء. هبَّ نسيمٌ خفيفٌ قادم من جهة الشمال الغربي. وأصبح الهواء قارص البرودة. من بعيد إلى الشرق باتجاه البحر، وصل صوتٌ ضئيل وكأن مشكلةً ما قد حدثَت في تروس السماء، وبدا أن أشكالًا صغيرة كانت تمُر بسرعةٍ كبيرة أمام قرص الشمس، الذي تحوَّل فيما بعدُ لمرآةٍ بيضاءَ كبيرة.

وضعَ فتى الثلج سَوطه الجلدي تحت ذراعه، وطوى ذراعَيه بإحكام، ثم زمَّ شفتَيه وحدَّق بثبات في الاتجاه التي كانت تهُب منه الريح. مد الذئبان عنقهما على نحوٍ مستقيم، وحدَّقا بإمعان في الاتجاه نفسه.

كانت الريح تشتد بانتظام، وكان الثلج عند أقدامهم يُحدِث حفيفًا وهم يتجاوزونه. فجأةً، ظهر ما كان يشبه عمودًا من الدخان الأبيض على قِمم سلسلة الجبال البعيدة، وعلى الفور أصبحَت الجهة الغربية رمادية ومظلمة بالكامل.

توهَّجَت عينا صبي الثلج بشدة. وتحوَّل لون السماء إلى اللون الأبيض، وعصَفَت الريح بشدة، وكانت ندف الثلج تصل إلى الأرض جافَّة وهشَّة. بعد ذلك، كان الهواء محمَّلًا بالثلج الشاحب، لدرجة أنه كان من الصعب تمييز ما إذا كان ثلجًا حقًّا أم غيومًا.

فجأةً، بدأ صوتٌ يصل من قِمم التلال، وكان نوعًا من الصَّرير والحَفيف. اختفى الأفق والبلدة خلف البخار الداكن ولم يَبقَ سوى الخيال الأبيض الباهت لفتى الثلج وهو يقف منتصبًا وسط العاصفة.

بعد ذلك ووسط هبوب الرياح العاتية وعويلها، وصل صوتٌ آخرُ أكثر غرابة.

«ويييو! لماذا تُبطئ؟ هيا، أيها الثلج! ويييو! ويييو! تعالَ أيها الثلج! هيا، هُب! لماذا تتلكأ هكذا؟ ألا يُوجد ما تفعله؟ ويييو! ويييو! انظر، لقد أحضرتُ ثلاثةً معي من هناك! هيا أيها الثلج! ويييو!»

قفز فتى الثلج كما لو أنه قد صُعق بالكهرباء؛ لقد وصلَت امرأة الثلج العجوز.

ضرب فتى الثلج بسوطه، وتَقدَّم الذئبان إلى الأمام. أصبح وجهه شاحبًا، وأطبق شفتَيه وطارت قبَّعتُه مع الريح.

«وييييو! وييييو! هيا إلى العمل، هيا إلى العمل! لا للتكاسل، الآن! وييييو! هيا إلى العمل! هيا إلى العمل! وييييو!»

كانت خصلات الشعر البيضاء لامرأة الثلج العجوز تتطاير وسط الثلج والريح، وكان يمكن رؤية أذنَيها المدبَّبتَين وعينَيها الذهبيتَين اللامعتَين من بين الغيوم الداكنة العاتية. في ذلك الحين كان فتيان الثلج الثلاثة الذين قد أحضرَتْهم معها من السهل الغربي يركضون هنا وهناك؛ وكانت وجوههم شاحبةً بشدة، وشفاههم مزمومة بإحكام، وكانوا مشغولين للغاية، ولم يسعهم حتى تبادل التحيات معًا. وسرعان ما أصبح من الصعب التمييز بين كلٍّ من التلال والثلوج المتساقطة بقوة والسماء؛ كل ما كان بالإمكان تمييزه هو صرخاتُ امرأة الثلج العجوز وهي تتحرك هنا وهناك، وصوت ضربات سياط صبيان الثلج، ولهاث الذئاب الثلجية التسعة وهي تندفع للأمام فوق الثلج المتساقط حديثًا.

في خِضَم كل ذلك، سمع فتى الثلج صوت بكاء طفل. لمَعَت عيناه بضوءٍ غريب. وتوقف للحظة وأخذ يفكِّر. ثم بضربةٍ من سَوطه انطلَق يبحث عن الطفل الباكي.

لكن لا بد أنه قد أخطأ الاتجاه؛ فقد وجد نفسه أمام تلٍّ أسودَ مُغطًّى بأشجار الصنَوبَر في أقصى الجنوب. فما كان منه سوى أن طوى السَّوط تحت ذراعه وأصغى السمع.

جاء صوتُ امرأة الثلج العجوز يقول: «وييييو! وييييو! لا للتكاسل! هيا، أيها الثلج! هيا! وييييو! وييييو–وييييو! وييييو!»

مرةً أخرى، وسط هبوب الرياح وسقوط الثلج، سُمع صوتٌ رفيع يسهل تمييزه لطفل يبكي. على الفور، ركض فتى الثلج باتجاه الصوت وكان شَعرُ امرأة الثلج العجوز الجامح يلتفُّ حول وجهه بنحوٍ مزعج وهو يسير. هناك على الممر فوق التلال، وجد الطفل ذا الدثار الأحمر، وحيدًا في العاصفة وقد انقلَب وعلقَت قدماه في الثلج بقوة. كان الطفل يبكي ويدفع بإحدى يدَيه في الثلج في محاولة لتخليص نفسه.

قال فتى الثلج بصوتٍ عالٍ مخاطبًا الطفل بينما كان يتوجَّه نحوه: «استلقِ على وجهكَ واسحَب الدثار فوقك! استلقِ وغطِّ نفسك. وييييو!»

لكن الطفل لم يسمع سوى صوت عصف الريح، ولم يرَ شيئًا.

صاح فتى الثلج وهو يتجاوَزه: «انزِل على جبهتك. وييييو! يجب ألا تتحرك. كل شيء سيكون على ما يُرام قريبًا؛ فقط استلقِ وضع الدثار فوقك!»

لكن الطفل كان لا يزال يصارع من أجل النهوض.

صرخ صبي الثلج وهو يسير مسرعًا مرةً أخرى: «استلقِ! وييييو! كن هادئًا واستلقِ على وجهك. لن تتجمَّد؛ فالطقس اليوم ليس باردًا جدًّا.»

حاول الطفل النهوض مرةً أخرى وهو يبكي طوال الوقت، وكان فمه ملتويًا ويرتجف من الخوف.

«استلقِ! ... أوه، لا فائدة!» عندها لطم فتى الثلج الطفل عمدًا لطمةً قوية، فسقط أرضًا.

«ويييو!» اقتربَت امرأة الثلج العجوز. «اعمل، اعمل بجدٍّ أكثر، الآن! هيا، هيا! ويييو!» استطاع فتى الثلج رؤية الشق الأرجواني لفَمها وأسنانها المدبَّبة تلُوح في الأفق عَبْر العاصفة. تابعَت امرأة الثلج العجوز: «آها! انظر، يا له من طفلٍ صغيرٍ جميل! رائع! ... سنأخذه. عجبًا، في مثل هذا الوقت من السنة لنا الحق بأخذ واحدٍ أو اثنَين على الأقل.»

قال فتى الثلج: «طبعًا لنا الحق! انظري، هذا سيقضي عليه!» وتصنَّع لطم الطفل مرةً أخرى. لكنه همس له بهدوء قائلًا: «حافظ على هدوئك. عليكَ ألا تتحرك، هل تسمعني؟»

كانت الذئاب الثلجية لا تزال تجري في المكان بجنون وكفوفُها السوداء تظهَر للعيان ثم تختفي وسط دوامات الثلج.

صاحت امرأة الثلج العجوز وهي تطير مرةً أخرى: «أحسنتَ! هذا جيد! هيا، أيها الثلج! استمِر في عملك! ويييو!»

حاوَل الطفل مرةً أخرى النهوض. وجَّه فتى الثلج إليه لطمةً أخرى وهو يضحك. أصبح كل شيء فجأةً مُعتمًا وضبابيًّا، وبالرغم من أن الساعة لم تكن قد بلغَت بعدُ الثالثة بعد الظهر، فإنه كان يبدو كما لو أن الشمس قد غابت بالفعل. خارت قُوى الطفل، فمد فتى الثلج بابتسامةٍ يده وسحب الدثار الأحمر فوقه.

«اخلُد إلى النوم الآن. سأُغطِّيك بكثير من الأغطية كي لا تتجمد. الآن احلُم بالحلوى المنزلية حتى الصباح.»

كرَّر فتى الثلج تلك الكلمات وهو يُراكِم طبقاتٍ من الثلج فوق الطفل. وسرعان ما اختفى الدِّثار الأحمر تمامًا، وكان الثلج فوقه ناعمًا تمامًا.

تمتَم فتى الثلج في نفسه وقد بدا حزينًا للحظة: «لا يزال يحتفظ بالغصن الذي أعطيتُه له.»

جاء صوت امرأة الثلج العجوز عَبْر الريح القادمة من بعيد: «هيا إلى العمل، هيا إلى العمل! لا راحة لنا حتى الصباح الباكر. لا راحة لنا اليوم! هيا أيها الثلج! ويييو! ويييو-ويييو! ويييو!»

في النهاية، وسط الرياح والثلج والغيوم الرمادية المشتتة، غابت الشمس حقًّا. وطَوال الليل استمَر الثلج في السقوط. ثم مع اقتراب بزوغ الفجر هرولَت امرأة الثلج العجوز للمرة الأخيرة من الجنوب إلى الشمال.

وصرخَت قائلةً: «هيا، سيَحين وقت الراحة قريبًا. يجب أن أذهب إلى البحر مرةً أخرى. ليس عليكم أن تتبعوني. استريحوا قَدْر ما تشاءون كي تستعيدوا نشاطكم من أجل لقائنا القادم. ... لقد سارت الأمور على ما يُرام! يومٌ جيد حقًّا!»

كان لعينَيها في الظلام بريقٌ أزرق غريب بينما كانت تتجه نحو الشرق، بينما شعرُها الخَشِن الجاف يتطاير وفمُها مستمرٌّ في الثرثرة.

بدا أن السهول والتلال تميل للهدوء، وكان الثلج يتوهَّج بضوءٍ خافت. كانت السماء قد أصبحَت صافية، وكانت الأبراج المرصَّعة بالنجوم تتلألأ في جميع أنحاء قبة السماء ذات اللون الأزرق الداكن.

جمَع فِتيان الثلج ذئابهم، وحيَّوا بعضهم بعضًا لأول مرة.

«لقد كان يومًا مُروِّعًا، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«أتساءل متى سنلتقي مرةً أخرى.»

«وأنا كذلك. لكن ليس أكثر من مرتَين هذه السنة، حسب توقعي.»

«أتُوق إلى أن نعود جميعًا معًا إلى موطننا في الشمال.»

«وأنا كذلك.»

«لقد مات طفلٌ منذ قليل، أليس كذلك؟»

«كلُّ شيء على ما يُرام. إنه نائمٌ فقط. سأترُك علامةً هناك لأتبيَّن مكانَه في الصباح.»

«من الأفضل أن نذهب. علينا أن نكون خلف التلال مع بزوغ الفجر.»

«مع السلامة، إذَن.»

«مع السلامة.»

انطلقَ فِتيان الثلج الثلاثة مع ذئابهم التسعة عائدين إلى موطنهم في الغرب. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى بدأت السماء الشرقية بالتوهُّج كوردةٍ صفراء، ثم تألَّقَت كالكهرمان، وأخيرًا التمعَت كلها باللون الذهبي. كان الثلج الجديد يُغطي كل الأنحاء، التلال والسهل على حدٍّ سواء.

كان ذئبا فتى الثلج قد خارت قواهما، فأخذا يسيران بترنُّح وإنهاك. فتى الثلج نفسه جلس وابتسم. كان خدَّاه متورِّدَين كالتفاحتَين، وكانت تفوح من أنفاسه رائحة الزنابق.

أشرقَت الشمس بكل مَجدها، مع مسحةٍ زرقاءَ اليوم جعلَتْها تبدو بديعةً أكثر من أي وقتٍ مضى. وقد غمر ضوءُها العالم كله باللون الوردي. نهض الذئبان وفتحَا فمَهما عن آخرهما فبدا كما لو كانت تخرُج منهما ألسنةٌ من اللهب الأزرق.

قال فتى الثلج: «هيا، جميعًا، اتبعاني. لقد طلع الفجر. وعلينا أن نُوقِظ الطفل.»

ركضَ إلى حيث دُفن الطفل تحت الثلج.

وقال آمرًا: «الآن انفُضا هذا الثلج بعيدًا.»

أزاح الذئبان بأرجلهما الخلفية الثلجَ الذي تناثَر في المكان على الفَور كالرماد.

كان هناك شخصٌ قادم بسرعة من جهة القرية، وكان يرتدي فِراءً وحذاءَ ثلج.

صاح فتى الثلج، وهو يرى طرَف دِثار الطفل الأحمر يظهر من تحت الثلج: «سيَفِي هذا بالغرض.»

صاح وهو يُسرِع الخُطا أعلى التل الصغير في عمودٍ من الثلج الناعم: «إن والدك قادم. استيقظ!»

بدا أن الطفل قد تحرَّك قليلًا. وكان الشخص ذو الفِراء يأتي مسرعًا بكل ما أُوتي من قوة.

زهور الداليا وطائر الغرنوق

فوق قمة تلٍّ صغير وسط البساتين نمَت ثلاثة زهور داليا، اثنتان منهما صفراوان بطول زهور عبَّاد الشمس، والثالثة كانت أطول وذات زهرةٍ حمراءَ كبيرة.

كانت الزهرة الحمراء تأمل أن تصبح ملكة الزهور.

عندما هبَّت الرياح من الجنوب، وقد أخذَت تُسقِط قطراتِ مطر كبيرةً على الأشجار والزهور، وتصخب بالضحك وهي تُمزِّق العُقَد الخضراء، وحتى الأغصان الصغيرة لشجرة الكستناء الصغيرة الموجودة على التل، كانت زهور الداليا الثلاثة الجميلة تتمايل برقَّة، ويبدو أنها تتوهَّج بشدةٍ أكثر.

وعندما دوَّت رياح الشمال المؤذية، لأول مرة في تلك السنة، كالناي عَبْر السماء الزرقاء، فإن شجرة الإجاص البرية عند سفح التل هزَّت أغصانها بقوة وأسقطَت ثمارها، بينما زهور الداليا الثلاثة الطويلة أظهرَت فقط أقل الابتسامات إشراقًا.

قالت إحدى الزهرتَين الصفراوَين كما لو كانت تُخاطِب نفسها، وهي تتأمل السماء الجنوبية بالقرب من الأفق:

«يبدو أن الشمس اليوم تنثُر من مسحوقها الأزرق المتلألئ أكثر من المعتاد.»

قالت الزهرة الصفراء الأخرى وهي تنظر بجدية إلى وجه صديقتها:

«يبدو عليكِ الشحوب بعض الشيء اليوم. أنا متأكدة أنني كذلك.»

قالت الأولى: «نعم إنكِ كذلك.» ثم قالت لزهرة الداليا الحمراء: «لكن أنتِ، عجبًا، تَبْدين رائعةً اليوم! أشعُر أنكِ على وشك أن تنفجري من الحيوية.»

حدَّقَت الزهرة الحمراء في السماء الزرقاء وابتسمَت، وهي تلمع تحت أشعة الشمس، ابتسامةً باهتة وهي ترُد قائلةً:

«لكن هذا لا يكفي. لن أكون سعيدةً حتى تبدو السماء كلها متوهجة باللون الأحمر بنوري. هذا يجعلني محبطةً للغاية.»

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى غابت الشمس، واختفَت بدورها سماءُ الشفَق الأشبه بالبلورة الصفراء، وظهَرَت النجوم، وكانت السماء عبارةً عن هاويةٍ شاسعة ذات لونٍ أسود مزرق.

صاحَ طائر غرنوق وهو يطير بالقرب من تلك الزهور، وكان لونُه أسودَ تحت ضوء النجوم: «بي-تري-تري.»

قالت الزهرة الحمراء: «يا طائر الغرنوق، أنا جميلة جدًّا، أليس كذلك؟»

«جميلة جدًّا. شديدة الاحمرار!»

اختفى الطائر في الأعماق المظلمة للمستنقع المجاور، مناديًا برقَّة وهو يطير على زهرة داليا بيضاء تتفتَّح هناك دون أن يلاحظها أحد: «مساء الخير.»

ابتسَمَت الزهرة البيضاء بخجل.

تحوَّلَت الغيوم التي بدت وكأنها مغطَّاة بالشمع فوق التلال إلى اللون الأبيض المُوحِل، وطلَع الفجر.

صاحت واحدةٌ من زهرتَي الداليا الصفراوَين في دهشة: «أوه! تَبْدين أكثر جمالًا، كما لو أنك محاطةٌ بهالةٍ ضاربة إلى الحمرة!»

قالت الزهرة الصفراء الأخرى: «نعم، بأمانة. يبدو الأمر كما لو أنكِ قد جمعتِ كل ألوان قوس القُزَح الحمراء من حولكِ.»

«أوه، حقًّا؟ لكنني ما زلتُ غير راضية، بالرغم من ذلك. أريد أن أُحوِّل السماء كلها إلى لوني، اللون الأحمر. إن الشمس تنشُر مزيدًا من الغبار الذهبي في الأنحاء أكثر من ذي قبل.»

صمتَت الزهرتان الصفراوان ولم تُجيبا.

أفسحَت تلك الأمسية الذهبية الطريق إلى ليلةٍ باردةٍ منعشة سماؤها ذات لونٍ نيلي. كان طائر الغرنوق ذو الريش الكثيف يطير بسرعةٍ عَبْر السماء المرصَّعة بالنجوم.

«يا طائر الغرنوق، إنني ألَمع كثيرًا، أليس كذلك؟»

«أوه بلى، كثيرًا.»

وبينما كان يغوص في الضباب الأبيض الباهت بعيدًا، همس برقَّة مرةً أخرى لزهرة الداليا البيضاء قائلًا: «مساء الخير. كيف حالكِ هذا المساء؟»

دارت النجوم، واستجابةً لآخر أغنية لكوكب الزهرة، تحوَّلَت السماء بكاملها إلى اللون الفضي، وبزغ فجر يومٍ جديد. هذا الصباح، كانت الشمس تغمُر كل شيء بأشعة بلون الكهرمان.

«أوه، كم تَبْدين جميلةً اليوم! هالتُك تبدو أكبر خمسَ مرات من البارحة!»

«باهرة حقًّا! انظري، إن نورك يصل بعيدًا حتى شجرة الإجاص هناك.»

«نعم، أعلم. لكني ما زلتُ بائسة. لم يقُل أحد إنني ملكةٌ حتى الآن.»

تبادلَت الزهرتان الصفراوان نظرةً حزينة، ثم وجَّهتا أعينهما الواسعة نحو التلال التي ارتفعَت باللون الأزرق الداكن في الغرب.

اقترب ذلك اليوم الخريفي المشرق الطيب الرائحة من نهايته. سقط الندى، وتحرَّكَت النجوم، وطار طائر الغرنوق نفسه بصمتٍ عَبْر السماء.

«يا طائر الغرنوق، كيف أبدو الليلة؟»

«دعينا نرى. عجبًا، رائعة، على ما أعتقد. لكن الظلام يحلُّ بشدة، كما تعلمين.»

وبينما كان يمُر فوق حافة المستنقع المجاور، قال طائر الغرنوق لزهرة الداليا البيضاء: «مساء الخير. إنها أمسيةٌ جميلة.»

بدأ نهارٌ جديد يبزُغ، وفي الغبَش البنفسجي نظرَت الزهرتان الصفراوان إلى الزهرة الحمراء، ثم فجأةً حدَّقَت كلٌّ منهما في الأخرى وعلامات الرعب تبدو على وجههما دون أن ينطقا بأي كلمة.

قالت الزهرة الحمراء: «أوه، أنا مُحبَطة جدًّا. كيف أبدو هذا الصباح؟»

قالت إحدى الزهرتَين الصفراوَين: «حمراء زاهية — طبعًا — لكن ربما لستِ حمراءَ بشدة كما كنتِ من قبلُ.»

«كيف أبدو إذَن؟ أخبريني! كيف؟»

قالت الزهرة الصفراء الأخرى وهي تتململ بنحوٍ غير مُريح: «حسنًا، نحن الوحيدتان اللتان تعتقدان ذلك ... لذا من فضلك لا تأخُذي كلامنا على محمل الجِد ... لكن يبدو لنا كما لو أنه تُوجد بُقعٌ داكنة عليكِ.»

«أوه، لا! اصمتي! أنتِ تُخاطرين بحياتكِ!»

سطعَت الشمس طَوال النهار، وتحوَّل التفاح على التل إلى اللون الأحمر اللامع من جانبٍ واحد.

غاب الشفَق، ولاح الغسَق، وحلَّ الليل.

طار طائر الغرنوق في السماء وهو يصيح: «بي-تري-تري، بي-تري-تري.»

«يا طائر الغرنوق، يا طائر الغرنوق، هل تستطيع رؤيتي الليلة؟»

«حسنًا، ليس بوضوحٍ شديد، مع الأسف.»

طار طائر الغرنوق مسرعًا نحو المستنقع، وعندما وصل هناك، نادى على الزهرة البيضاء قائلًا: «إن الجو دافئ قليلًا هذا المساء، أليس كذلك؟»

بزغ فجر يومٍ آخر.

في الضوء الباهت الذي تفوح منه رائحة التفاح، قالت الزهرة الحمراء:

«بسرعة، أخبراني كيف أبدو اليوم. بسرعة!»

كلما حدَّقَت الزهرتان الصفراوان نحوها، وجدَتا أن بها بقعًا داكنة وغائمة.

«لا يزال الوقت ليلًا؛ لذلك لا نستطيع إخبارك.»

قالت الزهرة الحمراء وهي على وشك البكاء: «لا، أخبراني الحقيقة. أخبراني الحقيقة. أنتما تحاولان إخفاء شيءٍ ما عني، أليس كذلك؟ هل بي بقعٌ داكنة؟ هل بي بقعٌ داكن؟»

«نعم، يبدو الأمر كذلك. لكننا لا نستطيع حقًّا أن نرى بوضوح.»

«يا إلهي! أنا أكره جدًّا اللون الأحمر ذا البقع الداكنة!»

حينها، جاء رجلٌ قصير ذو وجهٍ أصفر مُدبَّب وقبَّعةٍ غريبة مُدبَّبة ويداه في جيبَيه. عندما رأى الزهرة الحمراء، صرَخ:

«آه، إن هذه الزهرة تملك هذه العلامة! علامة الحاصد.»

وقطعَ جذع الزهرة الحمراء. وحمل الزهرة بين يدَيه وهي لا حول لها ولا قوة.

صرَخَت الزهرتان الصفراوان وهما تشهقان من شدة الحزن: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟ أوه، إلى أين أنتِ ذاهبة؟ أنتِ ... ابقي معنا! أوه، إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

كان بإمكانهما سماعُ صوتِ الزهرة الحمراء الخافت من بعيد.

كان صوتُها يبتعد أكثر وأكثر إلى أن فُقد أخيرًا وسط تمتمة أوراق شجر الحور عند سفح التل. وكانت الشمس تسطع بأشعَّتها المتلألئة عَبْر دموع الزهرتَين الصفراوَين.

الضفادع الثلاثون

منذ زمنٍ بعيد، كان هناك ثلاثون ضفدعًا شجريًّا صغيرًا يعملون معًا بسعادة.

كانوا يكسبون رزقهم بنحوٍ رئيسي من خلال العمل لصالح الحشرات في جمع بذور الفلفل والخشخاش المتساقطة وصُنع أحواض زهور، أو تجميع الأحجار والطحالب ذات الشكل الجيد وتنسيقها على هيئة حدائقَ جميلة.

لا تزال نتائجُ عملهم، الجذابة والمصنوعة بعناية، موجودةً في شتى أنواع الأماكن غير المتوقَّعة؛ تحت نباتات الفول في أحد الحقول، أو عند أسفل شجرة بلوط في الغابة، أو مُخبَّأة تحت أحد التكوينات الرسوبية بأحد الكهوف.

كان الضفادع الثلاثون يستمتعون بنحوٍ كامل بمهامهم اليومية. كانوا يُباشِرون العمل في وقتٍ مبكر من الصباح؛ آخذين أنفاسًا عميقة من الهواء البارد والنظيف بينما تُلقي أشعة الشمس الذهبية بظلالها الأولى البعيدة المدى لنباتات الذرة الممتدة على طول الأرض، وكانوا يعملون وهم يُغَنون ويضحكون ويُنادُون بعضهم على بعض طَوالَ الوقت إلى أن يأتي المساء، والذي تخلُد فيه أوراق الشجر والنباتات للسكون تحت الضوء الكهرماني.

في الأيام التي تلي العاصفة، كانوا منشغلين حقًّا: «تعالَوا في أقرب وقتٍ ممكن من فضلكم لإزاحة اللوح الذي يُخفي حديقتنا»، أو «هل يأتي خمسة أو ستة منكم على وجه السرعة لإقامة أشجار طحالب اليشعور التي كانت قد سقطَت؟» وكلما كانوا أكثر انشغالًا، كانوا أكثر سعادة؛ لأن العمل كان يجعلهم يشعُرون بأنهم كائناتٌ نافعة.

«حسنًا، دعُونا نسحب بقوة. هيا، اسحَبوا! يا بوتشكو، إن الحبل يرتخي! حسنًا، اسحَبوه. أنت، هناك، بيكيكو، اترُك ذلك. اربِط الحبل! اسحَب، هناك تقريبًا، اسحب! ...» هكذا كانت تسير الأمور.

لكن في أحد الأيام كانت الضفادع الشجرية الثلاثون قد وضعت للتو اللمسات الأخيرة على حديقة لبعض النمل، وكانوا يتجهون إلى المنزل في حالة معنوية عالية عندما مروا من تحت شجرة خوخ، ورأَوا أن متجرًا جديدًا قد افتُتح. كان عليه لافتة تقول: «يُوجد ويسكي مستورد – الكوب باثنين ونصف رين.»

أثار ذلك فضول الضفادع، فاحتشدوا جميعًا في المكان. هناك وجدوا ضفدع ثورٍ لونُه أخضر زيتوني جالسًا على نحوٍ متبلد، وقد بدا عليه الملل، وكان يُسلي نفسه برؤية إلى أي مدًى يمكن أن يمُد لسانَه للخارج. عندما دخلوا عليه، قال بأحسن صوت لديه:

«مساء الخير، أيها السادة! هلا تجلسون وتروِّحون عن أنفسكم قليلًا؟»

فقال أحدُهم: «حسنًا، إذَن ... أرى أن لديك شيئًا يُسمَّى الويسكروك المستورَد. ما هذا الشيء بالضبط؟ هل لي بكوب، من فضلك، لأرى كيف يبدو؟»

«الويسكي المستورَد، سيدي؟ بالطبع، يا سيدي. اثنان ونصفُ رين ثَمنُ الكوب ... هل هذا مناسب لكَ يا سيدي؟»

«أجل، لا بأس.»

قام ضفدع الثور بسَكْب بعض من الويسكي في كوبٍ مصنوع من حبة دَخنٍ مُجوَّفة.

فصاح الضفدع الشجري: «أوه! إنه شرابٌ قوي! إنه يجعلك تشعُر بالحرقة في حلقك أثناء مروره به. واو! إن له المفعول نفسه مع بطنك أيضًا. آه، هذا شعورٌ جيد! هل لي بكوبٍ آخر من فضلك؟»

«حسنًا يا سيدي. سأكون معك حالما أنتهي من خدمة هذا الزبون هنا.»

«وواحد لي أيضًا.»

«أنا قادم يا سيدي، قادم. كما تعلم، من يأتي أولًا تكون له الخدمة أولًا. يا هذا، هذا لك يا سيدي.»

«شكرًا. واو! ... هذا الشيء رائع!»

«يا هذا، أين كوبي؟»

«حسنًا ... ها هو، يا سيدي.»

«أوه!»

«هنا ... واحدٌ آخر من أجلي!»

«تعالَ هنا!»

«كوبٌ آخر ... وجهِّزه سريعًا.»

«تحلَّوا بالصبر، أيها السادة. أنتم لا ترغبون بأن أسكُبه بعد أن صبَبتُه بدقة، أليس كذلك؟ دعونا نرى، الآن ... هذا لكَ، يا سيدي.»

«شكرًا. أوه ... إن الأمر يتحسَّن بنحوٍ كبير.»

وبهذه الطريقة، تناولَت الضفادع الشجرية كوبًا تِلو الآخر، حتى شربوا كثيرًا، وكانوا يُريدون المزيد كلما شربوا أكثر.

في الحقيقة، كان هناك برميل زيتٍ كامل مليء بويسكي الضفدع؛ لذلك كان بإمكانكَ طلبُ عددٍ كبير من أكواب ويسكي الدَّخن المجوَّف هذه دون أن تحدث أي مشكلة.

«يا هذا، واحدٌ آخر لي!»

«هنا ... لقد طلبتُ كوبًا آخر، أليس كذلك؟ أسرع، هلا فعَلتَ؟»

«هيا، لن أنتظر إلى الأبد!»

«نعم يا سيدي، حسنًا، سيدي. سيكون هذا كوبك الثاني بعد الثلاثمائة؛ هذا صحيح، أليس كذلك؟»

«بالطبع لا بأس ... عندما أقول كوبًا آخر، أعني كوبًا آخر.»

«حسنًا، يا سيدي، ستحصُل عليه إذا كان هذا ما تريده. ها هو ...»

«آه، هذا أفضل!»

«يا هذا، لا تنسَ كوبي!»

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى كانت الضفادع الشجرية في حالة ثُمالةٍ تامة، وغطُّوا جميعًا في النوم واحدًا تلو الآخر مطلقين شخيرًا بصوتٍ عالٍ كان أشبه بصفيرٍ طويل.

عندها، ابتسم ضفدع الثور ابتسامةً متكلَّفة، وأعاد تغطية البرميل بإحكام، وبسرعةٍ أغلق متجره. ثم أخرج من الخِزانة بدلةً واقية من الزَّرد وطرحَها بحذَر فوق رأسه، وجعلها تصل إلى أخمص قدمَيه. بعد ذلك جلب كرسيًّا وطاولة، وجلس بعنايةٍ أمام الطاولة. كانت الضفادع الشجرية لا تزال تملأ الغرفة بشخيرها العالي الرفيع؛ لذا أحضر مقعدًا صغيرًا بلا ظهر، ووضَعَه على الجانب الآخر المقابل له من الطاولة. ثم ذهب وتناول قضيبًا حديديًّا من الرَّف، وألقى بنفسه على الكرسي مرةً أخرى، ووجَّه للضفدع الأول ضربةً خاطفة على رأسه الأخضر.

وصاح به: «هيه، استيقظ، أنت! لقد حان وقت دفع الفاتورة. هيا!»

«خخ، خخ. ... آه، هذا مُوجِع! ما الذي تقصده بحق الجحيم بضربي على رأسي هكذا؟!»

«هيا، ادفع فاتورتك.»

«إيه؟ ... أوه أجل، بالطبع ... كم تصل قيمتها؟»

«لقد تناولتَ ٣٤٢ كوبًا؛ لذلك تبلغ قيمتها ٨٥ سينًا، و٥ رينات. حسنًا ... هل بإمكانك الدفع؟»

أخرج الضفدع الشجري محفظتَه وألقى نظرةً إلى داخلها، لكن كان معه فقط ٣ سينات ورينان.

«تعني أنَّ معك فقط ٣ سينات ورينين؟ أنت في ورطةٍ إذَن. حسنًا، كيف نعالج الأمر؟ هل أُبلِغ عنك الشرطة؟»

«لا، لا، لا تفعل أرجوك!»

«إذَن، هيا، ادفع!»

«أنا حقًّا ليس لديَّ هذا المبلغ. أعفِني منه من فضلك. إذا فعلتَ ذلك، فسأبقى هنا وأعمل لديك.»

«لقد فهِمتُ. حسنًا، إذَن ... من الآن فصاعدًا عليك أن تخدمني.»

«أجل، سيدي، كما تريد يا سيدي.»

«حسنًا. اذهب إلى الداخل. ...»

فتَح ضفدع الثور الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة، ودفع بالضفدع الشجري المذهول إلى الداخل وأغلق الباب. ثم ابتسم بتكلف، وألقى بنفسه على كرسيه. بعد ذلك، أمسك بالقضيب الحديدي مرةً أخرى، ووجَّه نقرةً خاطفة إلى الرأس الأخضر المُزرَق لضفدعٍ آخر.

وقال له: «هيه، أنت ... حان وقت الاستيقاظ! إنه وقتُ دفع الفاتورة! وقتُ دفع الفاتورة!»

«خخ، خخ، نق نق، تبًّا. ... الشيء نفسه مرةً أخرى، من فضلك.»

«أيها الأحمق، أنت ما زلتَ نصفَ نائم. استيقظ! حان وقت الدفع.»

«تبًا، يون، تبًّا. ما الأمر؟ لماذا تضربُني على رأسي؟»

«ما تزال ثَمِلًا، أليس كذلك؟ هيا، ادفع فاتورتك. أقول، فاتورتك!»

«أوه، بالطبع ... أنت مُحقٌّ تمامًا ... كم تبلُغ قيمتها؟»

«لقد شربتَ ٦٠٠ كوب، لذلك تبلغ قيمتها ين واحدًا و٥٠ سينًا. ماذا عن هذا ... هل لديك هذا المبلغ؟»

شحَب الضفدع الشجري بشدة لدرجة أنه أصبح شبه شفَّاف. قلَّب محفظته رأسًا على عقب، لكن كل ما خرج منها كان مجرد سين واحد ورينين.

«سأُعطيك كل ما لديَّ ... هل تعتقد أن ذلك سيَفِي بالغرض؟»

«مم ... ين واحد، و٢٠ سينًا، أليس كذلك؟ لكن انتظر ... هذا فقط سين و٢٠ رينًا! أيَّ نوعٍ من الحمقى تحسَبُني؟ ذلك المبلغ يُشكِّل واحدًا على مائة مما يجب أن تدفعَه لي، أيها الشيطان الصفيق! هيا، ادفَع كل ما عليك! بسرعة!»

«لكنني لا أملكُ هذا المبلغ.»

«إذَن، سيكون عليك البقاء والعمل هنا، ألن تفعل؟»

«بلى ... أعتقد أنني سأفعل.»

«جيد. من هذا الطريق، إذَن. ...» ودفع ضفدعُ الثور الضفدعَ الشجري الثاني إلى داخل الغرفة المجاورة أيضًا. وكان على وشك إغلاق الباب عندما بدا أن شيئًا قد خطَر له، فسار إلى حيث كانت الضفادع الأخرى تشخر شخيرها المصحوب بصفير، وأخرج محافظهم الواحدة تلو الأخرى ونظر بداخلها.

لم تحتوِ أيٌّ منها على أكثر من ٣ سينات. لكن بدت واحدةٌ فقط ممتلئةً وكبيرة الحجم، غير أنه عندما فتحَها لم يجد فيها عملةً واحدة، بل وجد ورقة كاميليا مطويةً أكثر من مرة. بابتسامة فرح، أخذ ضفدع الثور قضيبَه الحديدي ونقَر جميع الضفادع الشجرية بالترتيب على رءوسها الخضراء. ووفى هذا بالغرض.

صاحت الضفادع وهي تستيقظ: «تبًّا! آه! من الذي ...؟»

لفترة من الوقت، اكتفَوا بالحملقة. لكن عندما أدركوا أن صاحب محل المشروبات كان المسئول عن ضربهم، أحاطُوا به من كل الجهات:

«أنت ... ماذا تعني بضربنا هكذا؟! ...»

لكن حجمه كان أكبر من حجمهم مجتمعين، هذا بالإضافة إلى أنه كان يرتدي بدلةً واقية من الزَّرد بينما كان الثلاثون ضفدعًا لا يزالون يترنَّحون تحت تأثير الويسكي المستورَد. لذلك طرحهم أرضًا الواحد تلو الآخر، قاذفًا بآخِرِ أحدَ عشَر منهم بعضهم فوق بعض في كومةٍ واحدة غيرِ منظَّمة.

مهزومين تمامًا الآن، تمدَّدَت الضفادع الشجرية على الأرض وهم يرتعدون وقد شحَبوا بشدة لدرجة أنهم بدَوا غير مرئيين.

قال ضِفدع الثور مُبررًا ما فعله: «لقد شربتم الويسكي الخاص بي. ولا تقلُّ قيمة أيٍّ من فواتيركم عن ٨٠ سينًا، غير أنْ لا أحد منكم لديه أكثر من ٣ سينات. حسنًا؟ هل لدى أيٍّ منكم أكثر؟ لا أظن ذلك. ...»

لم يكن بمقدور الضفادع الشجرية الذين كانوا يلهثون سوى النظر بعضهم لبعض بلا حول ولا قوة.

قال ضفدع الثور وهو مسرور جدًّا من نفسه: «لن يكون بمقدوركم الدفع، أليس كذلك؟ الآن، لقد تعهَّد بالفعل اثنان من أصدقائكم بالعمل لديَّ بدلًا من الدفع. ماذا عن بقيَّتكم؟» في تلك اللحظة كان الضفدعان الموجودان، كما تعلمون، داخل الغرفة المجاورة، ينظران إليهم من خلال فتحة في الباب وهما ينوحان بصوتٍ منخفض.

نظروا جميعًا بعضهم إلى بعض.

«لا يُوجد سبيلٌ آخر. هل نوافق إذَن؟»

«أجل ... من الأفضل أن نقبل عرضه.»

قالوا لضفدع الثور: «كما تريد، يا سيدي.»

وبهذه الطريقة فإن الضفادع الشجرية، المخلوقات اللطيفة والمستعدة لتقديم المساعدة، أصبحَت تابعة لضفدع الثور دون مقاومة على الإطلاق. لذا، فتَح ضفدع الثور الباب الذي يُوجَد خلفه وأخرج الضفدعَين الآخرين، وخطب بهم جميعًا بصوتٍ مهيب قائلًا:

«اسمَعوا. من الآن فصاعدًا سنُطلِق على أنفسنا «مجموعة ضفدع الثور». وسأكون أنا رئيسها. اعتبارًا من الغد ستتلقَّون الأوامر مني. حسنًا؟»

فأجابوا: «أجل، يا سيدي.»

في اليوم التالي، ألقى ضوء الشمس الذهبي بظلال شجرة الخوخ خلف المنزل البعيد، وقد أضاءت السماء باللون الأزرق الفاتح، لكن لم يأتِ أحدٌ للعهد بأي عمل لمجموعة ضفدع الثور. لذلك دعاهم الرئيس جميعًا وقال لهم:

«لم يأتِ إلينا أيُّ زبائن. إذا لم نحصل على أي عمل، فما الفائدة من إطعامكم؟ ذلك يضَعُني بالفعل في ورطة. غير أنه عندما لا يكون هنالك عمل، فإن أفضل ما يمكن فعله هو التحضير لأوقات يتوفَّر فيها العمل بكثرة. لذلك هذه فرصة لجمعِ المواد للأعمال المستقبلية. ...

أول مادَّة، إذَن، هي الخشب. اليوم أريدكم أن تخرجوا وتجلبوا لي عَشْر أشجارٍ جيدة. لا، انتظروا ... هذا لا يكفي. دعونا نرى ... مائة، لكن لا، حتى هذا عددٌ قليل جدًّا ... ألف شجرة. إذا لم تُحضِروا ألفًا منها فسوف أقدِّم شكوى إلى الشرطة على الفور. عندها سوف

يُحكَم عليكم جميعًا بالإعدام. ستُقطَع رقابكم السمينة. لا، لن تُقطَع فقط — إنها سمينةٌ جدًّا بحيث لا يمكن أن يُفعَل فيها ذلك — ستُقطع إربًا إربًا.»

ارتعدَت أذرُع الضفادع الخضراء وأرجلها، وارتجفَت من الخوف. تسلَّلَت الضفادع الشجرية للخارج بشكلٍ خفي، وبدأَت البحث عن العدد المطلوب من الأشجار بنشاط؛ تبعًا لحساباتهم، على كل واحد منهم إحضار ما يزيد قليلًا عن ٣٣,٣٣ شجرة. لكنهم كانوا قد استنفَدوا بالفعل معظم الأشجار المتوفرة، وبالرغم من أنهم قد فتَّشوا في الأماكن المجاورة بحماسة شديدة، فإنهم لم يحصُلوا على أكثر من تسعِ أشجار بحلول المساء.

تسكَّعوا في المكان بلا حول ولا قوة والدموع تَنهمر من أعينهم؛ مما جعل الأمور تبدو أسوأ. لكن في ذلك الوقت، تصادف أنْ مرَّت بهم نملة، ورأتهم جالسين هناك يبكون ويبدو لونهم أخضرَ نصفَ شفاف تحت ضوء شمس المساء الكهرماني، فقالت في دهشة:

«مرحبًا أيتها الضفادع، شكرًا على العمل الذي قمتُم به في ذلك اليوم. لكن ما الأمر؟»

«كان من المفترض أن نأتي اليوم بألف شجرة لضفدع الثور. لكن حتى الآن، لم نجد سوى تِسع منها.»

«ها-ها-ها-ها!» هكذا ضحكَت عندما سمعَت ذلك، لكنها قالت بعد ذلك: «إذا أراد ألفًا، فأحضِروا له ألفًا. أترَون أشجار العفَن الموجودة هناك، تلك الجميلة للغاية التي تبدو وكأنها خيوط من الضباب؟ إن حَفنةً واحدةً منها ستعطيكم ٥٠٠ شجرة دفعةً واحدة.»

تساءلوا فيما بينهم بسرور: «لماذا لم نفكر بذلك؟» وعلى الفور جمع كل واحد منهم ما يزيد قليلًا عن ٣٣,٣٣ من أشجار العفَن الرفيعة، ثم عادوا إلى مَقرِّهم الجديد بعد أن شكَروا النملة.

سُر الرئيس بشدة.

وضحك ضحكةً خافتة وقال: «جيد، جيد. حسنًا، إذَن ... بإمكان كلٍّ منكم تناوُل كوبٍ واحد من الويسكي المستورَد قبل الذهاب إلى الفِراش.»

وهكذا تناوَل كل واحد منهم جُرعةً واحدة من الويسكي في أكواب حبوب الدَّخن، وغطُّوا في النوم مع دُوارٍ في الرأس وكثير من الشخير.

في صباح اليوم التالي، ومع شروق الشمس، دعاهم ضفدع الثور جميعًا معًا مرةً أخرى.

وقال: «لا تُوجد طلباتُ عملٍ اليوم أيضًا. لذا استمِعوا ... ستذهبون إلى أحواض الزهور في الجوار وتعملون على التقاط البذور. أريد أن يجمع كل واحد منكم مائة — لا، مائةٌ قليلٌ

جدًّا — حتى ألف ليست كافيةً ليومٍ طويل كهذا ... عشرة آلاف بذرة لكل واحدٍ منكم. هل فهمتم؟ إذا لم تفعلوا ذلك، فسأُسلِّمكم على الفَور إلى الشرطة. وسوف يقطَعون رءوسكم في غضون وقتٍ قصير.»

مع أشعة الشمس الساطعة عليهم بالكامل، انطلقَت الضفادع الشجرية نحو أحواض الزهور.

لحُسن الحظ، كانت البذور تتساقط كالمطر في ذلك اليوم، وكان النحل يطنُّ حولهم بهمَّة؛ لذلك جلسَت الضفادع القرفصاء، وبدَءوا بالتقاطها بأسرعِ ما يمكنهم. وأثناء عملهم، تحدَّث بعضهم إلى بعض:

«يا بيتشكو ... هل تعتقد أن بإمكانك جمع عشرة آلاف بذرة؟»

«لا يبدو ذلك ممكنًا ما لم أسرع بالعمل ... جمعتُ ثلاثمائة بذرة فقط حتى الآن.»

«قال الرئيس مائة في البداية، أليس كذلك؟ أتمنى لو أنه ترك الأمر عند هذا الحد.»

«ثم قال ألف بذرة. لا يزال بإمكاننا تحقيق ذلك، أليس كذلك؟»

«بلى، بإمكاننا.»

«لكن أتساءل ما الذي جعلني أشرب هذا القَدْر من الويسكي؟ ...»

«كنتُ أتساءل عن الشيء نفسه، أيضًا. كان الأمر كما لو كانت جميعًا مربوطة معًا على نحوٍ متتالٍ؛ الكوب الأول أدَّى إلى الثاني، والثاني إلى الثالث، وهلُمَّ جرًّا. بالنسبة لي، كان هناك ثلاثمائة وخمسون كوبًا مربوطةً جميعًا معًا.»

«أعلَم. ... لكن من الأفضل أن نُسرع، وإلا فستكون هناك مشكلة.»

«أنتَ على حق.»

وهكذا استمرُّوا في جمع البذور، ومع حلول الغسَق كانوا قد حقَّقوا هدفهم. بعد ذلك عادوا بالبذور إلى منزل الرئيس.

كان الرئيس مسرورًا.

وقال لهم: «مم، جيد. حسنًا ... بإمكان كلٍّ منكم تناوُل كوبٍ واحد من الويسكي المستورَد، ثم الذهاب للنوم.»

هذا جعل الضفادع تشعُر بالسرور أيضًا. شرب كل واحد منهم كوبًا مليئًا بالويسكي، ثم ذهبوا جميعًا للنوم وبدَءوا بالشخير.

عندما استيقظوا في صباح اليوم التالي، كان يُوجد ضفدع ثورٍ آخر يتحدث مع الرئيس:

«في كلتا الحالتَين، عليكَ أن تفعل ذلك على نحوٍ بارع، هذا إذا كنت ستفعله من الأساس. وإلا فسوف يضحك الناس عليك.»

«أعلَم. ما رأيك ... ما رأيك في ٩٠ ين لكل ضفدع؟»

«مم. أعتقد أن ذلك سيكون مناسبًا.»

«أعتقد ذلك أيضًا. (هيه ... لقد استيقظتم، أليس كذلك؟) الآن، ما العمل الذي سأكلفهم به اليوم؟ تبدو الأمور سيئة، كما تعلم؛ لقد مرَّ وقتٌ طويل بدون أي طلبات للعمل.»

«نعم، أعلم تمامًا كيف تبدو الأمور.»

«أعتقد أنني سأكلفُهم بحمل الحجارة اليوم. اسمعوا يا جماعة ... اليوم أريد كل واحد منكم أن يذهب ويعود بثلاث أوقيات من الحجارة. لا ... إن ثلاث أوقياتٍ قليلة جدًّا.»

قال ضِفدع الثور الآخر: «إن طنًّا واحدًا ملائمٌ أكثر.»

«إنك على حق؛ ملائمٌ أكثر بكثير. اسمَعوني، اليوم أريد أن يجمع كل واحد منكم طنًّا من الحجارة. إذا لم تفعلوا ذلك، فسأسلمكم إلى الشرطة على الفور. إن قاضي الدائرة القضائية يأتي إلى هنا دائمًا، كما تعلمون؛ لن تكون هناك مشكلة على الإطلاق في قطع رءوسكم.»

أصبحت الضفادع الشجرية شاحبين بشدة. لا عجب في ذلك أيضًا؛ فإن طنًّا من الحجارة كان سيكون ثقيلًا جدًّا حتى على الإنسان، فما بالك بالنسبة للضفدع الشجري، الذي لا يزن شيئًا تقريبًا؛ حوالي ثلث أوقية على الأكثر؟ كانت فكرة حمل كل واحد منهم لهذا القَدْر من الحجارة في يومٍ واحد كافيةً لأن تُصيبَهم بالدُّوار، وتجعلهم ينهارون وهم يُصدِرون نقيقًا يائسًا.

أخرج ضفدع الثور قضيبَه الحديدي بسرعة، وراح يضربهم به على رءوسهم، حتى ذهبوا في النهاية للعمل وهم يشعُرون كما لو أن العالم كله كان قد تحول إلى اللون الأزرق، وأخذ يدور ويدور. حتى الشمس بدت لهم وكأنها مثلثة الشكل، وتدور بجنون في زاويةٍ بعيدة من السماء.

عند وصولهم إلى المكان الذي كان يُوجد فيه كثير من الحجارة، ربطوا حبلًا بحجر لا يزيد وزنه عن أربع أوقيات، وبكثير من الرفع والتأرجح بدءوا بشَدِّه. استمَروا بالعمل إلى أن تصبَّب العرق من كامل أجزاء أجسادهم، وشعَروا بدُوارٍ شديد في رءوسهم، وكل شيء حولهم لاح لهم باللون الأسود. رغم ذلك، تمكَّن الثلاثون ضفدعًا من سَحْب الحجَر الذي يزن أربع أوقيات إلى مكان الرئيس بحلول وقت الظهيرة. حينئذٍ كانوا يترنَّحون من الإرهاق، وبالكاد استطاعوا الوقوف أو حتى المحافظة على عيونهم مفتوحة، ومع ذلك، إذا لم يُحضِروا ١٩٩٠ رطلًا آخر — ١٢ أوقية من الحجارة في نهاية النهار — فسوف تُقطع رءوسهم جميعًا!

في وقت وصولهم كان الرئيس نائمًا ويشخر في منزله، لكنه تمكَّن من الاستيقاظ والتجول في الخارج لإلقاء نظرة على ما يحدث. كانت بعض الضفادع الشجرية تجلس، وهي تتأوَّه، على الحَجَر الذي قد أحضروه للتو، وضفادعُ أخرى كانت مستلقيةً نائمة على الأرض. جميعهم كانت ظلالهم خضراء. بغضبٍ شديد، أسرع الرئيس إلى المنزل لجلب قضيبه الحديدي، لكن أثناء ذهابه أيقظ أحدُ الضفادع، والذي لم يكن نائمًا، الآخرين، بحيث عندما خرج الرئيس مرةً أخرى كانوا جميعهم يقفون ثانيةً على أقدامهم.

صاح الرئيس: «يا لكم من حَفنة من ...! تقصدون أن تقولوا إنكم قد استغرقتم كل ذلك الوقت حتى الآن لتحملوا فقط هذا الحجر الصغير؟ أنا لم أرَ قَط ضعفاءَ مثلكم! عجبًا، سأحمل طنًّا من الحجارة في غضون ٣٠ دقيقة، لأريكم فقط كيف يكون الأمر!»

«لكن بالنسبة لنا هذا مستحيلٌ تمامًا. نحن كنا على وشك الموت من جرَّاء حمل هذا الحجر على صِغَر حجمه.»

«يا لكم من ضعفاء! الآن، اخرجوا وأحضروا الحجارة. إذا لم يجرِ ذلك بحلول هذا المساء، فسأسلمكم للشرطة. وستفقدون جميعًا رءوسكم، أيها الحمقى.»

هنا، صرخَت الضفادع الشجرية فجأةً معًا في يأس:

«حسنًا، إذَن ... سلِّمنا إلى الشرطة، وكلما أسرعتَ كان ذلك أفضل! دعوهم يقطعون رءوسنا؛ فقد يكون ذلك ممتعًا.»

صاح الرئيس في غضب: «ماذا؟ عجبًا! أيها الحمقى، أيها الجبناء، أيها التاااااااااا ...»

فجأة، وبتعبيرٍ غريب علا وجهه، أغلق شفتَيه، غير أن الـ تاااااااا استمر. لم يخرج من حلقه على الإطلاق. لقد كان صوت مكبر الصوت الذي كان عبارة عن صدفةٍ حلزونية، الذي يعلن دائمًا عن أحدث أمرٍ يُصدِره الملك، والذي يتردَّد صداه عَبْر السماء الزرقاء.

قال الضفادع والرئيس معًا وهم يقفون منتصبين على عَجَل للإصغاء: «اسمَعوا ... إنه أمرٌ ملكي جديد!» بوضوح وهدوء كبيرَين، تردَّد صدى صوت مكبِّر الصدفة الحلزونية:

«أحدثُ أمرٍ من جلالة الملك، أحدثُ أمرٍ من جلالة الملك! فيما يتعلق بكيفية إصدار الأوامر للآخرين؛ أولًا: عند إعطاء الأوامر، اقسم وزنك على وزن الشخص المَعني بتنفيذ الأمر، وسجِّل الناتج. ثانيًا: اضرب مقدار العمل المطلوب في هذا الناتج. ثالثًا: حاوِل القيام بمقدار العمل الناتج بنفسك ولمدة يومَين. كل مَن لا يلتزم بهذه القاعدة سوف يُرسل إلى جزيرة الطيور.»

كانت فرحة الضفادع لا حدود لها. بدأ أحدهم، والذي كان يُدعى تشيكو، وكان جيدًا في الحساب، بإجراء عملية الحساب على الفور:

«دعُونا نرى ... إن وزن الأشخاص الذين تلقَّوا الأوامر يبلغ ثلث أوقية، ووزن الشخص الذي أصدر الأوامر يبلغ أربع أوقيات. اقسم الثاني على الأول وستكون النتيجة ١,٣ أوقية. مقدار العمل المطلوب يبلغ طنًّا واحدًا. إن حاصل ضرب طن في ١,٣ أوقية هو ٢٦٠٠ رطل.

حسنًا! منذ الآن وحتى الليل عليك أيها الرئيس بسحب ١٣٠٠ رطل من الحجارة إلى هنا.

هيا، الآن، إنه أمرُ صاحب الجلالة. ابدأ العمل!»

هذه المرة كان دور ضفدع الثور ليشحب لونه تدريجيًّا؛ إذ سرعان ما أصبح ظلًّا شفافًا كهرمانيَّ اللون، وأخذ جسمه يرتجف بالكامل.

أحاطت به الضفادع الشجرية واقتادوه إلى مكان وجود الحجارة. ثم ربطوا حبلًا بحَجَر يزن حوالي رطلَين وقالوا: «هيا، عليك أن تحمل ٦٥٠ رطلًا من هذه الحجارة بحلول الليلة»، وألقَوا بالحبل على كتفه.

لا بد أن الرئيس قد استسلم لمصيره؛ فقد رمى جانبًا القضيبَ الحديديَّ الذي كان يُمسِكه، ووجَّه وجهه بثبات في الاتجاه الذي كان عليه أن يسحب الحَجَر فيه. لكنه كان لا يزال يبدو غير جاد بشأن نقله بالفعل؛ لذلك قالت الضفادع الشجرية في جوقةٍ غنائية من التشجيع:

«أنت، هيا، اسحب! أنت، هيا، اسحب!»

بعد أن حفزَته صيحات الضفادع غرس الرئيس أقدامه بالأرض وأعاد غرسها خمس مرات، ثم شدَّ الحبل؛ لكن الحَجَر لم يتزحزح.

تصبَّب العرق منه وبدأ يلهث بشدة، وانفتح فمه على مصراعَيه. وبدأ العالم يبدو أمام عينَيه مظلمًا ويدور حوله.

«أنت، هيا، اسحَب! أنت، هيا، اسحَب!»

غرس الضفدع الكبير أقدامه بالأرض، وأعاد غرسها أربع مراتٍ أخرى، لكن في المرة الأخيرة طقطَقَت سيقانه ثم الْتوَت.

لم تستطِع الضفادع الشجرية منع أنفسهم من الضحك.

لكن بعد ذلك، صمتوا جميعًا بنحوٍ غريب صمتًا مطبقًا. فقد خيَّم عليهم شعور بالبؤس، غير أنني لا أعرف تمامًا كيف أصفه. ربما تعرفون ما أعني؛ إنه الشعور البائس

الذي يحدُث أحيانًا عندما تنفجر مجموعةٌ منكم بالضحك على شخصٍ ما، وفجأةً تتوقفون عن ذلك. ...

لكن في تلك اللحظة تحديدًا، عاليًا في السماء، رنَّ مكبِّر الصدفة الحلزونية ثانيةً:

«أحدثُ أمر من جلالة الملك، أحدثُ أمر من جلالة الملك! كل كائنٍ حي هو حسن النية ويستحق الرحمة. ومن الخطأ أن يكرَهَه أحد.» ثم انحسر الصوت بعيدًا مرةً أخرى، وكان يمكن سماع صداه يتردَّد عَبْر السماء: «أحدثُ أمر من جلالة الملك ...»

لذلك ركضَت الضفادع الشجرية نحو ضِفدَع الثور وقدَّمَت له بعض الماء، وجعلَت سيقانه الملتوية على استقامةٍ واحدة، ثم وجَّهَت ضرباتٍ خفيفة إلى ظهره لتُدلكه.

ذرف الضفدع الكبير دموعَ ندمٍ كثيرة.

وقال: «أيتها الضفادع الشجرية، لقد كنتُ مخطئًا. أنا لستُ رئيسكم أو أيًّا من هذا القبيل، أو لم أعُد كذلك. ففي النهاية أنا مجرَّد ضفدع. ومنذ الغد سأعمل في مجال الخياطة.»

صفَّق جميع الضفادع الشجرية فرحًا. وفي اليوم التالي انطلقوا بسعادة للعمل مجددًا، كما كانوا يفعلون دائمًا.

ربما تكون قد سمعتَها بنفسك: بعد هطول المطر، أو في اليوم الذي يلي العاصفة، أو حتى في يومٍ جميلٍ صافٍ، همهمة أصوات صغيرة في الحقول أو مخفية في أحواض الزهور:

«هيه، بيكو ... سَوِّ الأرض هناك أكثر قليلًا، ألن تفعل؟ بالطبع من الجيد فعلُ ذلك! ... هيه ... ليس من المفترض أن تزرع هنا هذا النبات، بل ذلك النبات! نعم هذا صحيح. من السهل أن تخلط بينهما؛ فكلاهما متشابهان، هه، ها-ها! ... بيتشكو ... هيه، بيتشكو! املأ تلك الحفرة الموجودة هناك. ... حسنًا؟ سأُلقي بها، ها هي قادمة! أوه، اللعنة! هيا، لنرفع جميعًا معًا الآن! ...»

الجُرَذ الناكر للجميل

في الحيز الدامس الظلام لسقف منزلٍ قديم كان يعيش جُرَذ.

في أحد الأيام، كان الجُرَذ يمشي على طول مَمَر تحت الأرض، ناظرًا حوله أثناء سيره، عندما جاء ابن عِرس مندفعًا من الاتجاه الآخر وهو يحمل كثيرًا من الأشياء التي تبدو جيدة. عندما رأى الجُرَذ، توقف للحظة وقال في عجلة:

«مرحبًا، أيها الجُرَذ! إن كثيرًا من كرات السكَّر قد سقطَت من الفتحة الموجودة في الخزانة حيث تسكُن. إذا أسرعتَ فسوف تحصُل على البعض منها أيضًا.»

تمايلَت شوارب الجُرَذ من الفرح، وانطلق مباشرةً دون أن يشكر ابن عِرس. لكن عندما وصل إلى المكان أسفل الخزانة، شعر فجأةً بشيءٍ ينخزه في ساقه، وسمع صوتًا حادًّا رقيقًا يقول:

«توقَّف! من هناك؟»

نظر الجُرَذ إلى الأسفل في ذهول، ووجد أنها كانت نملة. كان جنود النمل قد أقاموا بالفعل سلسلة متاريس حول كُرات السكَّر، وكانوا يلوِّحون مهددين بفئوسهم القتالية السوداء. كان عشرون أو ثلاثون منهم مشغولين بتفتيت كُرات السكر أو إذابتها قبل أخذها إلى مكان سكنهم. فارتجَف الجُرَذ من الخوف.

أعلنَت نملة كانت برتبة رقيبٍ أول بصوتٍ هادر: «تراجَع! هذه منطقةٌ ممنوعٌ الدخول إليها. عُد إلى المنزل.»

استدار الجُرَذ واندفع مباشرةً راجعًا إلى المكان المظلم في السقف، حيث دخل جُحره، واستلقى ساكنًا لفترة من الوقت. كان منزعجًا بشدة. فلا يمكن عمل شيءٍ حيال النمل؛ لقد كانوا جنودًا في النهاية، وقساة. لكن ما أغضَبه كثيرًا هو أن يُخدع من قِبل ابن عِرسٍ الماكر؛ فقد كان مثارًا للغيظ، كما اعتقد الجُرَذ، أنه كان عليه أن يسير كل تلك المسافة

إلى الخزانة ثم تُعيده نملة الرقيب الأول، فقط بسبب ما أخبره به ابن عِرسٍ من معلوماتٍ خاطئة. لذلك تسلل الجُرَذ من جُحره مرةً أخرى، وذهب إلى مكان إقامة ابن عِرسٍ خلف سقيفة الأخشاب.

عندما رأى الجُرَذ، قال ابن عِرسٍ الذي كان يطحن بعض الذرة بأسنانه:

«حسنًا؟ هل حصلتَ على أيٍّ من كُرات السكَّر؟»

«ابن عِرس ... أعتقد أنها صادمة تلك الطريقة التي ضلَّلتَني بها.»

«ما الذي تقصده بكلمة «ضلَّلتَني»؟ لقد بقي بعضها، بالتأكيد.»

«أوه، هذا صحيح، لكن النمل كان قد وصلوا إليه بالفعل.»

«هل وصلوا إليه، الآن؟ إنهم سريعون إلى أبعد حد، هؤلاء النمل.»

«لقد أخذوا كل الكمية. عليك أن تُعطيني تعويضًا لتضليلك إياي. نعم، تعويضًا.»

«هذا ليس خطئي. كل ما في الأمر أنك تأخَّرتَ قليلًا.»

«لا علاقة لذلك. عليك ألا تجعل الناس يثقون بك، الناس الذين هم أضعفُ منك. أريد تعويضًا!»

«أنت شخصٌ غريب، أليس كذلك؟ ... إذ تتعامل بنُكران جميل مع شخصٍ أسدى لك معروفًا. حسنًا. إذا أردتَ، فسوف أعطيك حصَّتي من كُرات السكَّر.»

«تعويض! تعويض!»

«هيا، خذها، إذَن. خذ ما يمكنك حملُه واخرج من هنا. لقد سئمتُ منك ومن تذمُّرك. خذ كل ما يمكنك حملُه واخرج.»

وفي حالة من الغضب الشديد، رمى ابن عِرس بكُرات السكَّر عليه. جمع الجُرَذ قَدْر استطاعته منها، وانحنى.

صاح ابن عِرسٍ بغضبٍ أشد: «اخرج! لا أريد ما تركتَه أيضًا. سوف أرمي به ليرقات الذباب.»

انطلق الجُرَذ مباشرةً راجعًا إلى جُحره في السقف، حيث أكل كُل كُرات السكَّر باستمتاع.

وهكذا، وجد الجُرَذ نفسه غير محبوب تدريجيًّا، وفي النهاية لم يعُد يُوجد أي شخص له علاقة به. لذلك، بسبب عدم وجود أي أحد يمكن أن يكون صديقًا جيدًا، بدأ بإنشاء علاقات مع الأعمدة، والجواريف المكسورة، والدِّلاء، والمقشَّات، وما شابه ذلك. كان صديقًا بنحوٍ خاص لأحد الأعمدة.

في أحد الأيام قال له العمود: «أيها الجُرَذ، سيحل الشتاء قريبًا. ونحن الأعمدة سوف نبدأ بالصرير من البرد قريبًا. عليك صُنع فراشٍ جيد لك قبل أن يتأخر الوقت. لحسن الحظ، يُوجد فوق رأسي كثير من الريش وغيره من الأشياء التي تركَتْها العصافير في الربيع. لماذا لا تُحضِر البعض منها وتأخذها إلى المنزل بينما الأمور على ما يُرام؟ ربما سأشعُر بقليلٍ من البرودة هناك حول رأسي، لكنني سأستطيع التعامل مع الأمر بطريقةٍ ما.»

وجد الجُرَذ أنها فكرةٌ معقولة؛ لذا في ذلك اليوم نفسه، ودون تأخير، شرَع في حَمل الفِراش إلى منزله. لكن ولسوء الحظ، كان يُوجد مُنحدرٌ شديد في الطريق، وفي الرحلة الثالثة سقط فجأةً عليه.

أصيب العمود بالذهول. فصاح باضطراب، منحنيًا في محاولة لرؤية ما حدث: «هل تأذَّيتَ أيها الجُرَذ؟ هل تأذَّيت؟»

بعد لحظة، نهضَ الجُرَذ وقد الْتَوى وجهه بالكامل وقال: «أيها العمود، أنا مصدوم فيك؛ إذ تسمح لمثل هذه الأمور أن تحدُث لشخصٍ مثلي ليس قويًّا.»

قال العمود أكثر من مرة، وهو يشعر أنه المسئول الأول عن ذلك: «آسف أيها الجُرَذ. سامِحْني!»

قال الجُرَذ مستغلًّا الوضع: «إنها ليست مسألةَ مسامحة. لو لم تكن حريصًا جدًّا على إعطائي نصيحتك، لما حصل ذلك. لهذا أريد تعويضًا. هيا ادفَع حالًا!»

«لكنك تعرف جيدًا أني لا أستطيع ذلك.»

«لا أحب أن أُستغَل من قِبل أشخاصٍ مثلك؛ لذلك أنا لن أتراجع عن موقفي. هيا، الآن، ادفَع!»

عاجزًا عن فعل أي شيء، بكى العمود بمرارة، بينما كان على الجُرَذ أن يرجع لمنزله خالي الوفاض. ومنذ ذلك الوقت، أصبح العمود يخاف بشدة من الحديث معه مرةً أخرى.

بعد ذلك وفي أحد الأيام، قدَّم الجاروف للجُرَذ نصف كعكة كان قد تركها أحدهم. وتصادَف أن الجُرَذ في اليوم التالي كان يعاني من ألم في المعدة. ولذا، كالعادة، طالبه الجاروف، ليس بأقل من مائة مرة، بتعويضٍ مقابل ذلك. فلم يكن بوسع الجاروف سوى الاشمئزاز منه بشدة، وعدم مصادقته مرةً أخرى.

في وقتٍ لاحق، أعطى الدلو الجُرَذ قطعة من صودا الغسيل، وطلب منه أن يغسل بها وجهه كل صباح. فَرِح الجُرَذ بذلك بشدة، وبدأ من اليوم التالي بغسل وجهه بها. لكن لم يمضِ وقتٌ طويل حتى سقطَت عشر شعرات من شواربه. وعندها بالتأكيد، ذهب الجُرَذ

للدلو ولأكثر من مائة مرة طالبَه بدفع تعويض له. لكن، لسوء الحظ، لم يكن لدى الدلو شواربُ ولا أي شيءٍ آخر لدفعه له، فبكى واعتذر له وهو في حَيرةٍ تامة. ومنذ ذلك الوقت لم ينطق بكلمةٍ واحدة معه.

واحدًا تلو الآخر، واجه جميع سكان المطبخ نفس المشكلة، وتعلموا تجنُّب الجُرَذ، وفي النهاية كانوا يتفادَونه على عَجَل بمجرد رؤيته.

في الواقع، كان هناك واحدٌ منهم فقط لم يكن لديه أي تواصُل بالجُرَذ. إنها مصيدة الجرذان المصنوعة من شبكةٍ سلكية.

من المفترض نظريًّا أن تلك المصائد تقف إلى جانب البشر، لكن هذه المصيدة كانت تشعُر بالضجر في الآونة الأخيرة بسبب إعلانات البشر في الجرائد التي تظهر بها صور لمصيدة مع قطة، وكلٌّ منهما توصف بأنها «يمكن التخلص منها بعد الاستخدام». هذا لا يعني أن البشر قد عاملوا من قبلُ مصيدة الجرذان بنحوٍ لائق، حتى قبل ذلك. لا، ولا لمرةٍ واحدة. فجميعهم تجنَّبوا لمسها، وكأنها شيءٌ نجس. لذلك كانت المصيدة أقل تعاطفًا مع البشر من تعاطفها مع الجرذان. ومع ذلك، فإن معظم الجرذان كانوا يخافون جدًّا الاقتراب منها.

في كل يوم كانت تناديهم بصوتٍ لطيف: «هيا، أيها الجرذان، تُوجد رأس سمكة مكاريل من أجل العَشاء الليلة. سأمسِك المزلاج بقوةٍ أثناء تناولكم لها. لا تخافوا. تعالَوا، أنا لستُ من النوع الذي يُغلِق الباب خلفكم. أنا لا أحب البشر أكثر مما تفعلون.»

لكن كان أي جرذ يقول، كما لو أن الأمر لا يهمُّ على أي حال: «ها، لن أقع في هذا الفخ»، أو «حقًّا؟ فهِمتُ ... عليَّ أن أسأل الآخرين في عائلتي عن ذلك في وقتٍ ما.»

وفي صباح اليوم التالي، كان يأتي خادم بوجه متورد ليلقي نظرة على المصيدة ويقول: «لا شيء فيها مرةً أخرى. الجرذان تعلَم بأمرها، هذه هي المشكلة. يعرفون هذا في مدرسة الجرذان. لكن دعني أجرِّبها لمدة يومٍ آخر.» وكان يغيِّر الطُّعم في المصيدة.

في إحدى الليالي كالعادة كانت المصيدة تنادي: «تعالَوا، تعالَوا، الليلة هناك قطعة من كعك السمك الطري اللذيذ. بإمكانكم فقط الحصول على الطُّعم؛ فهو آمن تمامًا. أسرعوا الآن!»

تصادَف أن الجُرَذ الذي كان يعيش في السقف مَرَّ من هناك في ذلك الوقت.

فسألها: «هل ستدَعينني حقًّا أحصل على الطُّعم؟»

قالت المصيدة: «حسنًا، مرحبًا. أنت جُرَذٌ جديد هنا، أليس كذلك؟ نعم، طبعًا ... ستحصل على الطُّعم دون أن تُحبَس بالداخل. هيا ادخل واحصل عليه.»

قفَز الجُرَذ إلى داخل المصيدة، والْتهَم كعكة السمك بأكملها، ثم قفز خارج المصيدة مرةً أخرى وقال: «كان ذلك لذيذًا جدًّا. شكرًا.»

«هل كان كذلك؟ أنا سعيدة. تعالَ ليلة الغد مرةً أخرى.»

في صباح اليوم التالي، جاء الخادم لينظر وقال غاضبًا: «اللعنة! لقد أفلَت بالطُّعم. هذا الجُرَذ ماكر. لكن الجيد في الأمر أنه دخل. حسنًا ... يُوجد سردين اليوم.» وترك نصف سمكة سردين كطُعم.

أطبقَت المصيدة على السمكة، وانتظرَت بفارغ الصبر وصول الجُرَذ.

وما إن حلَّ الظلام حتى ظهر الجُرَذ.

قال الجُرَذ للمصيدة بطريقةٍ متعالية: «مساء الخير، لقد جئتُ كما طلبتِ مني.»

تضايقَت المصيدة قليلًا، لكنها ابتلعَت غُرورَه وقالت ببساطة: «ها هو الطعام، هيا تدبَّر أمرك.»

قفز الجُرَذ داخل المصيدة، وتناول قطعة السردين، وخرج مرةً أخرى. ثم قال باستعلاء: «سآتي وآكل مرةً أخرى من أجلك غدًا.»

ردَّت المصيدة: «تبًّا!»

عندما جاء الخادم ليُلقي نظرةً في صباح اليوم التالي، ازداد غضبه.

وقال: «يا له من حيوانٍ ماكر! لكنني لا أفهم كيف يتمكَّن من الإفلات بالطُّعم كل ليلة؟ أعتقد أن هذه المصيدة قد أخذَت منه رشوة.»

صاحت المصيدة، لكن بالطبع لم يتمكَّن الخادم من سماعها: «لم أفعل أي شيء من هذا القبيل! يا لها من إهانة!» مرةً أخرى وضع بعض الطُّعم في الداخل، هذه المرة كان عبارة عن قطعة من كعكةِ سمكٍ متعفنة.

طوال اليوم كانت المصيدة غاضبة من فكرة الاشتباه بها ظلمًا.

هبط الليل. ظهر الجُرَذ وقال كما لو كان الأمر برُمَّته يُشكِّل إزعاجًا هائلًا له: «أوه، ليس من السهل القدوم إلى هنا كل يوم. وكل ذلك من أجل رأس سمكة على الأكثر. لقد اكتفيتُ. وبما أنني هنا الآن، فسوف أُسدي للمصيدة معروفًا وهو تناوُل طُعمها. ... مساء الخير أيتها المصيدة.»

كانت المصيدة تشتعل غضبًا لدرجة أن كل ما كان يمكن أن تقوله هو: «ساعد نفسك.»

قفز الجُرَذ على الفور إلى الداخل، ثم رأى أن كعكة السمك قد فسدت وصرَخ: «هذا يتجاوز الحدود! هذا الشيء عفن. كيف يمكنك فعل هذا بمخلوقٍ ضعيف مثلي؟ أريد تعويضًا. تعويضًا!»

كانت المصيدة غاضبة جدًّا لدرجة أنها لم تستطِع منع سلكها من الرجرجة والاهتزاز.

كان الاهتزاز هو الذي فعل ذلك.

بحركةٍ مفاجئة وخفة، أصبح المزلاج الذي رُبط الطعم به حُرًّا، فسقط باب المصيدة مغلقًا. لقد كان هذا هو السبب حقًّا.

جُن جنون الجُرَذ.

صرخ، قبل أن يعَضَّ السلك، وينطلق في دوائر، ويخبط على الأرض، ويصرُخ ويبكي: «كاذبة! مخادعة!» لقد كانت جلبة شديدة. لكن هذه المرة لم يكن مستعدًّا للمطالبة بتعويض. والمصيدة أيضًا، مع الألم والسخط لم تستطع فعل شيءٍ سوى الاهتزاز والارتعاش والارتجاف. واستَمَر هذا الوضع حتى الصباح.

عندما جاء الخادم بوجهه المتورِّد ليُلقي نظرة، رقَص في انتصار.

صاح: «لقد تمكَّنت منه! لقد تمكَّنت منه! لقد أمسكت به أخيرًا! يا له من حيوانٍ بغيض! حسنًا، اخرج الآن! اخرج، يا صغيري!»

ليلة المهرجان

لقد كانت ليلة مهرجان إله الجبل.

مرتديًا وشاحه الأزرق الفاتح الجديد وبحوزته خمسة عشر بنسًا كانت قد أعطتها له والدته مصروفًا، انطلق ريوجي قاصدًا المكان الذي نُصب فيه المزار المتنقل. سمع أن أحد العروض الجانبية المقام في مكانٍ قريب من هناك كان يُسمَّى «وحش الهواء»، وكان رائجًا بشدة.

كان رجل، يرتدي بنطالًا فضفاضًا وشعره طويل ووجهه مكسُو بالبثور، يقف أمام ستارة مكان العرض. وكان ينادي بصوتٍ مرتفع: «تعالَوا، تعالَوا جميعًا! تعالَوا وشاهدوا العرض!» تصادف أن ريوجي كان ينظر بذهنٍ شارد إلى الإعلان؛ لذا نادى عليه الرجل: «أيها الفتى، تفضل بالدخول! يمكنك الدفع عند الخروج.»

تقريبًا دون تفكير، وجد ريوجي نفسه عَبْر المدخل. في الداخل وجد كوسوكي وعددًا كبيرًا من الأشخاص الآخرين الذين كان يعرفهم، وكان جميعهم يُحدِّقون بتعابيرَ نصف مستمتعة ونصف جدية بما كان يُعرَض على منصَّة في المنتصف.

كان وحش الهواء مربوطًا بأعلى المنصة. كان ضخمًا ومسطحًا قليلًا ومتقلقلًا وشاحبًا، وليس له رأس أو فمٌ محدد. عندما وكَزَه صاحب العرض بعصًا، تقلَّص من هذا الجانب وتضخَّم من الجانب الآخر، وعندما وكَزَه من الجانب الآخر تقلَّص من هذا الجانب، أما عندما وكَزَه في المنتصف تضخَّم بالكامل. لم يُعجَب ريوجي بالعرض على الإطلاق، وكان يخرج من المكان بأسرعِ ما يمكن، عندما علِق قبقابه الخشبي في حُفرة في الأرض. كاد أن يسقُط، لكنه اصطدَم بقوة بشخصٍ طويل وقوي كان بجانبه. نظر لأعلى نحوه بدهشة، فرأى رجلًا ذا وجهٍ أحمرَ عريض يرتدي كيمونو صيفيًّا قديمًا مخططًا بالأبيض، ويضع

على كتفَيه رداءً غريبًا يشبه الرداء المصنوع من القش. نظر الرجل لأسفل إليه بنفس القَدْر من الذهول. كانت عيناه مستديرتَين تمامًا وكان لونهما ذهبيًّا دخانيًّا إلى حدٍّ ما.

كان ريوجي لا يزال يُحدِّق به عندما رمش الرجل بسرعةٍ فجأة، واستدار وسارع بالخروج. لحق به ريوجي. وفي طريق الخروج، فتح الرجل يدَه اليمنى الكبيرة، التي كانت مُطبَقة بإحكام، وكان بها قطعةٌ نقدية فضية من فئة عشرة بنسات. أخرج ريوجي قطعةً نقدية مماثلة، وأعطاها للشخص الذي ينتظر الدفع، وخرج ليصطدم في النهاية بابن عمه تاتسوجي. اختفَت كتف الرجل العريضة وسط الحشد.

سأل تاتسوجي بصوتٍ منخفض مشيرًا إلى الإعلان: «هل ذهبتَ إلى هذا العرض؟ يطلقون عليه اسم «وحش الهواء»، لكن الناس يقولون إنه في الحقيقة مجرد بطن بقرةٍ مليئة بالهواء. أعتقد أنك غبي لأنك دفعتَ مقابل رؤية شيء من هذا القبيل.»

كان ريوجي لا يزال يُحدِّق بشرود في الإعلان بالمخلوق الغريب الشكل المرسوم عليه عندما قال تاتسوجي: «لم أُلقِ نظرةً على المزار المتنقل بعدُ. أراك غدًا.» وانطلق وسط الحشد وهو يقفز على ساقٍ واحدة.

ريوجي، أيضًا، رحل بسرعة. كان العنب والتفاح الأخضر، المكدَّس فوق صفوف الأكشاك المصطفة على الجانبَين، يتلألآن تحت أضواء مصابيح الأسيتيلين.

مشى بينهما وهو يقول لنفسه في شرود إن الأضواء الزرقاء للمصابيح كانت جميلة، لكن ينبعث منها رائحةٌ كريهة مثل أنفاس تنين.

في المكان المخصَّص لرقصة المهرجان، كانت خمسة فوانيسَ ورقية تلقي بضوءٍ خافت. بدا أن الرقصة كانت على وشك أن تبدأ، بينما كان صنجٌ صغير يرنُّ بهدوء. مكث ريوجي هناك لبعض الوقت، إذ تذكَّر أن صديقه شويتشي كان من المقرَّر أن يأتي إلى هناك.

في ذلك الحين، سمع أصواتًا عاليةً قادمة من جهة أكشاك المرطبات التي تُوجد في الظل المُعتِم لبعض أشجار السرو، وبدأ الجميع بالركض في هذا الاتجاه. أسرع ريوجي مع البقية، وأخذ يُحدِّق من وراء ظهور الأشخاص الكبار.

كان الرجل الضخم الذي رآه منذ فترة واقفًا هناك، وشعره أشعثُ بالكامل، ويتعرض للتنمُّر من قِبل بعض شباب القرية. كان العرق يسيل من جبهته وهو ينحني لهم مرةً بعد الأخرى. كان يحاول أن يقول لهم شيئًا، لكنه تلعثم بشدة لدرجة أنه لم يستطع أن يُخرِج الكلمات من فمه.

أحد هؤلاء الشباب، والذي كان ذا شعرٍ ناعمٍ مفروق ببراعة، بدأ يرتفع صوته تدريجيًّا؛ لأنه عرف أن الناس كانوا يشاهدونه.

«أوه لا، لا يمكنك ... لا يمكن لغريبٍ أن يخدعني هكذا! هيا، أين نقودك؟ ليس لديك أي نقود، أليس كذلك؟ إذَن لماذا أكلتَهما؟ هه؟»

كان الرجل بحالةٍ مزرية وبالكاد تمتَم قائلًا: «سوف أ أ أ أحضِر لك مائة حُزمة من الحطب عوضًا عن ذلك.»

بدا الشخص الذي يُدير كشك الشاي ضعيف السمع قليلًا؛ لأن صوته كان يعلو أكثر فأكثر:

«ما هذا ... فقط قطعتا دامبلينج، أنت تقول؟ ماذا تتوقع؟ لقد كنتُ سأعطيهما لك مجانًا، لكني لا أحب الطريقة التي تتحدث بها. نعم، أنت!»

وهو يمسح عرَق جبينه كرَّر الرجل بصعوبةٍ مرةً أخرى ما قاله: «سوف أحضِر لك مائة حُزمة من الحطب. ... لذلك دَعْني أذهب.»

هذا جعل الرجل الآخر ينفجر غضبًا: «أيها الكاذب الفاسد! من يُقدِّم كل هذا الحطب مقابل قطعتَين من الدامبلينج؟ على أي حال، من أين أنت؟»

«ذ ذ ذلك شيءٌ لا أستطيع إخبارك به. دعني أذهب الآن.» كان الرجل يرمش بعينَيه الذهبيتَين ويمسح العرق بتوترٍ شديد. وكان يبدو أنه يمسح بعض الدموع أيضًا.

صرخ أحدهم: «اضربه! هيا، اضربه!»

فجأة، فهم ريوجي كل شيء. وقال في نفسه: «أعتقد ... أنه شعَر بجوعٍ شديد، وكان قد دفع مقابل عرض وحش الهواء، ثم ذهب وتناوَل قطعتَي الدامبلينج ناسيًا أنه لم يعُد بحوزته أي نقود. إنه يبكي. إنه ليس برجلٍ سيِّئ. على العكس من ذلك ... إنه رجلٌ صادق تمامًا. نعم صحيح. لذلك سوف أساعده في الخروج من هذه الورطة.»

أخرج ريوجي قطعة النقود المتبقية معه من جيبه خلسةً وأمسكها بإحكام في يده، ثم شَقَّ طريقه عَبْر الحشد بشكلٍ خفي قَدْر الإمكان، وتَوجَّه مباشرةً نحو الرجل. كان الرجل يُطأطِئ رأسه ويداه موضوعتان في خضوع على ركبتَيه، وكان يُتمتِم بشيء باهتياج.

جثم ريوجي، ودون أن يقول أي كلمةٍ وضع قطعة النقود على قدم الرجل الكبيرة داخل صندله المصنوع من القش.

جفل الرجل وحدَّق لأسفل تجاه وجه ريوجي، ثم انحنى بسرعة والتقط القطعة النقدية، ثم رمى بها بقوة فوق منضدة الكشك وصاح قائلًا:

«يا هذا، خذ نقودك! الآن دعني أذهب. سوف أحضِر الحطب فيما بعدُ. وأربعة مكاييل من الكستناء.» وما إن أنهى كلامه حتى أبعَد الناسَ بيدَيه من حوله، وجرى بسرعة كالريح.

قال الجميع: «إنه رجلٌ بري. إنه رجلٌ بري من التلال!» قبل أن يركضوا خلفه، وهم يثرثرون معًا بحماسة، لكنه كان قد اختفى بالفعل دون أن يترك أثرًا.

عصفَت الرياح فجأة، فتمايَل شجر الأرز الأسود الكبير، وطارت ستائر كشك الشاي المصنوعة من الخيزران لأعلى، وانطفأَت الأضواء هنا وهناك.

عندئذٍ بدأ الناي يعزف إيذانًا ببدء رقصة المهرجان، لكن عوضًا عن الذهاب لمشاهدتها، توجَّه ريوجي مسرعًا نحو المنزل على طول المسارات البيضاء المُعتِمة بين حقول الأرز. كان في عَجلة من أمره ليُخبر جَدَّه عن رجل التلال البري. في ذلك الحين كانت كوكبة الثريَّا تسطع بشكلٍ خافت عاليًا في السماء.

عند عودته إلى المنزل، تجاوَز الإسطبل ووجَد جَدَّه وحيدًا، يطبخ بعض فول الصويا على نار الموقد المكشوف. جلس ريوجي بسرعةٍ أمامه، وأخبره بكل ما حدث. في البداية كان جَدُّه يستمع بهدوء، يراقب وجه الصبي وهو يتحدث، لكن عندما وصل إلى النهاية انفجر ضاحكًا.

ضحك قائلًا: «أوه نعم، هذا رجلٌ بري من التلال، بالفعل. هؤلاء الرجال صادقون جدًّا. كنتُ كثيرًا ما ألتقي بهم في التلال في الأيام الضبابية. لكنني متأكد من أنه لم يسبق لأحدٍ أن سمع بأن أحد هؤلاء الرجال قد ذهب لمشاهدة مهرجان من قبلُ.» ثم ضحك مرةً أخرى. وقال: «أو ربما جاءوا من قبلُ دون أن يلاحظ أحد، أليس كذلك؟»

«جَدي، ماذا يفعلون هناك؟»

«حسنًا، يقولون إنهم يصنعون مثلًا مصايد ثعالب باستخدام أفرع الأشجار. إنهم يَثْنون فرعًا سميكًا كهذا ثم يربطونه بفرعٍ آخر، ثم يُعلِّقون سمكة أو ما شابه من النهاية بحيث عندما يأتي ثعلب أو دُب ليأكلها، يرتد الفرع لأعلى مرةً أخرى ويقتله.»

في تلك اللحظة كان هناك صوت ارتطامٍ شديد وجلبة عالية في الخارج، واهتَز المنزل بأكمله كما لو حدث زلزال. وجد ريوجي نفسه متشبثًا بشدة بجَده. وهُرع الرجل العجوز، الذي شحَب بشدة، إلى الخارج ومعه مصباح.

تَبِعه ريوجي. انطفأ ضوء المصباح تقريبًا على الفور، لكن ذلك لم يكُن مهمًّا؛ فقد كان القمر في يومه الثامن عشر يرتفع بصمتٍ فوق التلال المظلمة شرقًا.

وهناك، في الساحة المكشوفة أمام المنزل، كانت تُوجد كَومةٌ ضخمة من الحطب السميك ملقاة على الأرض. كانت قطعًا ضخمة، قد كُسرَت بقوة، مع جذور وفروعٍ سميكة لا تزال مرتبطة بها. حدَّق فيها الجد بدهشة لبعض الوقت، ثم فجأةً صفَّق بيدَيه وضحك.

«لقد أحضَر لك رجل التلال البري بعض الحطَب. وأنا كنتُ أعتقد أنه سيعطيها لذلك الشخص في المهرجان. الرجل البري يعرف ما الذي يفعله!»

كان ريوجي يتقدم لإلقاء نظرةٍ أفضل على الحطب عندما انزلق فجأةً على شيء وسقط. بالنظر عن قُرب، وجد أن الأرض كانت مليئةً بحبَّات الكستناء اللامعة.

صاح وهو ينهض مرةً أخرى: «جدي! لقد أحضر الرجل الكستناء أيضًا!»

قال جَدُّه مندهشًا: «حسنًا! لقد تذكَّرها أيضًا! لا يمكننا قَبول كل هذا. في المرة القادمة عندما أذهب إلى التلال سآخذ معي شيئًا ما وأقدِّمه له. أتوقع أنه يرغب في شيء يرتديه أكثر من أي شيءٍ آخر.»

فجأةً شعر ريوجي بشعورٍ غريب كما لو كان يريد البكاء.

«جَدي، أشعُر بالأسف تجاهه. إنه صادقٌ جدًّا، أليس كذلك؟ أوَدُّ أن أقدِّم له شيئًا لطيفًا.»

«نعم. في المرة القادمة، ربما، سوف آخذ له معطفًا مُبطَّنًا. فالرجل البري قد يفضِّل معطفًا سميكًا مبطنًا على معطفٍ ناعم في فصل الشتاء. وسوف آخذ له بعض قطع الدامبلينج.»

صاح ريوجي: «لكن ذلك لا يكفي ... فقط ملابس ودامبلينج! أريد أن أقدِّم له شيئًا يجعله يبكي ويرقص في المكان فرحًا، شيئًا ما جميلًا جدًّا لدرجة تجعله يعتقد أنه في الجنة.»

التقط جَدُّه المصباح المطفأ.

وقال: «مم. هذا إذا استطعنا أن نجد شيئًا مثل هذا. تعالَ، إذَن، دعنا نذهب إلى الداخل ونتناول فول الصويا. لن يمضيَ وقتٌ طويل حتى يعود والدك قادمًا من المبنى المجاور.» وقاده إلى الداخل.

لم يقل ريوجي شيئًا، لكنه نظر إلى القمر الأزرق الباهت غير المستدير بالكامل.

وكانت الرياح تعصف بشدة في التلال.

حجر النار

كانت الأرانب البرية مرتدية بالفعل ملابسها القصيرة ذات اللون البني.

كان العشب الطويل، على امتداد الأرض المكشوفة، يلمع تحت أشعة الشمس، وهنا وهناك كانت تُزهِر أزهار فاتحة اللون على أشجار البتولا. وكانت رائحة العطر تفوح من المكان بأكمله.

قال هوموي، الأرنب البري الصغير، وهو يقفز بسعادة: «مم، ما أجمل رائحة المكان! مم، إنها رائعة. إن زنابق الوادي نضرة جدًّا.»

هبَّ نسيم، وأصدرت زنابق الوادي حفيفًا عندما تلامسَت معًا أوراقها وأزهارها التي على شكل جرس.

كان هوموي فرحًا جدًّا، فراح يقفز فوق العشب دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه. ثم توقف للحظة وقال مبتهجًا وهو يطوي كفيه الأماميتَين: «إن هذا شبيه بالقفز فوق مياه النهر في الربيع.»

كان قد وصل، في واقع الأمر، إلى ضفة جدولٍ صغير. كانت المياه الباردة تُهمهِم إلى نفسها وهي تتدفق، وكان الرمل يلمع في القاع بالأسفل.

أمال هوموي رأسه جانبًا وقال محدثًا نفسه: «الآن، هل أقفز بطول هذا الجدول؟ بالطبع أستطيع فعل ذلك بسهولةٍ تامة. لكن بطريقةٍ ما العشب على الجانب الآخر لا يبدو جيدًا جدًّا.»

في تلك اللحظة، سمع صوت صيحةٍ عالية تصِرُّ وتُهمهِم آتيةً من أعلى الجدول، وإذا بشيءٍ مُسْوَد قليلًا وكثيف الشعر وأشبه بطائر يأتي مرفرفًا بجناحَيه ويصارع في التيار.

اندفع هوموي نحو الضفة وراح يراقب باهتمام إلى أن أصبح هذا الشيء بمحاذاته. لقد كان طائرًا — طائر قُبَّرة صغير السن ونحيفًا، في الواقع — جرَفَه التيار معه. دون تردُّد

قفز هوموي في الماء وأمسكه من كفيه الأماميتَين. لكن ذلك جعل الطائر يخاف أكثر، وفتح منقاره الأصفر على مصراعَيه وصرخ حتى ظن هوموي بأنه سيُصاب بالصَّمَم. وبيأس، راح يخبط الماء برجلَيه الخلفيتَين.

قال هوموي وهو ينظر في وجه طائر القُبَّرة: «كل شيء على ما يُرام، على ما يُرام!» لكن ذلك سبَّب له صدمةً كبيرة لدرجة أنه كاد أن يُفلِته؛ فقد كان وجهه متغضِّنًا بالكامل، وكان منقاره كبيرًا جدًّا بالنسبة لحجمه، والأسوأ من ذلك أنه بدا أشبه إلى حدٍّ كبير بوجه السحلية.

لكن الأرنب الصغير كان حازمًا ولم يدَعْه يُفلِت من بين كفَّيه. كان فمه ملتويًا من الخوف، لكنه كبح خوفه بقوة، ورفع طائر القُبَّرة عاليًا خارج الماء.

سحبَهما التيار للأمام دون توقُّف. غاصت رأس هوموي مرتَين تحت سطح الماء الذي بلع كثيرًا منه، لكنه لم يُرخِ قبضته.

بعد ذلك، وعند منعطف للجدول شاهد غُصن صفصافٍ صغيرًا يصطدم بسطح الماء.

غرز هوموي أسنانه في الغصن على نحوٍ عميق جدًّا لدرجة أن لُبَّه الأخضر انفتح. ثم وبكل قوَّته ألقى بالطائر الصغير على العُشب الناعم للضفة، وبقفزةٍ واحدة أصبح هو خارج الماء أيضًا.

سقط طائر القُبَّرة على العشب ورقَد يرتجف، وكان بياض عينَيه باديًا.

كان هوموي يترنَّح من شدة التعب، لكنه أجبر نفسه على المضي قُدمًا، فانتزَع غصنًا من أزهار الصفصاف الباهتة وغطَّى الطائر الصغير به. لكن عندما رفع الطائر وجهه الرمادي كما لو كان ليشكره، أطلق هوموي صرخةَ خوف وفرَّ مسرعًا.

في تلك اللحظة جاء شيءٌ مندفع من السماء كالسهم. وقف هوموي ونظر للخلف. لقد كانت أم طائر القُبَّرة. لم تنطق الأم بأي كلمة، واكتفَت بأن قرَّبَته منها قَدْر الإمكان وهي ترتعش طوال الوقت. اطمأنَّ هوموي على الوضع، وجرى مباشرةً باتجاه منزله.

أصيبَت والدة هوموي، التي كانت داخل المنزل تحزم مجموعة من جذور العشب الأبيض، بالذهول عندما رأته. فقالت وهي تُنزِل صندوق الدواء من أحد الرفوف: «يا إلهي، هل حدث مكروه؟ إنَّ وجهك شاحبٌ بنحوٍ مرعب.»

قال هوموي: «أمي، لقد أنقذتُ طائرًا صغيرًا كثيف الريش من الغرَق.»

سألت الأم وهي تُخرِج جرعة من مسحوقٍ متعدد الأغراض وتُناوِله إياه: «طائرٌ صغيرٌ كثيف الريش؟ تقصد طائر قُبَّرة؟»

قال هوموي وهو يأخذ الدواء منها: «أعتقد ذلك. يا إلهي، أشعُر بدُوار في رأسي. أمي ... أشعُر بزغللة في عينيَّ. ...» وسقط على الأرض. فقد أصيب بحمَّى شديدة.

بحلول الوقت الذي استعاد فيه هوموي عافيتَه إلى حدٍّ كبير مرةً ثانية — بفضل جهود والدَيه والدكتور أرنب — كانت زنابق الوادي تحمل على أغصانها توتًا أخضر صغيرًا.

في إحدى الأمسيات الهادئة الصافية، حاول هوموي الخروج لأول مرة.

عندما نظر إلى أعلى، شاهد شيئًا يشبه نجمًا أحمر ينطلق بنحوٍ قُطري عَبْر السماء الجنوبية. كان يراقبه باستغراب، عندما، وبنحوٍ غير متوقع، كانت هناك رفرفةُ أجنحة وهبط طائران لأسفل. بعنايةٍ وضَع أكبرُهما، وكان أنثى، شيئًا مستديرًا وأحمر ولامعًا على العشب، ثم ضمَّت جناحَيها معًا بوقار وقالت:

«سيد هوموي، أنا وطفلي مدينان لك بدَين لا يمكننا سَدادُه أبدًا.»

ألقى هوموي نظرةً فاحصة على وجههما عَبْر ضوء الشيء الأحمر وسأل: «هل أنتما طائرا القُبَّرة اللذان التقيتُ بهما قبل وقتٍ قليل؟»

قالت القُبَّرة الأم: «أجل. أنا لا أعرف كيف أشكرك لإنقاذك حياة ابني. سمعنا أنك مرضتَ بسبب ما قمتَ به من أجله. لكن أتمنى أن تكون بصحةٍ أفضل الآن.»

انحنت له بشدة، ثم تابعَت حديثها: «كنا نطير في أنحاء هذه المنطقة كل يوم في انتظار خروجك مرةً أخرى. هذه هديةٌ من مِلكنا.» ووضعَت ذلك الشيء الأحمر اللامع أمام هوموي، وفكَّت غطاءه، الذي كان منديلًا رقيقًا جدًّا لدرجة أنه بدا مثل الدخان. كان بالداخل جوهرةٌ مستديرة الشكل تمامًا بحجم حبة كستناء حصان، يشعُّ منها وهجٌ أحمر أشبه بألسنة اللهب.

«هذه جوهرةٌ تُعرَف باسم حجر النار. طلَب مني المِلك أن أخبركَ بأنها ستصبح أكثر جمالًا إن اعتنيتَ بها جيدًا. أتمنى أن تقبلَها.»

ابتسم هوموي. وقال: «أنا لا أستحق هذه الجوهرة يا سيدة قُبَّرة. من فضلك خذيها معكِ. إنها جميلةٌ جدًّا ويكفي فقط أن أنظر إليها. سأذهب لأزورِكِ عندما أريد رؤيتها.»

قالت القُبَّرة: «لا، أتوسل إليك أن تقبلها. كما ترى، إنها هديةٌ من ملكنا؛ إذا لم تقبلها، فسنُواجه مشكلة.» ثم استدارت نحو ابنها الصغير. وقالت له: «هيا يا بُني، قل وداعًا. انحنِ بشكلٍ لائق، الآن. حسنًا، يجب أن نذهب.»

وبانحناءتَين أو ثلاثٍ أخرى، انطلقَت القُبَّرة الأم وابنها على عَجَل.

التقط هوموي الجوهرة ونظر إليها. وبالرغم من أنها بدت تعجُّ بالحياة بألسنتها النارية الحمراء والصفراء، فإنها في الواقع كانت باردةً وشفافةً بشدة. عندما قرَّبها من

عينَيه ونظر فيها، لم تكن هناك ألسنةُ لهب، واستطاع أن يرى درب التبانة كما لو كان داخل قطعة من الكريستال. وعندما أبعدَها عن عينَيه اشتعلَت ألسنة اللهب الجميلة مرةً أخرى.

حاملًا الجوهرة بكفَّيه برفق، دخل هوموي إلى المنزل، وأخذها مباشرةً إلى والده. خلع السيد أرنب نظَّارته ليفحص الجوهرة بعناية.

وقال في النهاية: «هذه هي الجوهرة الشهيرة المعروفة باسم حجر النار. ضع في اعتبارك أنها ليست جوهرةً عادية. يقولون إن طائرَين وسمكة هم الوحيدون الذين تمكَّنوا من الاحتفاظ بها طوال حياتهم. سيكون عليك أن تعتني بها جيدًا كي لا تفقد ضوءَها.»

قال هوموي: «لا تقلق يا أبي. لن أدع ذلك يحدث أبدًا. لقد قالت القُبرة الأم هذا الكلام نفسه أيضًا. سأنفخ فيها مائة مرة كل يوم وألِّعها مائة مرة بريشة طائر حسون تفاحي.»

أمسكَت السيدة أرنبة أيضًا الجوهرة بكفَّيها وحدَّقَت بها لفترةٍ طويلة. ثم قالت: «يقولون إن هذا الحجر يتلف بسهولة جدًّا. ومع ذلك، عندما كان الوزير النسر الراحل مسئولًا عنها، حدث ثَورانٌ بركانيٌّ كبير وأخذها معه بينما كان يتجول لمساعدة الطيور على الهروب بأمان. وبالرغم من أنها قد ارتطمَت بقِطعٍ من الصخور وحتى وقعَت في جدول من الحمَم البركانية الشديدة السخونة، فإنها لم تتعرَّض للخدش أو تُصبِح مُعتِمة؛ لا، في الحقيقة لقد أصبحَت أكثر جمالًا من ذي قبل.»

قال السيد أرنب: «هذا صحيح. إنها قصةٌ معروفة. أنا متأكد من أنك ستكون أيضًا رجلًا عظيمًا مثل الوزير يا هوموي. لكن يجب عليك أن تحرص بشدة على ألَّا تكون قاسيًا مع الآخرين.»

فجأة، شعر هوموي بالتعب والنُّعاس.

قال بهدوء وهو مستلقٍ على سريره: «لا تقلق. أعدُك بأنني سأكون رجلًا عظيمًا يا أبي. أعطني الحَجَر الآن ... أريد أن أُمسِك به أثناء نومي.»

أعطَته السيدة أرنبة إياه. فضمَّه إلى صدره، ونام على الفور.

كانت الأحلام التي راودَته في تلك الليلة جميلة جدًّا — إذ رأى نيرانًا صفراء وخضراء تتوهج في السماء، وقد تحوَّل الريف بأكمله إلى بحرٍ من العشب الذهبي، وكانت جحافل من طواحين الهواء الصغيرة تطير عبر السماء وهي تطنُّ بصوتٍ خافت مثل النحل، وكان الرداء الفضي اللامع للوزير النسر، الحكيم واللطيف، يتحرك كالموج وهو يتفحص المكان — مما جعله يصيح أكثر من مرة من فرحه الشديد: «مرحى! مرحى!»

في صباح اليوم التالي، استيقظ هوموي حوالَي الساعة السابعة، وقبل أن يفعل أي شيءٍ آخر ألقى نظرةً على الجوهرة. لقد كانت حتى أجمل مما كانت عليه في الليلة الماضية.

أمعَن النظر فيها. وقال في نفسه متعجبًا: «انظر، انظر! هناك فوَّهة بركان! إنها تثور! تثور! يا لها من متعة! إنها أشبه بالألعاب النارية. يا إلهي، إن النيران تخرج منها. لكنها الآن مقسومة قسمَين. أوه، هذا جميل! ألعابٌ نارية، ألعابٌ نارية! إنها تبدو الآن مثل البرق تمامًا. عجبًا، لقد بدأَت بالتدفق. لقد تحوَّلَت الآن تمامًا إلى اللون الذهبي. مرحى! عجبًا، لقد ثارت مرةً أخرى!»

كان السيد أرنب قد خرج من المنزل بالفعل. وجاءت السيدة أرنبة مبتسمة وهي تحمل بعض جذور العشب الأبيض وثمار شُجيرات الورد الخضراء الجميلة.

قالت مخاطبةً هوموي: «أسرِع، الآن. اغسِل وجهك، وبعد ذلك يُمكنكَ محاولة القيام بقليل من التريُّض اليوم. الآن دعني ألقي نظرة. حسنًا الآن، إن ذلك جميل بالفعل. هل لديك مانع بأن أتابع النظر أثناء اغتسالك؟»

قال هوموي: «بالطبع لا. هذا كنز عائلتنا؛ لذا فهو لكِ أيضًا يا أمي.» ثم قام وذهب ليجمع ست قطراتٍ كبيرة من الندى الموجود على أطراف أوراق زنابق الوادي النامي خارج مدخل منزلهم، وغسل بها وجهه جيدًا.

وبعد أن تناول الإفطار، نفخ هوموي في الجوهرة مائة مرة، ثم لَّعها بريشة حسون تفاحي مائة مرة. وبعد ذلك لفَّها بعناية بريش صدر حسون تفاحي، ووضَعها في صندوق العقيق الذي كان يحتفظ فيه بتلسكوبه وأعطاه لوالدته لتحفظه له. ثم ذهب خارج المنزل.

كان النسيم يهب، وكان الندى فوق العشب يتساقط بقطراتٍ كبيرة. وكانت أزهار الجرس تعزف نغماتها الصباحية: دينج-دونج، دينج-دونج، دينج-دينج-ا-دونج. ...

أخذ هوموي يقفز حتى توقف أخيرًا تحت شجرة بتولا.

في تلك اللحظة، جاء من الاتجاه العكسي حصانٌ بري عجوز. كان هوموي خائفًا منه بشدة، وكان على وشك الرجوع، لكن الحصان انحنى له بأدب وقال له:

«أنت السيد هوموي، على ما أعتقد؟ سمعتُ أن حجر النار في حوزة يدَيك الطيبتَين وأردتُ أن أهنئك. يقولون إنه قد مرَّت ١٢٠٠ سنة منذ آخر مرة أعطيتَنا هذه الجوهرة نحن الحيوانات. عجبًا، حتى هذا الكائن العجوز الذي أمامك قد بكى هذا الصباح عندما سمع الخبر.» وانهمرَت دموعٌ غزيرة من عينَي الحصان.

شعَر هوموي بالإحراج، لكن الحصان بكى بشدة لدرجة أنه وجد نفسه في النهاية قد بدأ يُخنفِر قليلًا.

قال الحصان وهو يُخرِج منديلًا ذا لونٍ أزرقَ فاتحٍ بحجم مفرشِ طاولةٍ صغير ويمسح دموعه به: «نحن جميعًا في غاية الامتنان لك. من فضلكَ اعتنِ جيدًا بصحتك.» وانحنى بأدب مرةً أخرى وانطلَق في الاتجاه الآخر.

عاوَد هوموي المشي، وهو شارد الذهن، وكان نصفَ مسرور ونصفَ فزع مما قد حدث، إلى أن وصل إلى شجرة بلسان. كان يجلس تحت الشجرة سنجابان صغيران يقضمان كعكة أرز بيضاء لزجة، لكن عندما شاهدا هوموي قادمًا، تصلبا في مكانهما في ذعر، وبسرعة عدَّلا من هندامهما ورمشا بعينَيهما أثناء محاولتهما بلع الكعكة اللزجة.

قال هوموي مُرحبًا بهما كالمعتاد: «مرحبًا، أيها السنجابان.» لكنَّ السنجابَين وقفا هناك جامدَين تمامًا، ولم يتمكنا من النطق بأي كلمة.

قال هوموي بانزعاج: «أيها السنجابان، دعونا نذهب إلى مكانٍ ما ونلعب مرةً أخرى اليوم، ما رأيكما؟» لكنهما اكتَفيا بالتحديق أحدهما في الآخر بعيونٍ مستديرة كبيرة كما لو كانت الفكرة شائنة تمامًا، ثم فجأةً استدارا وركضا بأسرعِ ما يمكن.

أصيب هوموي بالصدمة. وعاد للمنزل في حالة ضيقٍ شديد، وقال للسيدة أرنبة: «أمي، هناك شيءٌ غريب في الطريقة التي يتصرَّف بها الجميع. فالسنجابان ... لن يكون لهما أي علاقة بي.»

قالت السيدة أرنبة بابتسامة: «أنا لستُ مندهشة من ذلك. سيشعُران بالخجل منك لأنك قد أصبحتَ مهمًّا جدًّا. لذلك عليك أن تحرص جدًّا على ألا تقوم بأي شيءٍ مخجل.»

قال هوموي: «لا تقلقي يا أمي، لن أفعل. إذَن، هل هذا يعني أنني أبدو كجنرالٍ عظيم؟»

قالت السيدة أرنبة وهي تبدو سعيدة: «حسنًا ... نعم، إن الأمر كذلك.»

قفز هوموي فرحًا.

«مرحى، مرحى! إذَن هم جميعهم جنودي الآن! لن أخاف أبدًا من الثعلب العجوز مرةً أخرى. أمي ... أعتقد أنني سأجعل من السنجابَين لواءَين. والحصان ... دعينا نرى، يمكن للحصان أن يكون كولونيلًا.»

قالت والدتُه بابتسامة: «نعم، لمَ لا؟ لكن يجب ألَّا تُصبِح متعاليًا جدًّا، كما تعلَم.»

قال هوموي: «لا تقلقي. أمي، سأذهب للخارج لبعض الوقت.»

ودون تأخير، قفز إلى الخارج حيث الحقول. وهناك التَقى الثعلب العجوز الشرير الذي جاء مندفعًا أمامه مباشرة.

ارتجف هوموي قليلًا، لكنه استجمع شجاعتَه وصاح: «أيها الثعلب! توقَّف! أنا جنرال الآن، ألا تعرف ذلك؟»

نظر الثعلب حوله وجَفَل وقال وقد أصبح شاحبًا: «عجبًا، يا إلهي، نعم! هل هناك ما يمكنني فعله من أجلك؟»

قال هوموي على نحوٍ مهيب قَدْر الإمكان: «كنتَ دائمًا تُخيفني، أليس كذلك؟ حسنًا، من الآن فصاعدًا أنت تحت إمرتي.»

وضع الثعلب إحدى كفوفه على رأسه كما لو أنه على وشك أن يُغمى عليه، وأجاب بلطف: «أنا حقًّا أعتذر لك بشدة. ألا تسامحني من فضلك؟»

تهلَّل وجه هوموي من السرور. وقال: «إذَن كمكافأة لك، سأعفو عنك. بإمكانك أن تكون ملازمًا عندي. أتمنى أن تكون مفيدًا.»

أخذ الثعلب يدور في دوائرَ أربع مرات؛ فقد كان مسرورًا جدًّا.

«شكرًا لك، شكرًا جزيلًا لك. سأقوم بأي شيءٍ تريده. هل أذهب وأسرق لك قليلًا من الذرة الحلوة؟»

«لا، لن يكون ذلك جيدًا. يجب ألَّا تقوم بأعمال كهذه.»

قال الثعلب وهو يخدش رأسه من الارتباك: «حسنًا يا سيدي. لن أفعل ذلك مرةً أخرى أبدًا. سأنتظر أوامرك في كل شيء.»

«جيد. سأستدعيك عندما أريد منك شيئًا؛ لذا لا تبتعِد كثيرًا.»

أخذ الثعلب يلفُّ مرةً أخرى، ثم انحنى وهروَل مبتعدًا.

كان هوموي سعيدًا بشدة. فأخذ يركض جيئةً وذهابًا عَبْر الريف المكشوف وهو يتحدث إلى نفسه ويضحك، ويفكِّر بكل أنواع الأشياء الجميلة إلى أن نزلَت الشمس، مثل مرآةٍ مكسورة، خلف أشجار البتولا البعيدة، وأسرع بالعودة للمنزل.

كان السيد أرنب قد وصل بالفعل للمنزل، حيث يُوجد في ذلك المساء كل أنواع الطعام اللذيذ. في تلك الليلة حلَم هوموي أحلامًا رائعة مرةً أخرى.

في اليوم التالي، وبناءً على طلب والدته، أخذ هوموي سلة تَذْرية وخرج لقطف ثمار زنابق الوادي.

تمتَم في نفسه أثناء عمله: «حقًّا! ليس من الملائم أن يقوم جنرالٌ بمثل هذا النوع من الأعمال. أنا متأكد أنه إذا شاهدَني أحدٌ فسوف يسخر مني. أتمنى أن يأتي الثعلب.»

لكن حينها شعر بأن الأرض تتحرَّك تحت قدمَيه. لقد كان خلدًا يحفر ببطء حفرةً في الأسفل هناك ليتوارى عن هوموي.

صاح هوموي: «أيها الخلد، أيها الخلد، يا سيد خلد! هل تعلم أنني رجلٌ عظيم الآن؟»

قال الخلد من داخل الحفرة: «هل أنت السيد هوموي؟ نعم، أنا أعلم ذلك جيدًا.»

قال هوموي: «فهمتُ. لا بأس إذَن.» ثم أضاف بكل عظمة: «بإمكانك أن تكون رقيبًا أوَّل لديَّ. لكن سيكون عليك أولًا أن تقوم بعملٍ صغير من أجلي.»

سأل الخلد بعصبية: «عجبًا، بالطبع. وماذا قد يكون نوع هذا العمل؟»

«أريدك أن تجمع بعضًا من ثمار زنابق الوادي.»

قال الخلد من داخل الحفرة وهو يشعر بشدة بالحرج: «أنا آسفٌ جدًّا، لكنني لا أجيد العمل في وجود الضوء.»

صاح هوموي بغضب: «حسنًا جدًّا، إذَن. لن أطلب منك شيئًا ثانيةً. لكن انتظر فقط!»

قال الخلد وهو ينحني بشدة: «أنا حقًّا آسف جدًّا. التعرض الكثير لضوء الشمس يعني موتي، كما تعلم.»

قال هوموي وهو يلوِّح بكفَّيه الأماميتَين بانفعالٍ شديد: «حسنًا. حسنًا. اصمت الآن وارحل.»

لكن في تلك اللحظة تمامًا، خرج خمسة سناجب متسللين من تحت شجرة بلسان. خفَضوا رءوسهم في خضوع وقالوا:

«من فضلك سيد هوموي، ألا تسمح لنا بجمع ثمار زنابق الوادي من أجلك؟»

قال هوموي: «بالطبع. هيا اذهبوا. من الآن فصاعدًا بإمكانكم جميعًا أن تكونوا عُمدائي.»

انطلق السناجب للعمل، وهم يتحدثون بمرحٍ أثناء قيامهم بذلك.

ثم جاء ستة مهور قزمة يركضون مسرعين وتوقفوا أمامه.

قال أكبرهم: «سيد هوموي! من فضلك دعنا نقوم بعمل أيضًا.»

ابتهج هوموي. وقال: «بالتأكيد. سأجعل كل واحد منكم كولونيلًا لديَّ. احرصوا على أن تأتوا بسرعة جدًّا عند استدعائي لكم.»

قفزَت المهور من الفرح.

قال الخلد باكيًا من تحت الأرض: «سيد هوموي! ألن تتفضَّل وتكلِّفني بعمل بإمكاني القيام به؟ أعدك بأني سأقوم به على أكمل وجه.»

لكن هوموي كان لا يزال متضايقًا. وقال وهو يضرب بقدمَيه على الأرض: «ابقَ بعيدًا. سيأتي الثعلب إلى هنا قريبًا، وسأجعله يعتني بك وبأصدقائك. فقط انتظِر!»

لم تأتِ همهمةٌ أخرى من أسفل الأرض.

بحلول الغسَق كان السناجب قد جمعوا مقدارًا كبيرًا من ثمار زنابق الوادي، والتي حملوها إلى منزل هوموي مع قَدرٍ كبير من الجلبة والضجيج.

أصاب الذهول السيدة أرنبة من هذا الضجيج وخرجَت من المنزل. وقالت عند رؤيتهم: «يا إلهي، ما الذي حدث، يا سناجب؟»

قال هوموي: «أمي، أترَينَ ماذا بإمكاني أن أفعل؟ لا يُوجد شيء لا يمكنني القيام به في الوقت الحاضر.»

وقفت السيدة أرنبة وهي تحدِّث نفسها لبرهة دون أن ترُد.

لكن في تلك اللحظة عاد السيد أرنب إلى المنزل. وقف وحدَّق لمدة دقيقة، ثم قال: «هوموي ... أتساءل عما إذا لم تزل مصابًا ببعض الحُمَّى حتى الآن؟ سمعتُ أنك تُخيف السيد خُلد بشدة؛ إنهم جميعًا يبكون بشدة في منزله. ومن تعتقد أنه سيأكل كل هذه الثمار؟»

بدأ هوموي بالبكاء. كان السناجب يشاهدون ما يجري باهتمام لفترة من الوقت، لكن في النهاية تسللوا بعيدًا.

تابع السيد أرنب الكلام: «لقد أخطأت. ألقِ نظرة على حجَر النار. أنا متأكد من أنه قد أصبح معتمًا بشدة.»

حتى السيدة أرنبة كانت تبكي، وكانت تمسح دموعها خلسة بمئزرها وهي تُخرج صندوق العقيق الذي يحتوي على الحجَر الثمين من الخزانة. أخذ السيد أرنب الصندوق منها ورفع الغطاء عنه، ثم حدَّق بدهشة.

كانت الجوهرة لا تزال تتوهَّج على نحوٍ أكثر احمرارًا وأكثر اتقادًا مما كانت عليه في الليلة السابقة. حدَّقوا بها جميعًا بنشوة لدرجة الطرب. ناوَل السيد أرنب الجوهرة إلى هوموي بصمت وبدأ بتناوُل الطعام. ثم سرعان ما جفَّت دموع هوموي، وتناوَلوا العشاء وهم يضحكون معًا بسعادة ثم ذهبوا للنوم.

في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، خرج هوموي إلى الحقول مرةً أخرى.

كان الطقس لا يزال لطيفًا، لكن زنابق الوادي، التي قُطفَت ثمارها، لم تعُد تُصدِر حفيفًا كما كانت تفعل من قبلُ.

جاء الثعلب يركض بحماسة من الجانب البعيد للأرض العشبية الخضراء، وتوقَّف أمام هوموي.

وقال: «سيد هوموي، سمعتُ أنك قد سمحتَ للسناجب بأن تجمع لك ثمار زنابق الوادي أمس. ماذا لو ذهبتُ اليوم وجلبتُ لك شيئًا لذيذًا؟ شيئًا أصفر ومقرمشًا ... شيئًا حتى أنت لم تسبق لك رؤيته من قبلُ، إذا سمحت لي بقول ذلك. هذا وقد سمعتُ أنك قلتَ بأنك ستُعاقِب الخلد، أليس كذلك؟ إنه مخادع، ذلك الخلد ... هل أذهب وأرمي به في النهر؟»

قال هوموي: «لا، دعه وشأنه. سأعفو عنه هذا الصباح. لكن أحضِر لي قليلًا من ذلك الطعام اللذيذ، ألن تفعل؟»

قال الثعلب: «على الرُّحب والسَّعة. سيستغرق الأمر مني عشر دقائق فقط. عشر دقائق فقط!» وانطلق يجري بسرعة الريح.

نادى هوموي على الخلد بصوتٍ عالٍ: «أيها الخلد، أيها الخلد، يا سيد خلد! لقد سامحتُك الآن؛ لذا ليس عليك البكاء.»

لكن لم يصدُر أيُّ صوت من تحت الأرض.

وسرعان ما جاء الثعلب يركض عائدًا مرةً أخرى عَبْر الأرض العشبية الخضراء المكشوفة.

وقال: «هيَّا، جرب هذا. إنه حقًّا مميز جدًّا.» وقدَّم له شريحة مقرمشة من الخبز كان قد سرقها للتو.

أخذ هوموي قَضْمةً ووجدها لذيذةً جدًّا بالفعل.

«على أي شجرة ينمو هذا؟» هكذا سأل هوموي الثعلب الذي أدار وجهه جانبًا، وأخفى ضحكةً بقليل من السُّعال قبل أن يُجيب:

«عجبًا، شجرة المطبخ. نعم، شجرة «المطبخ». إذا أعجبك هذا الشيء، فسأجلب لك بعضًا منه كل يوم.»

قال هوموي: «إذَن، احرص على إحضار ثلاثِ قِطع منه، ألن تفعل؟»

قال الثعلب وهو يرمش بعينَيه ليُظهِر أنه قد فهم طلبه: «حسنًا يا سيدي. لكن إن فعلتُ ذلك من أجلك، فإنك لن تمنعني من اصطياد الدجاج، أليس كذلك؟»

قال هوموي: «بالطبع لا.»

قال الثعلب قبل أن يختفي بسرعة: «حسنًا، إذَن، سأذهب وأحضِر لك القطعتَين الأخريَين لهذا اليوم.»

كان هوموي يفكر بالطريقة التي سيأخذ بها القطعتَين للمنزل ويقدِّمهما لوالدَيه. قال مُحدِّثًا نفسه: «أنا متأكد من أنه حتى أبي لم يتناول شيئًا لذيذًا كهذا من قبلُ. أنا حقًّا ابنٌ بارٌّ بهما، أليس كذلك؟»

رجع الثعلب بشريحتَي الخبز يحملهما في فمه، ووضعَهما أمام هوموي، ثم ودَّعه على عَجَل واختفى.

غمغَم هوموي لنفسه وهو في طريقه للمنزل: «كيف يقضي الثعلب وقته كل يوم؟»

في ذلك اليوم، كان السيد أرنب والسيدة أرنبة يُجفِّفان ثمار زنابق الوادي في فرنٍ أمام منزلهما.

قال هوموي وهو يقدِّم الخبز: «أبي، لقد أحضرتُ لك طعامًا لذيذًا! جرِّب بعضًا من هذا.»

أخذه السيد أرنب منه، وخلع نظارته لإلقاء نظرةٍ فاحصة عليه، وقال: «لقد حصَلتَ على هذا من الثعلب، أليس كذلك؟». قال السيد أرنب: «إنه مسروق. لن آكله.» وخطف القطعة التي كان هوموي على وشك أن يُعطيَها لوالدته، وألقى بها على الأرض مع قطعته، وداسَ عليهما.

انفجر هوموي بالبكاء. بكت السيدة أرنبة معه.

قال والده وهو يَذرَع جيئةً وذهابًا: «هوموي، لقد شطَحتَ بعيدًا جدًّا هذه المرة. اذهب وانظر إلى الجوهرة ... أنا متأكد من أنها قد تحطَّمَت الآن.»

أخرجَت السيدة أرنبة الصندوق وهي تبكي. لكن عندما سقط ضوء الشمس على الحجَر بالداخل، توهَّج على نحوٍ جميل جدًّا لدرجة أنه بدا على وشك أن يرتفع ويُحلِّق نحو السماء. أعطى السيد أرنب الجوهرة إلى هوموي دون أن يَنبِس ببنتِ شفة. وحدَّق هوموي بها ونسي دموعَه في الحال.

في اليوم التالي، خرج هوموي إلى الحقول مرةً أخرى.

جاء الثعلب مُهرولًا، وعلى الفور قدَّم له ثلاث قِطعٍ من الخبز. ركض هوموي إلى المنزل ووضعها على الرف في المطبخ، ثم خرج مرةً أخرى، حيث وجد الثعلب لا يزال ينتظر.

قال الثعلب: «ما رأيك بقليل من المرح؟»

سأل هوموي: «أيَّ نوع من المرح تقصد؟»

«ما رأيك بمعاقبة الخلد؟ إنه مصدر إزعاجٍ حقيقي في هذا المكان. وهو كسولٌ أيضًا. لقد أخبرتُه بأنك ستدعُه يعيش في سلام؛ لذلك دعني أضغط عليه قليلًا، وأنت بإمكانك المشاهدة فقط. لمَ لا؟»

«حسنًا. إذا كان مصدر إزعاج، فأنا لا أفهم لماذا لا نكون سيئين معه بعض الشيء.»

لفترة من الوقت أخذ الثعلب يمشي ذهابًا وإيابًا، وهو يتشمَّم الأرض ويدوس عليها بقوة، ثم في النهاية رفع حجَرًا كبيرًا من مكانه. كان هناك تحته الخلد الأم وأطفالها الثمانية، والذين كانوا يرتجفون معًا في حشدٍ صامت.

قال الثعلب: «هيا، اركضوا! اركضوا وإلا فسأمزِّقكم إربًا!» وضرب الأرض بقدمَيه.

صاح أفراد عائلة الخلد وهم يحاولون الهرب: «لا تفعل، من فضلك لا تفعل!» لكنهم كانوا لا يستطيعون الرؤية، وسيقانهم رفضَت الحركة؛ لذلك كل ما فعلوه كان إنشاب مخالبهم في العشب.

كان الخلد الأصغر مستلقيًا على ظهره كما لو كان قد أُغمي عليه. صَر الثعلب بأسنانه. هوموي أيضًا، على الأغلب دون تفكير، قال: «هش، هش!» وضرب بقدمَيه الأرض.

فجأة، قال صوتٌ عالٍ: «الآن، ما الذي تفعلانه أنتما الاثنان؟» وقام الثعلب بالدوران والدوران أربع مرات وجرى مسرعًا على الفور.

كان والد هوموي يقف هناك يراقب. بسرعة، أعاد الخلد الأم وصغارها إلى الحفرة وغطَّاها بالحَجَر مرةً أخرى، ثم أمسك هوموي من مؤخرة عنقه وسحبه طوال الطريق إلى المنزل.

خرجَت والدته وتشبَّثَت بوالده وهي تبكي.

قال السيد أرنب: «هوموي، لقد فعلتَها حقًّا هذه المرة. أنا متأكد من أن حَجَر النار قد انكَسَر. أخرِجه وانظر إليه.»

كانت تنهمر الدموع من عينَيها عندما ذهبَت وأخرجَت الصندوق. فتحه السيد أرنب ونظر بداخله.

لكن والد هوموي كان مندهشًا للغاية. فحَجَر النار لم يسبق أن بدا جميلًا جدًّا هكذا قط. أشياءُ حمراءُ وخضراء وزرقاء كانت تتداخل معًا، وتنفجر بتدفق ووابل هائلَين من الضوء؛ للحظةٍ كان البرق يُومِض بداخلها والضوء الأحمر يتدفق مثل الدم، ثم كانت ألسنة لهب زرقاء باهتة تُومِض وتملأ الجوهرة، وفجأةً بدت وكأنها مليئة بزهور الخشخاش القرمزية وزهور التوليب الصفراء مع اهتزاز الزهور وعددٍ كبير من أزهار اليراع مع النسيم.

أعطى السيد أرنب الحَجَر إلى هوموي في صمت. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى نسي هوموي دموعه، وأخذ يُحدِّق فيها بسرور.

توقَّفت السيدة أرنبة أيضًا عن القلق أخيرًا، وبدأت بتحضير وجبة الظهيرة. جلسوا جميعهم وبدءوا بتناول خبزهم.

قال السيد أرنب: «هوموي، يجب أن تحذَر من هذا الثعلب.»

قال هوموي: «لا تقلق. ماذا يكون الثعلب بالنسبة لي؟ فأنا لديَّ حَجَر النار. إنه ليس ذلك النوع من الجواهر التي تنكسِر أو تُصبِح مُعتِمة!»

قالت السيدة أرنبة: «لا، بالطبع لا. إنها جوهرةٌ جميلة!»

قال هوموي وهو يمتلئ فخرًا: «هل تعلمين، يا أمي، أنني متأكد من أنني قد وُلدتُ لأحتفظ بحَجَر النار معي دائمًا. مهما فعلت، فلن تجديه يذهب إلى أي مكانٍ آخر! هذا بالإضافة إلى أنني أنفُخ فيه وألمِّعه مائة مرة كل يوم.»

قال والده: «أتمنَّى أن تكون على حق.»

في تلك الليلة حلَم هوموي. كان يقف على ساقٍ واحدة فوق قمة جبلٍ مرتفع جدًّا، ومدبَّب كالمِخرَز.

استيقظ وهو يبكي من الخوف.

في صباح اليوم التالي، خرج هوموي مرةً أخرى إلى الأرض المفتوحة. في ذلك اليوم، كان ضباب رطب وكئيب ينتشر. وكانت الأشجار والأعشاب جميعها تنتصب ثابتةً وصامتة. وحتى أشجار الزان لم يصدُر عنها صوتُ حفيف أوراقها.

فقط نغمات أزهار الجرس الصباحية كانت ترنُّ عاليًا، عاليًا في السماء، دينج-دونج، دينج-ا-دونج، دونج، وآخر نغمة انتشر صداها في الأنحاء البعيدة.

جاء الثعلب، مرتديًا سروالًا قصيرًا، وحاملًا كالمعتاد ثلاث شرائحِ خبزٍ مقرمشة.

قال هوموي: «صباح الخير أيها الثعلب.»

ابتسم الثعلب ابتسامةً غير مريحة.

وقال: «لقد تلقيتُ مفاجأةً مزعجة البارحة. إن والدك متزمِّت نوعًا ما، أليس كذلك؟ لكنني أتوقع أنه سرعان ما تجاوَز الأمر. اليوم لديَّ فكرةٌ أفضل بكثير. هل لديك أي اعتراضات على حدائق الحيوان؟»

قال هوموي: «لا، ليس على وجه الخصوص.»

أخرج الثعلب شبكةً مطوية على نحوٍ صغير من جيبه.

وقال: «انظر! إذا استخدمتَ هذه، فبإمكانك اصطياد اليعاسيب، والنحل، والعصافير، وحتى طيور الزرياب وطيور أخرى أكبر. لماذا لا نجمعهم ونُنشئ حديقةَ حيوانات خاصة بنا؟»

تصوَّر هوموي حديقة الحيوانات، وفجأةً أراد واحدة بشكلٍ مُلِح.

قال: «نعم! دعنا نفعل ذلك. لكن هل أنت متأكد أنه بإمكانك صيدهم بهذه الشبكة؟»

قال الثعلب كما لو كان مستمتعًا بالسؤال إلى حدٍّ كبير: «أوه، متأكد تمامًا.»

«أسرِع أنت وأوصِل الخبز إلى المنزل. وبحلول الوقت الذي تعود فيه، أراهنك أنني سأصطاد على الأقل مائةً منهم.»

أخذ هوموي شرائح الخبز، وانطلق بها مسرعًا نحو المنزل، ووضَعَها على رف المطبخ، ثم أسرع راجعًا.

وجد أن الثعلب قد وضع الشبكة فوق شجرة بتولا كانت واقفةً هناك في الضباب، وكان يبتسم ابتسامةً عريضة وفمه مفتوح على مصراعَيه.

قال وهو لا يزال يبتسم، مشيرًا إلى صندوقٍ زجاجي كبير لا بد أنه قد أحضره من مكانٍ ما: «انظر! لقد أصبح لديَّ أربعة بالفعل.»

بالفعل، كان بإمكان هوموي رؤية طائر زرياب وعندليب وحسون تفاحي وعصفور سسكين يُرفرِفون بالداخل. لكن بمجرَّد أن تعرَّفوا عليه، هدَءوا وكأن مخاوفهم قد زالت.

نادى العندليب من خلال زجاج الصندوق: «هوموي! أرجو أن تُنقِذنا ... أعلم أنه باستطاعتك ذلك. لقد اصطادنا الثعلب، وسوف يأكلنا غدًا بالتأكيد. أرجوك، يا هوموي!»

توجَّه هوموي مباشرةً لفتح الصندوق.

لكن الثعلب عبَس حتى ارتسمَت تجاعيدُ داكنةٌ فوق جبينه وضاقت عيناه من الغضب.

صاح الثعلب: «هوموي! انتبِه! إذا لمستَ هذا الصندوق، فسوف أمزِّقك إربًا!» كان فمه قد الْتَوى من الغضب.

شعَر هوموي بخوفٍ شديد لدرجة أنه ركَض مباشرةً إلى المنزل. كانت السيدة أرنبة في الحقول في ذلك اليوم، ولم يكن أحدٌ يُوجد في المنزل.

كان قلب هوموي ينبض بشدة، فأخرج الصندوق الذي يحتوي على حَجَر النار، وفتح الغطاء ليُلقي نظرةً عليه.

كان الحَجَر لا يزال يتوهَّج على نحوٍ لامع. لكن هل رأى عليه بقعةً صغيرةً معتمة وكأنه قد ثُقب بإبرة، أم إنَّ هذا كان من نسج خياله؟

لقد أزعجَته البقعة كثيرًا؛ لذلك نفَخ في الجوهرة كما كان يفعل دائمًا، وفرَكَها بلطفٍ بريشة من صدر حسون تفاحي. لكن البقعة لم تزُل.

في تلك اللحظة، وصل السيد أرنب إلى المنزل. وسرعان ما لاحظ من وجه ابنه أن أمرًا ما غير جيِّد قد حدث، فقال: «ما الأمر يا هوموي؟ تبدو شاحبًا جدًّا. هل أصبح حَجَر النار معتمًا؟ دعني أرى.» رفع الجوهرة تحت الضوء، ثم ضحك. وقال: «لماذا كل هذا الحزن إذَن؟ سنتخلص من ذلك قريبًا. عجبًا، إن ألسنة اللهب الصفراء تشتعل بتوهجٍ أكثر من أي وقتٍ مضى. أعطِني بعضًا من ريش الحسون التفاحي»، وبدأ بتلميع الحَجَر بانهماك، لكن عوضًا عن زوالها بدا أن الرقعة المُعتِمة أخذَت تكبر بشكلٍ متزايد.

وصلَت السيدة أرنبة إلى المنزل. ودون أن تقول أي شيء، أخذَت الحَجَر من زوجها ورفعَته نحو الضوء، ثم تنهَّدَت ونفخَت فيه وبدأَت تمسحه.

أخذوا يتناوبون على تلميعه بأقصى ما في وسعهم، وهم يتنهَّدون طوال الوقت دون أن ينطقوا بكلمةٍ واحدة.

بدأ الغسَق بالحُلول. وفجأة، وقف السيد أرنب كما لو أنه قد تذكَّر شيئًا ما على نحوٍ مفاجئ.

وقال: «هيا، دعُونا نتناول العشاء، ألن تفعلوا؟ سنُجرِّب ترك الحجر منقوعًا في الزيت هذه الليلة. يقولون إن هذا أفضلُ شيء.»

قالت السيدة أرنبة جافلةً: «يا إلهي! لقد نسيتُ أمر العَشاء تمامًا. لم أصنع أي شيء على الإطلاق. هل سنتناول فقط توت زنابق الوادي من أول أمس وخبز هذا الصباح؟»

نخر السيد أرنب. وقال: «هذا سيَفي بالغرض.» وضع هوموي الحَجَر في صندوقه متنهدًا، ووقف يُحدِّق فيه لفترةٍ طويلة.

تناولوا وجبتَهم بصمت.

قال السيد أرنب وهو يُنزِل زجاجة زيت جوز من الرف: «سأحضِر الزيت من أجلك.» سكب هوموي بعضًا منه في صندوق العقيق. ثم أطفَئوا الأضواء وذهَبوا إلى الفراش مبكرًا.

استيقظ هوموي في الليل.

جلس خائفًا واختلس النظر إلى حَجَر النار الذي كان بجانب سريره. كان الحجر في الزيت يلمع باللون الفضي وكأنه عين سمكة. لم يعُد هناك ألسنةُ لهبٍ حمراء على الإطلاق.

انفجر هوموي بالبكاء.

نهض السيد أرنب والسيدة أرنبة مذعورَين وأضاءا المصباح.

بدا الحَجَر الآن ككُرة من الرصاص. أخبر هوموي والده، وهو يبكي، عن الثعلب وشبكته.

قال والده وهو يرتدي ملابسه على عَجَل: «هوموي، أنت أحمق. لقد كنتُ أنا غبيًّا أيضًا. لقد أُعطيتَ حَجَر النار لأنك أنقذتَ حياة طائر القُبَّرة الصغير، أليس كذلك؟ لكنك أولَ أمسِ كنتَ تتحدث عن كونك خُلقت لتحوزَه. هيا، دعنا نخرج؛ فربما لا يزال الثعلب ينصب شبكته. عليك أن تصارعه، حتى وإن قتلك. سأساعدك أنا أيضًا بالطبع.»

نهض هوموي وهو لا يزال يبكي وذهب معه. كانت السيدة أرنبة تبكي أيضًا وهي تتبعُهما.

كان الضباب يتساقط على شكل قطراتٍ رطبة كبيرة، وقد بدأ الفجر في البزوغ. كان الثعلب يجلس تحت شجرة البتولا وشبكتُه لا تزال منصوبةً عليها. وعندما رأى الثلاثة قادمين، ابتهج وضحك بصوتٍ عالٍ.

صاح والد هوموي: «أيها الثعلب! إنك ذكي، أليس كذلك، لخداعك هوموي بهذه الطريقة. تعالَ هنا وصارعه!»

قال الثعلب فعلًا بتعبيرٍ شرير بحق على وجهه: «ها! يمكنني بسهولةٍ تمزيق ثلاثتكم إلى أشلاء، لكنني لا أرغب في تضييع جهدي في ذلك. على أي حال، لديَّ أشياءُ أخرى أفضل لآكُلها.»

حمل الصندوق الزجاجي على كتِفه وتأهَّب للفرار.

قال والد هوموي وهو يضع كفَّه بقوة على الصندوق: «لا، لن تفعل!»

فقَد الثعلب توازُنه وتخلى عن حمولته، ثم فرَّ وركض مبتعدًا.

كان الصندوق مليئًا بنحو مائة طائر، الذين كانوا جميعًا غارقين في الدموع؛ ليس فقط العصافير وطيور الزرياب والعنادل، وإنما أيضًا ذكَر بومة كبير، وحتى القُبَّرة الأم وابنها.

رفع والد هوموي الغطاء.

طار الطيور جميعهم خارج الصندوق، وانحنَوا وقالوا معًا في جوقة: «شكرًا لكم كثيرًا. نحن ممتنُّون جدًّا لمساعدتكم لنا مرةً أخرى.»

ردَّ والد هوموي: «عفوًا. الحقيقة أننا لم نكن نعرف بأي وجهٍ سنقابلكم. كما ترَون، لقد جعلنا الجوهرة التي أعطانا إياها ملِكُكم تتحوَّل إلى جوهرةٍ مُعتِمة.»

قال الطيور معًا: «عجبًا، ما الذي يمكن أن يكون قد حصل؟ هل من الممكن أن نُلقيَ نظرةً عليها؟»

قال والد هوموي وهو يقود الطريق نحو المنزل: «تعالَوا معنا، إذَن.» كانت الطيور تسير خلفه. وكان هوموي يتبعُهم في الخلف وهو يتنشَّق ويبدو عليه الندم. مشى ذكَر البومة بخطواتٍ كبيرة وبطيئة وقد أخذ يُلقي نظرةً خاطفة على هوموي بين الحين والآخر في تجهُّم.

دخلوا جميعًا المنزل.

شغَل الطيور كل شبر من المساحة في المنزل؛ الأرضية، والرفوف وحتى الطاولة. أخذ ذكَر البوم يُدير عينَيه في اتجاهاتٍ غريبة وهو يُحدث نفسه ساخرًا من وقتٍ لآخر.

أحضر السيد أرنب الجوهرة التي بدت الآن ليست أكثر من حَجَرٍ أبيضَ صغير.

وقال: «هل ترَون! إذَن هيا اقسُوا علينا كما تريدون؛ فنحن نستحق ذلك.» وفي تلك اللحظة تمامًا، انقسم حجر النار إلى قسمَين بصوت انفلاقٍ حاد. في اللحظة التالية، صدر صوت طقطقةٍ عنيف، وأمام أعينهم مباشرةً تحطَّم الحَجَر وتحوَّل إلى سحابة من الغُبار.

صرخ هوموي في مدخل المنزل بصوتٍ عالٍ، وسقط على الأرض. كان الغبار قد دخل إلى عينَيه. أصيب الجميع بدهشةٍ شديدة، وكانوا يتوجَّهون جميعهم نحوه عندما صدر صوت فرقعةٍ هذه المرة؛ ذلك أن سحابة الغبار بدأَت تتكاثف بالتدريج إلى أن تشكَّل منها عددٌ من القِطع الصلبة مرةً أخرى. ثم حوَّلَت القِطع نفسها إلى قطعتَين فقط، واللتَين في النهاية اندمجتا معًا وأصبحتا مرةً أخرى حَجَر النار، تمامًا كما كان دائمًا من قبلُ. التمعَت الجوهرة مثل نيران البركان، وتوهَّجَت مثل الشمس عند غروبها، وبصوتٍ حفيفٍ طارت للأعلى وخرجَت من النافذة وابتعدَت.

فقد الطيور الاهتمام بالأمر، وبدءوا بمغادرة المكان الواحد تلو الآخر، إلى أن لم يبقَ منهم في النهاية سوى ذكَر البوم. أمعَن ذكَر البوم النظر في الغرفة. وقال ساخرًا: «فقط ستة أيام، بو-هو! فقط ستة أيام، بو-هو!» ثم خطا خارج المنزل وهو يهزُّ كتفَيه.

لكن الأسوأ من ذلك أن عينَي هوموي أصبحتا شاحبتَين ومُعتِمتَين كما أصبح الحَجَر تمامًا، ولم يعُد يستطيع رؤية أي شيء على الإطلاق.

لم تتوقف السيدة أرنبة عن البكاء منذ البداية إلى النهاية. ووقف السيد أرنب لفترة من الوقت طاويًا ذراعَيه وهو يفكر، ثم ربَّت على ظهر هوموي برفق.

وقال له: «لا تبكِ. هذا النوع من الأمور يمكن أن يحدُث لأي شخص. أنت محظوظٌ أكثر من البقية. لأنك أصبحتَ تعرف الآن. سوف تتحسَّن عيناك، أنا متأكد من ذلك. سأعمل جاهدًا من أجل ذلك. لذا تشجَّع، وتوقَّف عن البكاء.»

من خلف النافذة كان الضباب قد تبدَّد وأوراق زنابق الوادي كانت تتلألأ في ضوء الشمس، وكانت أزهار الجرس تَرنُّ بنغماتها الصباحية الصافية والصاخبة، دينج، دينج، دونج، دينج-ا، دينج-ا-دونج.

مسيرةٌ عسكرية تحت ضوء القمر

في إحدى الليالي، كان كيوتي، منتعلًا صندلَه المصنوع من القَش، يمشي بخفَّة على طول الأرض المستوية بجوار خطوطِ السكك الحديدية.

كان سيُغرَّم، بالطبع، لو جرى الإمساك به. والأسوأ من ذلك أنه إذا جاء القطار بعمودٍ طويل أو ما شابه يخرُج من إحدى النوافذ، فمن شبه المؤكَّد أنه كان سيُطرح أرضًا ويُقتل.

لكن، في ذلك المساء، لم يظهر أيُّ مراقب لخطوط القطارات، ولم يُصادِف كيوتي قطارًا بعمود يبرُز من إحدى النوافذ. لكن ما حدث كان شيئًا آخر؛ شيئًا غريبًا بشدة.

كان القمر في يومه التاسع مُعلقًا في سماءٍ مليئة بسُحبٍ مرقَّطة. بدت السُّحب وكأنها تترنَّح بضوء القمر الذي امتصَّته في بطونها. ومن خلال فجوة فيها كان يُومِض من آنٍ لآخرَ نجمٌ يبدو باردًا.

سائرًا بخُطًا سريعة، وصل كيوتي لنقطة حيث كانت أضواء محطةٍ صغيرةٍ تسطع بوضوح من بعيد. كانت هناك نقاطٌ ضوئيةٌ حمراءُ لامعة، وأضواءٌ أرجوانيةٌ باهتة مثل الكبريت المشتعل، بحيث إذا نظرتَ إليها بعينَين نصف مغمضتَين فستبدو وكأن قلعةً كبيرةً تقف هناك.

فجأة، اهتزَّ عمود إشارة على اليمين مُحدثًا قرقعة، مما جعل الذراع البيضاء الأفقية أعلاه تسقط في وضع قُطري.

لم يكن هناك أي شيءٍ غريب في هذا الأمر؛ فكل ما حدث هو أن الإشارة كانت قد تغيَّرَت؛ وهو شيءٌ كان يحدث على الأقل أربع عشرة مرة خلال أيِّ أمسية.

لكن ما حدث بعد ذلك كان بمنزلة صدمة.

إن صف أعمدة التلغراف، الذين كانوا يئنُّون في الريح على الجانب الأيسر من خطوط السكك الحديدية، بدءوا جميعًا دفعةً واحدة وبمهابةٍ عظيمة بالزحف نحو الشمال. كان لكل واحد من هذه الأعمدة ست كتَّافاتٍ خزفية، وكانت تعلوه قبَّعة من الزنك مع مسمار يبرُز منها. كان كلٌّ منهم يسير على ساقه الوحيدة، وعند مروره بجانب كيوتي، يُلقي عليه نظرةً جانبية قاسية كما لو أنه لا يهتم به كثيرًا. كان صوت الأنين يعلو أكثر فأكثر إلى أن تحوَّل في النهاية إلى نشيد عرضٍ عسكري حقيقي من الطراز القديم:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
نحن أقوياءُ ومنظَّمون جيدًا
فرقةٌ منضبطة
رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
لا يُوجد جيشٌ آخر
يستطيع هزيمتنا بسبب سرعتنا.

أحدُ هذه الأعمدة مرَّ به بكتفَين مفرودَتَين بقوة لدرجة أن جميع قِطَعه العرضية بدا أنها كانت تُصدِر صريرًا.

بعد ذلك، لاحظ كيوتي صفًّا آخرَ من الأعمدة قُبالة الصف الأول؛ لكل عمود منه ستُّ قِطعٍ عرضية واثنان وعشرون كتَّافةً خزفية، وكان الصف يتقدَّم أيضًا للأمام، وهو يُنشِد نشيدًا مشابهًا للنشيد الأول:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
خمسة عشر ألفًا بالتمام
بفكرٍ واحد
رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
يسيرون على نسَقٍ واحد
لتبقى الأسلاك مشدودة بشكلٍ كامل.

لسببٍ ما، جاء عمودان يعرجان معًا وذراعاهما موصولان معًا. كان رأس كل واحد منهما يتدلى كما لو كانا مُنهَكَين بالكامل، وكانا يلهثان من طرفِ فمهما ويترنَّحان كما لو كانا على وشك السقوط في أي لحظة.

في تلك اللحظة، صرَخ بهما من الخلف عمودٌ مُفعَم بالحيوية:

«تحرَّكا هناك، أنتما الاثنان! انظرا ... إن الأسلاك ترتخي!»

قالا بصوتٍ واهن: «لا نستطيع، إننا مُتعَبان للغاية. لقد بدأَت أقدامنا تفسد. يُغطِّي القَطران حذاء كلٍّ منا، وكل شيء يبدو لزجًا من حولنا.»

صرخ العمود الآخر وقد نفِد صبره: «قلتُ، تابِعا المسير! في حال استسلم أيٌّ منكما فسوف يقع خمسة عشر ألف رجل في ورطة! هيا، استمرَّا!»

وهكذا أُجبر العمودان على المضي وهما يترنَّحان، أما بقية أعمدة الصف فقد جاءوا من خلفهما وهم ينشدون:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
أوه، انظر إلى كتفَي كل عمود
وستجد مصدر فخره
رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
إن الكتَّافات البيضاء
تدُل على مرتبته العالية.

اختفَت هيئتا العمودَين ببطء باتجاه الغابة الخضراء المائلة إلى الزرقة البعيدة، وظهَر القمَر من خلف السُّحب المرقَّطة، وانتشَر الضوءُ فجأةً في كل الأنحاء.

الآن، ارتفعَت معنوياتُ القوات. بعض الأعمدة كانوا يختالون في مشيتهم عن عمد، ويُلقون بابتسامةٍ جانبية على كيوتي عند مرورهم به. في تلك اللحظة، ولِدَهشتِه، شاهد جنودًا آخرين بثلاث أذرع وكتَّافاتٍ حمراءَ لامعة يتقدَّمون الأعمدة ذات الأذرع الستة. شعَر أن نشيد مسيرتهم كان ذا لحن وكلماتٍ مختلفة، لكن النشيد في هذا الجانب كان بصوتٍ عالٍ جدًّا فلم يستطِع كيوتي فَهْم ما كانوا يُغَنون.

جاء الجنود في هذا الجانب يمشون بخطواتٍ ثقيلة ومنتظمة:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
حتى أشد فصول الشتاء برودةً
لن تجعل العمود يتخاذل
رام-تيدي تام، رام-تيدي تام

ولا حرارة الصيف الشديدة
ستتسبَّب في ترَهُّل كتفَيه.

وهكذا بشكلٍ متتابع جاءوا كنهرٍ مُتدفق، حتى إن كيوتي بدأ يشعُر بالتعَب من مراقبتهم، وأطلق العِنان لعقله أن يرتاح. كانوا كلهم ينظرون إليه عند مروره به، لكنه بدأ يشعُر بألم في رأسه، فأطرق بنظره للأسفل بصمت.

فجأةً سمع صوتًا غليظًا قادمًا من بعيد وقد اختلط بصوت غناء الجنود:

«هوب، هوب! شمال، يمين!»

رفع رأسه بذهول، ورأى رجلًا عجوزًا قصيرًا شاحب الوجه يرتدي مِعطفًا سميكًا رماديًّا باليًا وهو يمشي بخُطًا واسعة بجانب صف الأعمدة، وقد أخذ يفحصُهم ويصرُخ فيهم آمرًا إياهم:

«يسار، يمين! يسار، يمين!»

عندما وقعَت عينا الرجل العجوز عليهم، مضى الجنود في مسيرتهم بحزمٍ دون الالتفات شمالًا أو يمينًا. رفع نظره إلى كيوتي وحدَّق به لبرهة بطرف عينه، ثم استدار وأعطى الأمر الآتي:

«استرِح!»

عندها، بدأ الأعمدة بالتحرك باسترخاءٍ أكثر، وأنشدوا مرةً أخرى:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
رماح إلى اليسار
ورماح إلى اليمين. ...

توقف الرجل العجوز أمام كيوتي، وانحنى للأمام قليلًا، ثم قال:

«مساء الخير! كنتَ تشاهد المسيرة، أليس كذلك؟»

«بلى كنتُ أفعل.»

«فهمتُ. حسنًا، الآن، أعتقد أنه لا مفَر من هذا. لنكن صديقَين. هيا، لنتصافح.»

رفع العجوز الكُم البالي لِمعطَفه السميك، ثم مدَّ يدًا صفراءَ كبيرة. وعلى مضَضٍ مدَّ كيوتي يده أيضًا.

قال الرجل العجوز قبل أن يمسك بيد كيوتي في يده: «خذ ...»

عندما فعل ذلك، تطايَر من عينيه شرارٌ أزرق متأججًا، فشعَر كيوتي بوخزٍ في كل جسده، وكاد أن يسقط إلى الوراء.

ضحك الرجل العجوز ضحكةً خافتة.

وقال: «لقد شعرتَ بذلك، أليس كذلك؟ لكن ما هذا إلا شيءٌ لطيف. إذا صافحتُكَ بقوةٍ أكبر قليلًا ... حسنًا، فسوف تتحوَّل إلى فحمة!»

كان الجنود مستمرين في مسيرتهم بلا هوادة وهم يُنشِدون:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
تعالَ للتل أو للوادي
وسنتعامل مع الأمر دون أي مشكلة ...

شعرَ كيوتي عندها بخوفٍ شديد، وبدأَت أسنانه تصطك. لاحظ الرجل العجوز، الذي كان ينظر لأعلى ليراقب ما يحدث للقمر والسحب، كم كان كيوتي شاحبًا ويرتجف خوفًا، ولا بد أنه شعَر بالأسف الشديد تجاهه وهو يقول له بصوتٍ أكثر هدوءًا:

«كم تعلم، أنا جنرال الكهرباء.»

ذلك جعل كيوتي يهدأ قليلًا.

«جنرال الكهرباء؟ أي نوع من الكهرباء هذا؟»

هذا جعل وجه الرجل العجوز يتجهَّم قليلًا.

وقال: «يا لك من طفلٍ غبي! أنا جنرال ... أي، مسئول عن كل شيء يتعلق بالكهرباء. أنا الرئيس، أنا الزعيم.»

قال كيوتي بحزن: «لا بد أنه من الممتع أن تكون رئيسًا.»

قال الجنرال وقد انشرح وجهه من البهجة: «أوه نعم، إنه كذلك! أعني، إنهم جميعًا جنودي؛ المهندسون، والفرسان، وجنود المشاة هناك.»

فجأةً بدت عليه الجدية، وحدَّق لأعلى بالسماء وهو ينفُخ أحد خدَّيه. ثم صرخ بصوتٍ عالٍ في جندي كان يمُر صُدفةً بجانبه:

«أنت هناك ... لماذا تُحدِّق ببلاهةٍ حولك؟»

قفَز العمود في الهواء برعب، فانثنَت ساقه، وعلى عَجَلٍ نظر أمامه مرةً أخرى وهو يمضي قُدمًا. كانت الأعمدة الأخرى تأتي في تدفُّق منتظم.

«أعتقد أنك تعرف القصة الشهيرة، أليس كذلك؟ كان يُوجد رجل يعيش في إنجلترا ووالده يعيش في كيركشاير في اسكتلندا. أرسل الابن برقيةً إلى والده العجوز. انتظر ... إنها لديَّ هنا، لقد دوَّنتُها في دفتر ملاحظاتي.»

أخرج الجنرال دفتر الملاحظات الخاص به، ثم ارتدى نظارةً كبيرة بشيء من العجرفة، وتابع قائلًا:

«هل تفهم الإنجليزية؟ تقول البرقية: «أرسل لي حذائي عالي الرقبة في الحال.» أصيب ذاك الرجل العجوز الأحمق في كيركشاير بالذُّعر، وعلق الحذاء على أسلاك التلغراف الخاصة بي!»

ضحك ضحكةً خافتة. ثم تابع كلامه: «لقد وضعَني هذا في مأزق، دعني أؤكِّد لك ذلك. كما أن هذا النوع من الأمور لا يحدُث فقط في إنجلترا. لقد كنتُ في ثكنةٍ عسكرية في ديسمبر الماضي، وكان هناك خمسة أو ستةُ مستجدين — الذين ستجد البعض منهم في أي جيش — هؤلاء إذا طلب منهم الرقيب أن يذهبوا ويطفئوا الأنوار، فإنهم يذهبون لينفُخوا فيها مُحاوِلين إطفاءها! اعلم أنه لا يُوجد مثل هؤلاء بين جنودي. حدث الأمر نفسه في قريتك أيضًا، عندما أُدخلَت إليها الكهرباء لأول مرة؛ كان الناس هناك يقولون دائمًا: «أوه، لا بد أنهم يحرقون على الأقل مائة برميل من البترول كل شهر لإنتاج كل هذا الضوء!»»

أطلق ضحكةً هادرة. وقال: «هذا مضحك، أليس كذلك؟ لكن لن يكون مضحكًا كثيرًا، إذا فهمتَ، مثلي، مبدأ الحفاظ على الطاقة، أو القانون الثاني للديناميكا الحرارية. ... لكن ما رأيك؛ إنهم يبدون ذوي مظهرٍ جميل جدًّا، أليس كذلك؟ في الواقع إنهم يُعبِّرون عن ذلك بأنفسهم في نشيد المسيرة العسكرية ذاك الخاص بهم.»

بوجوهٍ صارمة تنظر للأمام مباشرة، ارتفعَت أصواتُ أولئك الذين كانوا يمُرُّون في ذلك الوقت أعلى وأعلى:

رام-تيدي تام، رام-تيدي تام
لا عجب أننا أعمدة
مشهورة للغاية في جميع أنحاء المعمورة!

بعد ذلك مباشرةً، وبعيدًا في آخر الصف، ظهر ضوءان أحمران متوهجان. أثار هذا الذعر في نفس الرجل العجوز.

وقال: «تبًّا، هناك قطارٌ قادم! سيكون من المرعب إذا لمحَنا أحد. علينا أن نُوقِف المسيرة.»

رافعًا إحدى يدَيه، تَوجَّه نحو صف أعمدة التلغراف وصرخ بصوتٍ عالٍ:

«أيها الجيش! قفوا!»

توقف جميع الأعمدة تمامًا واتخذوا في الحال شكلهم المعتاد، أما نشيد المسيرة فقد تحوَّل إلى صوت أنينٍ عادي في الريح: ووو، ووو. ...

جاء القطار صاخبًا من بعيد. كان الفحم يُضيء عربة السائق باللون الأحمر الساطع، وكان يقف أمامها ظل الوقَّاد الأسود.

لكن كانت نوافذ عربات الركاب مظلمة تمامًا.

قال الرجل العجوز متعجبًا: «أوه، تبًّا، لقد انطفأَت الأنوار. لا يُمكِننا السماح بذلك. إن هذا مُخزٍ!»

انحنى كالأرنب، وقفز الرجل العجوز مسرعًا تحت القطار المتحرك.

صرخ كيوتي: «انتبه»، محاولًا أن يوقفه، عندما سطعَت فجأةً نوافذُ عربات القطار بالضوء، وكان طفل صغير في إحداها يرفع ذراعَيه ويقول بصوتٍ عالٍ:

«لقد أُنِيرَت الأضواء! مرحى!»

همهمَت أعمدة التلغراف بلطف، وصدرَت إشارةٌ محدثةً جلبة، واختفى القمر مرةً أخرى خلف السُّحب المرقَّطة.

وبدا أن القطار قد وصل بالفعل إلى المحطة.

بستان كينجو

كان كينجو كثيرًا ما يتجوَّل في الغابة، أو على طول الطرق الممتدة بين الحقول، مرتديًا الكيمونو الخاص به المربوط بحبل والابتسامة تعلو وجهه. عندما كان يُشاهِد الأجمات الخضراء تحت المطر، كانت عيناه تلمعان من السرور، وعندما كان يقع نظره على صقر يُحلِّق عاليًا في السماء الزرقاء، كان يقفز في فرحٍ عارم ويصفِّق بيدَيه ليُخبر الجميع بذلك.

لكن الأطفال كانوا يَسخَرون بشدة منه لدرجة أنه بمرور الوقت بدأ يُحاوِل إخفاء مشاعره. فعندما كانت تهُب عصفة ريح وتلمع أوراق شجر الزان تحت الضوء، كان، كي لا يبتسم وجهُه بسرور، يفتح فمه ويأخذ أنفاسًا كبيرة وثقيلة وهو يقف مُحدقًا مليًّا في الفروع.

أحيانًا عندما كان يضحك ضحكته الصامتة وفمُه مفتوح على مصراعَيه، كان يفرُك خدَّه بإصبعه، كما لو كان يُعاني من حكة. من بعيد كان يبدو كينجو كما لو كان يخدشُ نفسه أو ربما يتثاءب، لكن عن قرب، بالطبع، كان بإمكانك سماع أنه كان يضحك وملاحظة أن شفتَيه كانتا ترتعشان؛ لذلك كان الأطفال يسخرون منه أيضًا.

كان بإمكانه أن يجُر كميةً كبيرة من الماء تملأ نحو خمسمائة دلوٍ في المرة الواحدة، لو طلبَت منه والدتُه ذلك. وكان بإمكانه أيضًا إزالة الأعشاب الضارَّة من الحقول في يومٍ واحد. لكنَّ والدَيه لم يطلبا منه أن يفعل مثل هذه الأشياء قط.

خلف منزل كينجو كانت تُوجد رقعةٌ من الأرض المكشوفة، بحجم الملعب الرياضي العادي، والتي كان قد تُركَت دون زراعة. في إحدى السنوات، بينما كانت الجبال ما تزال بيضاءَ مغطَّاة بالثلج ولم تكن براعم العشب الجديد قد بدأَت بالظهور بعدُ على امتداد السهل، جاء كينجو فجأةً مسرعًا نحو أفراد عائلته الذين كانوا يحرُثون حقول الأرز.

«أمي، رجاءً، هل يمكنك أن تشتري لي سبعمائة شتلة أرز؟»

توقفَت والدته عن العمل بمِجرَفتها الجديدة اللامعة وحدَّقَت به.

وسألَته: «وأين ستزرع السبعمائة شتلة أرز؟»

«في الأرض المكشوفة الموجودة خلف المنزل.»

قال أخوه الكبير: «كينجو، لن تنمو أشجار الأرز هناك أبدًا. لماذا لا تُساعدنا قليلًا في حقل الأرز عوضًا عن ذلك؟»

تمَلمَل كينجو بعدم ارتياح وخفَض بصره نحو الأرض.

لكن حينها اعتدل والدُه في وقفته، ومسح العرق عن وجهه.

ثم قال: «اشترِيها له، اشترِيها. لم يسبق له قَط أن طلب منا أن نشتري له شيئًا. دَعيه يحصل عليها.» وابتسمَت والدة كينجو كما لو أنها شعرَت بالارتياح.

بسعادةٍ غامرة، ركض كينجو للمنزل مباشرةً، وأخرج من مخزن الحبوب مجرفةً ذات رأسٍ حديدي، وبدأ بتجهيز الأرض لعمل حُفر لزراعة الأشجار.

لحقَ به أخوه الكبير وشاهد ما كان يفعل، فقال له: «عليك أن تَحفِر أعمقَ عند زراعة أشجار الأرز. انتظِر حتى الغد. سأذهب وأشتري لك الشتلات.»

على مضض، ترك كينجو العمل بالمجرفة.

في اليوم التالي، كانت السماء صافية، والثلج على الجبال كان يلمع ناصع البياض، وكانت القُبَّرات تُغَني أغانيها الحماسية وهي تُحلِّق عاليًا في السماء. مبتسمًا ابتسامةً عريضة كما لو أنه بالكاد كان يستطيع احتواء فرحته، بدأ كينجو في العمل على حَفْر الشتلات تمامًا كما أخبره شقيقه، بادئًا بالحد الشمالي للأرض. وقد حفَرها في صفوفٍ مستقيمة وعلى فتراتٍ منتظمة تمامًا. وأخذ أخوه يزرع شتلةً واحدة في كل حفرة على نحوٍ متتابع.

في تلك الأثناء، جاء هيجي، الذي كان يمتلك حقلًا يقع إلى الشمال من قطعة الأرض المكشوفة. كان يضع غَليونًا في فمه، وكانت يداه مطويتَين داخل ملابسه، وكتفاه مرفوعتان كما لو أنه كان يشعُر بالبرد. عمل هيجي في الزراعة قليلًا، لكنه كان يكسب جزءًا كبيرًا من دخله بطرقٍ أخرى ليست بالجيدة.

صاح: «مرحبًا، يا كينجو! إن زراعة أشجار أرزٍ هناك ما هو إلا شيءٌ سخيف! أهم شيء أن تلك الأشجار سوف تحجُب ضوء الشمس عن حقلي.»

احمَرَّ وجه كينجو وبدا وكأنه كان يريد أن يقول شيئًا ما، لكنه لم يستطِع النطق به ووقف يتمَلمَل بلا حول ولا قوة.

لذا، قال أخو كينجو، الذي كان يعمل بعيدًا قليلًا عنهما: «صباح الخير يا هيجي»، واعتدل في وقفته، فسار هيجي على مهل مرةً أخرى وهو يُتمتِم لنفسه أثناء ذهابه.

لم يكن هيجي وحده من سَخِر من كينجو لقيامه بزراعة أشجار الأرز في تلك الأرض المُعشِبة. قال الجميع الشيء نفسه: لن ينمو أرز في مكان كهذا؛ إذ يوجد تحته طبقة من الطين الصلب؛ حقًّا، الأحمق سيظل دائمًا أحمق.

وكانوا على حق. ففي السنوات الخمسة الأولى، نمَت الشتلات الخضراء بشكلٍ مستقيم نحو السماء، ولكن منذ ذلك الحين بدأَت رءوسها تنمو للخارج، وفي سنتَيها السابعة والثامنة توقَّف ارتفاعها عند حوالَي تسع أقدام.

ذات صباح، بينما كان كينجو يقف أمام البستان، جاء مزارعٌ ليقضي بعض الوقت الممتع في السخرية منه.

«مرحبًا، يا كينجو. ألن تُقلِّم أشجارك؟»

«أقلِّم؟ ماذا تعني؟»

«التقليم يعني قطع جميع الفروع السفلية باستخدام بَلطة.»

«إذَن أعتقد أنني سأقلِّمها.»

ركَض كينجو وأحضَر بلطة. ولأن أشجار الأرز كان ارتفاعها لا يتجاوز تسع أقدام، فقد كان مُضطرًّا لأن ينحني قليلًا ليصل إلى فروعها السفلية، لكن مع حلول الغَسَق كانت كل الأشجار قد جُردَت بلا هوادة من جميع فروعها باستثناء أعلى ثلاثة أو أربعة فروعٍ فيها. غطَّت أوراق الشجر الخضراء الداكنة العشب، وكان البستان الصغير ممتدًّا ساطعًا ومكشوفًا.

وفجأةً أصبح مكشوفًا للغاية لدرجة أن كينجو انزعج بشدة، وكان يشعر بالمسئولية عن ذلك.

في طريق عودته من العمل في الحقول، لم يستطِع شقيق كينجو الكبير إلا أن يبتسم عندما شاهد البستان على حالته تلك. لكن عندما رأى كينجو يقف هناك ووجهُه خالٍ من التعبير، قال له بلطف: «هيا، دعنا نجمع هذه الأشياء. لقد أصبح لدينا ما يكفي لإشعال حريقٍ جيد هنا. كما أن البستان يبدو الآن أفضل بكثير أيضًا.»

هذا الكلام جعل كينجو يشعُر أخيرًا ببعض الارتياح، ثم ذهب كلاهما ليقوما بجمع كل الفروع التي كان قطعَها من تحت الأشجار. كان العشب هناك قصيرًا وناعمًا؛ لقد بدا في الحال شبيهًا بذلك النوع من الأماكن الذي قد تجد فيه رجُلَين عجوزَين يلعبان الشطرنج.

لكن في اليوم التالي، وبينما كان كينجو يجمع حبَّات الفول المنخورة بالدود في مخزن الحبوب، سمع صوت ضجةٍ كبيرة في بستانه. من جميع الاتجاهات كانت تصل إليه أصواتٌ تُصدِر الأوامر، وأصواتٌ تشبه الأبواق، وأقدامٌ تضرب على الأرض بقوة، ثم فجأةً انفجار بالضحك كان يجعل جميع الطيور في الجوار تطير بعيدًا في السماء. مذهولًا، خرج كينجو ليرى ما الذي كان يجري.

وهناك، ووسط دهشته، وجد مجموعةً تتكون من نحو خمسين طفلًا، كانوا في طريقهم لمنازلهم عائدين من المدرسة، وقد كانوا يسيرون جميعًا في صفوف على نحوٍ عسكري بتناغُم بين صفوف الأشجار.

في اتجاه كان يسلكه المرء، كانت الأشجار بالطبع تُشكِّل جادة. وأشجار الأرز نفسها بأرديتها الخضراء بدت كما لو كانت أيضًا تسير في الموكب العسكري؛ مما أضاف للأطفال مزيدًا من المتعة. كانوا بوجوههم المتورِّدة ينادون بعضهم على بعض بأصواتٍ عالية تشبه صياح سربٍ من طيور الصُّرَد وهم يسيرون جيئةً وذهابًا.

خلال وقتٍ قصير جدًّا، أُطلقَ على صفوف الأشجار أسماء؛ منها شارع طوكيو، وشارع روسيا، والشارع الغربي. كان كينجو مسرورًا. وبينما كان يُراقِب الأطفال من خلف شجرة، فتح فمه على مصراعَيه وضحك بصوتٍ عالٍ.

ومنذ ذلك الحين أصبح الأطفال يتجمَّعون كل يوم في بستانه. المرات الوحيدة التي لم يأتوا فيها كانت عند نزول المطر. في تلك الأيام كان كينجو يقف وحيدًا خارج البستان مُبللًا بشدة في وسط المطر المنهمِر من السماء البيضاء.

كان الناس يقولون بابتسامة وهم يمُرُّون بجانب البستان مرتدين معاطفهم المطرية المصنوعة من القش: «في نوبة حراسة مرةً أخرى في البستان، يا كينجو!» كانت تُوجد مخاريط بنية على أشجار الأرز، ومن قِمم الفروع الخضراء الجميلة كانت تتناثر قطراتُ مطرٍ صافية باردة. بفمٍ مفتوح على مصراعَيه كان كينجو يضحك بصوتٍ عالٍ، ويقف هناك لساعات دون أن يشعُر بأي تعب والبخار يتصاعد من جسده.

لكن، في صباحٍ ضبابي، اصطدم كينجو بهيجي حيث كان الناس يقومون بجمع الأسل من أجل استخدامه في تغطية الأسقف. نظر هيجي حوله باهتمام، ثم صرخ في كينجو بتعبيرٍ خبيث وبغيض على وجهه قائلًا:

«كينجو! اقطع أشجارك!»

«لماذا؟»

«لأنها تحجُب ضوء الشمس عن حقلي.»

نظر كينجو لأسفل نحو الأرض دون أن ينبس بكلمة. في الواقع، إن ظلال أشجار الأرز لم تكن تمتد لأكثر من ست بوصات داخل حقل هيجي. والأكثر من ذلك أن الأشجار كانت تُشكِّل حمايةً حقيقية للحقل من الرياح الجنوبية القوية.

«اقطعها! هيا، اقطعها!»

قال كينجو بخوفٍ شديد، رافعًا رأسه: «لا! لن أقطعها.» كانت شفتاه ترتجفان كما لو أنه كان على وشك أن ينفجر بالبكاء في أي لحظة. لقد كانت هذه المرة الوحيدة في حياته بأكملها التي يقول فيها شيئًا يتحدَّى به شخصًا آخر.

لكن هيجي، الذي لم يُرد أن يعارضَه شخصٌ بسيط مثل كينجو، اعتلاه الغضب فجأةً، وبدأ، بعد أن شدَّ قامته، يلكمُه في وجهه. لقد لكمَه بقوة، أكثر من مرة.

استسلم كينجو لضرباتِ هيجي في صمت، وهو يُغطِّي خده بإحدى يدَيه، ولكن سرعان ما أظلم كل شيء من حوله وبدأ يترنَّح. عندها لا بد أن هيجي حتى بدأ يشعُر بعدم الارتياح؛ فقد توقَّف بشكلٍ مفاجئ عن الضرب، ثم طوى ذراعَيه ومشى بعيدًا بتجهُّم عَبْر الضباب.

في ذلك الخريف مات كينجو بمرض التيفوس. وكان هيجي قد مات أيضًا بالمرض نفسه قبله بعشرة أيام فقط. لكن كان الأطفال يجتمعون في البستان تمامًا كما كانوا يفعلون من قبلُ كل يوم، غير مهتمين على الإطلاق بأشياء من هذا القبيل.

في السنة التالية، أصبحَت هناك سكةٌ حديدية في القرية، وقد بُنيَت محطةٌ على بعد ميل أو نحو ذلك من منزل كينجو. وقد ظهرَت هنا وهناك مصانع للأواني الخزفية ومصانع للحرير. ومع مرور الزمن، بُنيَت منازل فوق الحقول وحقول الأرز الموجودة في أنحاء المكان. وقبل أن يدرك الناس ذلك، كانت القرية قد تحوَّلَت إلى مدينةٍ مكتملة الأركان. غير أنه ومن قبيل الصدفة فإن بستان كينجو كان هو الحقل الوحيد الذي بقي على حاله. وعلاوةً على ذلك فإن الأشجار كانت بالكاد يصل ارتفاعُها إلى عشر أقدام، واستَمَر الأطفال في التجمُّع هناك كل يوم. ونظرًا لأن مدرسةً ابتدائية كانت قد بُنيَت بالقرب منه، فقد أصبَحوا يشعرون بالتدريج بأن البستان ومساحة العشب الممتدة إلى الجنوب منه كانا يُعَدان امتدادًا لملعبهم.

الآن أصبح والد كينجو أبيض الشعر تمامًا. وهذا ليس مفاجئًا؛ فقد مضى ما يقرب من عشرين عامًا على وفاة كينجو.

في أحد الأيام، جاء عالمٌ شاب، كان قد وُلد فيما كان يُعرف آنذاك بالقرية، والذي أصبح الآن أستاذًا في إحدى الجامعات الأمريكية، لزيارة منزله القديم لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا. لكن رغم محاولاته الحثيثة، لم يستطِع أن يجد أيَّ أثَر للغابات والحقول القديمة. وحتى سكان المدينة كانوا في الغالب من الوافدين الجدد من مناطقَ أخرى.

خلال زيارته، جرَت دعوة الأستاذ الجامعي من قِبل المدرسة الابتدائية لزيارتها وإلقاء محاضرة عن البلدان الأجنبية في قاعة المدرسة. عندما انتهت المحاضرة، خرج إلى ملعب المدرسة برفقة المدير والمعلمين، ثم ساروا باتجاه بستان كينجو.

فجأةً توقف الرجل وعدَّل نظارته أكثر من مرة كما لو أنه كان غير متأكد مما يرى. وفي النهاية قال، تقريبًا لنفسه: «عجبًا، ما زال هذا المكان تمامًا كما كان من قبلُ! حتى الأشجار كما هي. إذا حدث تغيير، فهو أنها تبدو أصغرَ حجمًا. ويُوجد أطفالٌ يلعبون هناك أيضًا. أكاد أشعُر أنني قد أجد نفسي وأصدقائي القدامى بينهم.» ابتسَم، كما لو أن الذكرى تبعث في نفسه السكينة، ثم قال للمدير: «هل هذا البستان هو الآن جزء من ملعب المدرسة؟»

«لا. إن الأرض تعود ملكيَّتُها لأهل ذلك المنزل الذي يقع هناك، لكنهم يسمحون للأطفال باللعب فيها متى يشاءون. لذلك عمليًّا أصبحَت نوعًا ما ملعبًا إضافيًّا للمدرسة.»

«يبدو أن هذا أمرٌ غير عادي، أليس كذلك؟ أتساءل عن السبب فيه.»

«منذ أن بُني هذا المكان والجميع يحُثُّهم على بيع البستان، لكن الرجل العجوز، على ما يبدو، يقول إنه هو الشيء الوحيد الذي يُذكِّره بابنه كينجو، وإنه لن يتخلى عنه مطلقًا مهما بلغ عَوزُه.»

«نعم، نعم ... أتذكَّر ذلك. كنا نعتقد أن كينجو كان أحمقَ قليلًا. كان دائمًا يكبتُ ضحكه. اعتاد أن يقف هنا كل يوم ويراقبنا ونحن أطفالٌ نلعب. يقولون إنه هو من زرع كل هذه الأشجار. آه، حسنًا، من بإمكانه أن يُقرِّر مَن الحكيم ومَن الأحمق؟ ... لكن، كما تعلم، هذا البستان سيبقى منتزهًا جميلًا للأطفال. ماذا عن ... ماذا لو أطلقتم عليه اسم «بستان كينجو» واحتفظتم به على هذا النحو إلى الأبد؟»

«يا لها من فكرةٍ رائعة! سيُعجَب بها الأطفال!»

وفعلًا كان هذا ما حدث.

وفي وسط العشب تمامًا أمام بستان الأرز، نصَبوا لوحًا صخريًّا زيتوني اللون منقوشةً عليه عبارة «بستان كينجو».

تدفقَت الرسائل والتبرُّعات على المدرسة من محامين وضباط جيش وأصحاب مزارعَ صغيرة في أراضٍ بعيدة، الذين كانوا جميعًا تلاميذ في المدرسة.

بكى جميع أفراد عائلة كينجو؛ إذ كانوا مسرورين جدًّا مما حدث.

مَن بإمكانه تقدير عدد الأشخاص الذين عرفوا ماهية السعادة بفضل أشجار الأرز في بستان كينجو، بلونها الأخضر الداكن الجميل، ورائحتها المنعشة، وظلالها الباردة في الصيف، والعشب الممتد أسفلَها تحت بريق ضوء القمر الباهت؟

أثناء هطول المطر، كانت الأشجار تقطُر قطراتِ ماءٍ صافيةً باردة كبيرة على العشب في الأسفل، وعند شروق الشمس كانت تنشُر الهواء النقي المتجدد حولها، تمامًا كما كانت تفعل عندما كان كينجو موجودًا هناك.

الكُمَّثرى البرِّية

كان سلطعونان صغيران يتحدَّثان معًا في أعماق المياه المُعتِمة.

«لقد ضحك كرامبون، كما تعلم.»

«لا، لقد قهقه.»

«كان يضحك وهو يرقص.»

«لا، كان يُقهقِه.»

كانت المياه من حولهما وفوقهما زرقاءَ وداكنة. وقد تدفقَت الفُقاعات الداكنة بطول السطح الأملس.

«كرامبون كان يضحك، كما تعلم.»

«لا، كان كرامبون يُقهقِه.»

«لكن لماذا كان يضحك، إذَن؟»

«لا أعرف.»

تدفقَت الفقاعات بعيدًا. السلطعونان الصغيران، أيضًا، أطلق كل واحد منها خمس أو فقاعات ستًّا على نحوٍ متوالٍ. متمايلةً وهي تلمع مثل الزئبق، صَعِدَت الفقاعات بشكلٍ قطري نحو السطح.

مرَّت سمكةٌ فوقهما، وهي منقلبة على بطنها الفضي.

«لقد مات كرامبون.»

«لقد قُتل كرامبون!»

«نعم، لقد قُتل!»

«لكن لماذا قُتل إذَن؟»

قال الأكبر سنًّا من بينهما، مُلقيًا اثنتَين من أرجله الأربعة على جانبه الأيمن أعلى رأس أخيه المُسطَّح: «لا أعرف.»

عادت السمكة مرةً أخرى وذهبَت في اتجاه التيار.

«لقد ضحك كرامبون!»

«نعم، ضحك.»

فجأة، انسكَبَت أشعة الشمس الذهبية داخل المياه كما في الحُلم.

حُزمة من الضوء المنبعث من الأمواج كانت تتمايل من فوق، وقد أخذَت تتمدد وتتقلص على الصخر الأبيض لقاع النهر. كانت الخطوط المستقيمة لظل الفقاعات وقِطع الحُطام تقف على شكل خطوطٍ مائلة ومتوازية في الماء.

في فَورةِ ماءٍ مفاجئة تداخلَت مع الضوء الذهبي من حولهم جميعًا، أخذَت السمكة تسبح عكس التيار مرةً أخرى، وجسدُها يتوهج ببريقٍ غريب له لون الفولاذ.

سأل السلطعون الأصغر محركًا عينَيه كما لو أن الضوء كان يبهره: «لماذا تستمر تلك السمكة في المجيء والذهاب بهذه الطريقة؟»

«إنها تقوم بشيءٍ غير جيد. إنها تصطاد شيئًا ما.»

«تصطاد شيئًا ما؟»

«مم.»

مرةً أخرى سبحَت السمكة في اتجاه التيار. في هذه المرة سبحَت ببطء وبهدوء دون تحريك الزعانف أو الذيل، مما سمح للتيار بسحبها معه وفمُها مفتوحٌ في حلقةٍ دائرية.

فانزلق ظلها أسودَ وساكنًا فوق حُزمة الضوء على مجرى النهر.

«لماذا تقوم السمكة ...؟»

ولكن في تلك اللحظة حدث شيءٌ مدهش. مع وابلٍ من الرغوة على السطح، غطس في المياه ما بدا وكأنه رصاصةٌ زرقاء متلألئة.

إن الشيء، الذي رآه الأخ الأكبر بوضوحٍ تام، كان أسوَدَ اللون ومدبَّبًا من أحد طرَفَيه كساق البوصلة. لكن قبل أن يتمكن من فحصها بشكلٍ جيد، صدر من بطن السمكة الباهت وميضٌ من الضوء، وبدا أنها كانت تتجه لأعلى. ثم لم يكن هناك شيء؛ إذ اختفى كلٌّ من الشيء الأزرق والسمكة مُخلِّفَين وراءهما حُزمةَ الضوء الذهبية التي كانت تتمايل والفقاعات التي تتدفق بجانبها.

وقف الاثنان متحجِّرَين في مكانهما، غير قادرَين على قول أي شيء.

ظهر السلطعون الأب.

«ماذا حلَّ بكما، إذَن ... لمَ كل هذا الارتعاش؟»

«شيءٌ غريب حدث هنا الآن.»

«أي نوع من الأشياء؟»

«إنه أزرق ولامع. لكن أسودُ ومدبَّب في أحد طرفَيه. مثل هذا. لقد غاص لأسفل وصَعِدَت السمكة لأعلى!»

«هل عيناه حمراوان؟»

«لا أدري.»

«لا تدري، ها؟ ... حسنًا، إنه طائر ... طائر الرفراف، هكذا يَدْعونه. كل شيء على ما يُرام ولا داعي للقلق. ليس له علاقة بنا.»

«لكن إلى أين ذهبت السمكة؟»

«السمكة؟ لقد ذهبَت إلى مكانٍ ما بغيض.»

«أبي، أنا خائف.»

«حسنًا، اهدأ. كل شيء على ما يُرام. توقف عن القلق. انظر هناك، بعض أزهار البتولا قد جاءت تطفو فوق. أليست جميلة؟»

كان حشدٌ من البتلات البيضاء ينساب مع الفقاعات.

قال الأخ الأصغر: «أبي، أنا خائفٌ أيضًا.»

تمايلَت حُزمة الضوء وهي تتمدَّد وتتقلَّص، وانزلَقَت ظلال البتلات بهدوءٍ فوق الرمال.

الشهر الثاني عشر

أصبح السلطعونان الصغيران أكبر بكثيرٍ الآن، وتغيَّر المشهد بشكلٍ كامل في قاع النهر من الصيف إلى أواخر الخريف.

كانت حصًى بيضاء ملساء قد انتهى بها الحال في القاع؛ وقد حمل التيار شظايا صغيرة وحادَّة من البلور وشظايا من الميكا وسقطَت هناك.

على السطح، بدت الأمواج وكأنها نيرانها الزرقاء الباهتة تُومض وتخمُد بالتناوب. وفي أعماق المياه الباردة كان ضوء القمر الذي يشبه لونُه لونَ زجاجةٍ خضراء يتخلل كل شيء. وكانت كل الأنحاء يسودها الصمت، باستثناء صوت الأمواج القادم من مسافةٍ بدت بعيدةً جدًّا.

كان ضوء القمر ساطعًا بشدة والمياه صافية جدًا لدرجة أن السلطعونَين الصغيرَين، بدلًا من الذهاب للنوم، خرجا وبقيا هناك بعض الوقت، صامتَين ينفُخان الفُقاعات ويراقب السطح أعلاهما.

قال الصبي الأكبر: «فقاعاتي أكبر، تمامًا كما تتوقع.»

قال شقيقه: «لا ... أنت تنفُخها كبيرة عن قصد. أستطيع أن أنفُخها كبيرة أيضًا، إذا بذلتُ مجهودًا أكبر.»

«انطلِق، إذَن. أرِني ... هذا كل ما تستطيع فعله. هيا، راقب، ... سوف أنفُخ البعض الآن. هل ترى؟ إنها كبيرة، أليست كذلك؟»

«إنها ليست أكبر. إنها بحجم فقاعاتي.»

«فقاعاتك تبدو كبيرة لأنك قريبٌ منها. دعنا نحاول أن ننفُخها معًا. حسنًا؟ لنبدأ!»

«لكن فقاعاتي أكبر ... انظر.»

«هل تعتقد ذلك؟ إذَن سوف أنفُخ مزيدًا منها.»

«هذا ليس عدلًا! يجب ألا تتمدَّد هكذا.»

ظهر السلطعون الأب مرةً أخرى.

«هيا تعالَا، لقد حان وقت الذهاب للفراش! الوقت متأخر ... لن أدعكما تخرُجان غدًا.»

«أبي، أيٌّ منا ينفخ الفُقاعات الأكبر؟»

«عجبًا، أخوك، على ما أعتقد. أليس كذلك؟»

قال الأخ الأصغر وهو على وشك البكاء: «كلا، الأمر ليس كذلك! فُقاعاتي أكبر من فُقاعاته!»

في ذلك الوقت، حدث هناك تناثر كبير.

جسمٌ كبير، ومستدير وداكن سقَط من السطح، وغاصَ لأسفل، ثم طفا لأعلى مرةً أخرى، مصحوبًا بوميضٍ من البقع الصفراء.

صرخ السلطعونان الصغيران، مع جذب رأسَيهما للداخل: «طائر الرفراف!»

مد والدهما عينَيه وكأنهما تلسكوبان إلى أبعد نقطةٍ يمكن أن تصلا إليها، وألقى نظرةً فاحصة وقال:

«لا، ليس الأمر كذلك، إنها ثمرةُ كُمَّثرى برية. إنها تطفو بعيدًا ... دعونا نلحق بها. مم، رائحتها طيبة!»

كانت المياه من حولهم بالفعل مليئة برائحة الكُمَّثرى البرية.

ذهبَت السلطعونات الثلاثة وراء ثمرة الكُمَّثرى وهي تطفو في الماء. بدت السلطعونات المائلة على جانب وكأنها تتمايل، في أزواج، برفقة ظلالها السوداء فوق قاع النهر، وهي تتبع الظل الدائري للكُمَّثرى البرية.

على الفور تقريبًا، بالرغم من ذلك، بدأَت المياه تُبقبِق، وأطلقَت الأمواجُ على السطح وميضًا أزرق أكثر من ذي قبل، ومالت الكمَّثرى على جانبها، ثم توقفَت؛ إذ علقَت في الأغصان المنخفضة لشجرة يلعب من حولها أقواس قزح ضوء القمر.

«هناك، انظرا ... إنها كمَّثرى برية. إنها جميلة، وناضجة ورائحتها طيبة، أليس كذلك؟»

«تبدو جيدةً بما يكفي لتناوُلها الآن يا أبي.»

«انتظرا فقط بعض الوقت. يومان آخران وستنزل إلى القاع، ثم ستُنتِج بعض النبيذ اللذيذ ... كل ذلك من تلقاء نفسها، دون أن نفعل أي شيء على الإطلاق. هيا، الآن، دعونا نعود إلى المنزل للنوم!»

عاد السلطعونات الثلاثة، الأب والابنان، إلى منزلهم حيث الحُفر التي يعيشون فيها.

ومضت الأمواج على نحوٍ أكثر سطوعًا، مصدرةً نيرانًا زرقاء شاحبة، تمامًا كما لو كانت تزفر غبارًا من الماس.

في أعماق الغابة

قال: «أسلافنا، الآن ... في نحو الوقت الذي نزلَت فيه الطيور لأول مرة من السماء، كانت جميعها بيضاء تمامًا.»

كانت أمسيةً هادئة بلا رياح، والمنجل الذهبي كان يلمع عاليًا في السماء الغربية، وكان المتحدث ذكَر بومٍ عجوزًا يجلس على غصنٍ منخفض لشجرة صنوبر في الغابة.

لكنني لم أكن واثقًا كثيرًا فيما كان يقوله ذكَر البوم. للوهلة الأولى، بوجنتَيه المنتفختَين وميله لعدم الحديث ثم حديثه الجدي، وعيناه المفتوحتَين على مصراعَيهما طوال الوقت ورأسه الضخم الذي كان يومئ به هناك في ظلال الشجرة ذات اللون الأزرق المائل إلى الأسود — عجبًا — بدا صادقًا وموثوقًا به بشدة لدرجة أن أي شخص كان يمكن أن يُخدع في البداية. غير أنني لم أكن لأثق به بتلك السهولة.

بالرغم من ذلك، في هذا المساء الساكن، وتحت الوميض الفضي لضوء القمر، شعَرتُ بالفضول للتوقف والاستماع إلى ما كان على الطائر العجوز الكبير أن يقوله؛ إذ في ضوء ما سمعتُه بالفعل، قد تكون هي القصة الشهيرة عن طائر الحِدَأة الذي كان يمارس الصباغة. وقد كان من الممتع معرفةُ ما إذا كان بإمكانه المُضي فيها دون الوقوع في أي تناقُضات. لذلك حافظتُ على الجدية في وجهي قَدْر الإمكان وقلت:

«حسنًا ... لقد تساقطَت الطيور من السماء كالمطر، أليس كذلك؟ وكل واحدٍ منها كان أبيض اللون، ها؟ إذَن كيف أصبحَت جميعها مختلفةً كما هي عليه الآن ... أعني، بعضها بلون صدف السلاحف والبعض الآخر أحمر، والبعض الثالث أسود اللون؟»

عندما بدأتُ في الكلام، كان ذكَر البوم العجوز قد رمش بعينَيه بسرعة وكأنه يقول إنني ابتلعتُ الطُّعم بلطف، لكن عندما قلت «بلون صدف السلاحف»، تجهَّم فجأة.

«الآن لقد خرجت بعيدًا عن الموضوع. «لون صدف السلاحف» يُستخدم مع القطط. لا تُوجد أي طيور بلون صدف السلاحف.»

هذه المرة كان أنا من شعَر بأنه قد ابتلع الطُّعم.

لذلك قلتُ متعجرفًا: «لذا ... كان لا يُوجد إذَن قططٌ بين الطيور؟»

عندها تمَلمَل البوم بامتعاض قليلًا، فاغتنمتُ الفرصة.

وقلتُ: «أنا متأكد بأنني قد سمعتُ بوجود قط بين الطيور. صقر الليل ذكَر واحدًا والغراب أيضًا.»

حاول البوم تجاوُز هذا بابتسامةٍ كئيبة.

وقال: «يبدو أن لديك معارفَ كثيرة.»

لكنني لم أكن لأدعه يُفلِت بهذا.

فقُلت: «على أي حال، هل كان يُوجد واحد؟ أم كان صديقك صقر الليل يكذب؟»

تمَلمَل البوم لبعض الوقت.

وقال فجأةً قبل أن يستدير جانبًا: «حسنًا، إنه لقب.»

صِحت متعجبًا: «أوه! لقب؟ أتساءل لمن كان. لمن، ها؟ هيا أخبرني من هو!»

كان ذكر البوم في ذلك الوقت قد أنزل أحد مخالبه من الفرع الذي كان يقف عليه، وكان يرفعه عاليًا ليفحصه في مقابل القمر، وهو يشعر بالضيق بشكل رهيب. لكن أخيرًا وبأكثر النظرات البغيضة التي يمكن أن يستجمعها، اضطُر إلى الاعتراف قائلًا:

«أنا.»

«لقد فهمت. إنه اسم شهرتك، ها؟ إذَن يُطلِقون عليك اسم «القط»، أليس كذلك؟ إنك لا تشبه القط ولو قليلًا.» وألقيتُ نظرةً طويلة على وجهه، معتقدًا طوال الوقت بأن هذا هو ما كان يبدو عليه بالضبط.

بدا فجأةً ذكَر البوم، الذي كان قد أشاح بوجهه عني، وكانت عيناه تطرفان كما لو كان بسبب الانبهار بضوء القمر، وكأنه على وشك البكاء.

شعرتُ بالخجل الشديد. لم أقصد أن أجعل هذا المخلوق المسكين يبكي بالفعل من جرَّاء مضايقتي الخرقاء له. علاوةً على ذلك، سيكون من المؤسف مضايقتُه بحيث لا يسردُ القصة التي كان قد بدأ فيها بسعادةٍ بالغة.

قلتُ له: «على الرغم من ذلك، إذا فكَّرتَ بالأمر فإنه بالفعل تُوجد كل أنواع الطيور بشتى أنواع الأشكال والأصوات، لكن من المحتمل جدًّا أنها كانت جميعُها بيضاء بالفعل

يومًا ما. أتساءل كيف أصبحَت مختلفة جدًّا. من المعروف أن مالك الحزين واللقلق ناصعا البياض حتى الآن؛ لذا أعتقد أن بعض الطيور قد بَقيَت على حالها. ...»

بينما كنتُ أتكلم، وجَّه ذكَر البوم وجهه نحوي تدريجيًّا، وكان الآن يومئ برأسه قليلًا بالموافقة.

وقال: «أنت مُحقٌّ تمامًا في افتراضاتك. كان يُوجد في الواقع قَدرٌ كبير من الارتباك، عندما كانوا جميعًا باللون الأبيض.

على سبيل المثال، كان طائر الدرَّاج يُنادي طائرًا آخر من الخلف قائلًا: «طاب نهارك، يا سيد قرقف»، وكان ينظر الطائر الآخر حوله بتعبيرٍ غريب، فيرى أنه كان طائر سسكين. أو ربما بعض الطيور الصغيرة كانت تقف على شجرة وتُنادي على طائرٍ آخر رأوه قادمًا من بعيد: «مرحبًا بك، يا سسكين!» فقط لجعل الطائر الآخر يطير في غضب لأنه في الواقع كان طائر دُرسة المرج.

لم يشعُر الطيور بالإهانة فحسب، لكن أيضًا شئونهم العملية كانت في بعض الأحيان تتعقد للغاية لدرجة أنهم كانوا يُضطرُّون إلى استدعاء القاضي كوندور، حسبما يُقال؛ وحتى هو لم يكن بإمكانه حل المشكلات.»

قُلت: «يمكنني تخيُّل ذلك. لا بد أنه كان أمرًا صعبًا للغاية. إذَن، ماذا حدث بعد ذلك؟»

في الواقع، ما إن سألتُه هذا السؤال حتى لاحظتُ أن ورقة شجرة بلوط ليست ببعيدة، كانت تهتز وتلمع تحت ضوء القمر، فأخذتُ أتساءل لماذا تهتزُّ ورقة شجرة بلوط من تلقاء نفسها.

غير أن ذكَر البوم، الذي لم يلاحظ هذا الانقطاع في الانتباه، بدا سعيدًا، وواصل ببطءٍ سَرْد قصته.

«لذلك كانت جميع الطيور تقول في نفسها بيأس: ما لم نتمكن من إيجاد طريقة للخروج من هذا المأزق، فهذا سيعني نهاية حضارة الطيور.»

«مم، أعتقد أنها كانت ستعني هذا. على أي حال، ماذا حدث بعد ذلك؟»

«بدأ طائر الحِدَأة، الذي رأى كيف كانت تسير الأمور، عملَه كصبَّاغ.»

وجدتُ نفسي أبتسم، إذَن في النهاية كانت تلك هي قصة طائر الحِدَأة. بدا ذكَر البوم متفاجئًا بعض الشيء، فسألتُه على عَجَل:

«لقد بدأ طائر الحِدَأة متجرَه في مجال الصباغة، أليس كذلك؟ بلى، بالطبع ... لديه سيقانٌ طويلة، تلك التي أتخيل أنها لا بد قد ساعدَتْه عندما كان يُمسك بالأشياء ويغمسُها في وعاء الصبغة.»

«هذا صحيح، وكان جيدًا جدًّا في ذلك أيضًا. بالطبع، بدأ بعمل كل ذلك بهدف تحقيق الربح، ولكن، نعم، كانت سيقانه تلك مناسبة تمامًا لوضع الطيور في وعاء الصبغة.»

أدركتُ بفزَع أن ما أسميتُها «الأشياء» التي كان يجب صبغها كانت بالطبع الطيور نفسها؛ كان هذا يكفي لإثارة غضب أي طائر بوم. شعَرتُ بالتوتر، لكن طائر البوم تابع حكايته. في الواقع، بدا أنه كان مستمتعًا بوقته؛ لأنه لم تكن هناك ريحٌ في تلك الليلة، وكانت الغابة ساكنةً مثل بركة طاحونة، وكان هناك منجلٌ فضي عجوز في السماء الغربية، بينما كانت أشجار البلوط والصنَوبَر وباقي الأشجار تقف صامتة؛ إنها لم تكن بنائمة لكنها كانت تستمع، كما بدا، لقصته.

«لن تتصور مدى سعادة الطيور. الطيور الصغيرة التي كان دائمًا يحدُث الخلط بينها — عصافير الدوري، وطيور القرقف، وطيور النمنمة، والطيور البيضاء العيون، وطيور الدُّرسة، وطيور البيوي، وطيور دخلة الأدغال — زقزقَت جميعُها بصوتٍ عالٍ، وقفزَت في أرجاء المكان بسرور، ثم انطلقَت مباشرةً إلى متجر طائر الحِدَأة الخاص بالصباغة.»

لقد أصبحتُ مهتمًّا بشدةٍ الآن بالقصة.

فقلتُ: «لقد فهمتُ. جميع الطيور ذهبَت لتصبغ نفسها، أليس كذلك؟»

«لقد فعلَت ذلك بالتأكيد! حتى الطيور الكبيرة كالنَّسر واللقلق، سارت جميعها إلى متجره. وأرادت كلها أن تُصبَغ بشكلٍ مختلف. كان أحدهم يقول: «بالنسبة لي أريد شيئًا بسيطًا للغاية يا صديقي الطيب.» وكان آخر يطلب قائلًا: «لا شيء مبهرج؛ فقط رماديٌّ ملائم على الأكثر.» وكان لدى طائر الحِدَأة من المهارة ما مكَّنه من أن ينجز كل شيء كما كان يُطلب منه دون إبعاد أي أحد.

لقد حفر خمس حُفَر مستديرة في الطين أمام ضفة التربة الحمراء بجوار النهر وأذاب الصبغات فيها. ثم كان يُمسك الطائر بإحكام في منقاره، ويغمسه، وهو واقف وساقاه متباعدتان، في السائل. الشيء الذي كان الأصعب على الاطلاق، والذي بدا أكثر سوءًا، كان صبغ الرأس والوجه. كان بإمكانك صبغ الرأس بغمس الطائر في وضع مقلوب، لكن عند صبغ الوجه كان عليك وضع المنقار في سائل الصبغة، وهو الأمر الذي بدا أن جميع الطيور كانت تجد صعوبة في تحمُّله.

إذا أخذتَ نَفسًا في اللحظة الخاطئة، فإن سائل الصبغة — الأسود أو الأحمر أو غيرهما — سيدخل إلى معدتك حتى يصل إلى أحشائك. لذلك كان لا يُوجد حل سوى أن تكون متأكدًا من ملء صدرك بكميةٍ جيدة من الهواء — كما هو الحال في تمارين التنفس العميق — قبل غمس وجهك في سائل الصبغة ثم إخراج الهواء الفاسد بمجرَّد الانتهاء من الأمر.

ومع ذلك، يقولون إن الطيور الصغيرة، برئتَيها الصغيرتين جدًّا بحيث لا تستطيع حبس أنفاسها لفترة طويلة، كانت تدفع برءوسها إلى خارج السائل وهي تُزقزِق بذعر كما لو أنه كان يُحاوِل قتلها. لذلك بطبيعة الحال كان من الصعب صبغ وجوهها. فالطائر الأبيض العينَين، على سبيل المثال، ترك أجزاءً بيضاء حول عينَيه دون أن تُصبغ، وهكذا الحال بالنسبة لطائر الدُّرسة ولكن على خدَّيه.»

ظننتُ أنه من المُسلِّي لي التقاط قليل من الهفوات في هذا السرد.

فقلتُ: «أتساءل، على الرغم من ذلك. ... أنا شخصيًّا أظن أن بعض أجزاء هذين الطائرَين تُركَت بيضاءَ لأنهما أرادا أن تكون كذلك.»

بدا ذَكَر البوم مرتبكًا قليلًا، وأنعم النظر في أعماق الغابة المظلمة من خلفه قبل أن يقول:

«لا، أخشى أنك مخطئٌ هنا. أنا متأكد من أن سبب ذلك هو أن لديهما رئتَين صغيرتَين.»

قلتُ في نفسي: لقد نلتُ منك.

سألتُه: «إذَن لماذا لدى هذين الطائرَين بُقعٌ بيضاء لها الشكل نفسه في المكان نفسه على جانبَيها؟ إنها مصادفةٌ عجيبة. إذا كانتا قد توقفتا عن الصباغة لأنهما لم تتمكنا من حبس أنفاسهما لوقتٍ أطول، فعليك أن تتوقع أن يكون لديهما، لنقُل، بياضٌ حول العين من جانبٍ واحد وعند أعلى الجبهة على الجانب الآخر.»

أغلق البوم عينَيه لبرهة. كان القمر شديد السطوع بلونٍ مائل إلى الأزرق كالرصاص. في النهاية، فتح عينَيه وقال بصوتٍ أكثر هدوءًا:

«أتصوَّر أنهما قد صبغَتا الجانبَين بشكلٍ منفصل.»

ابتسمتُ. وقلت: «إذا فعلتا كذلك، فهذا يجعل الأمر أكثر غرابة، أليس كذلك؟»

قال ذكَر البوم بهدوء ورباطة جأشٍ شديدَين مرةً أخرى: «لا يُوجد ما هو غريب في ذلك. إن حجم الرئتَين يبقى كما هو طوال الوقت؛ لذا ينفَد الهواء منهما عند النقطة نفسها.»

قلتُ: «همم، أعتقد ذلك. ...» من الناحية النظرية على الأقل كانت حُجَّته منطقية. لقد خرج الرفيق من المأزِق ببراعة.

بدأ ذَكَر البوم الكلام مرةً أخرى: «وهكذا ...»، ثم صمت. لقد شعرتُ أنه قد تضايق من الجدال، ولم يعُد يشعر بالرغبة في المتابعة. هذا جعلني أشعر بالأسف تجاهه مرةً أخرى.

قلتُ له: «إذَن فقد استمَرَّ في ذلك بثبات، ولم يترُك سوى طيور الغرنوق ومالك الحزين التي لم تُصبغ قَط، أليس كذلك؟»

«أوه، أنت مخطئٌ هنا أيضًا؛ بالنسبة لطائر الغرنوق، فقد طلب إضافة لطخةٍ سوداءَ صغيرة في الطرف العُلوي من ذيله. وقد حصل على ما أراده بالضبط.»

ابتسَم ذكَر البوم ابتسامةً عريضة. لقد استغل بمهارةٍ سؤالي لصالحه، هكذا اعتقدتُ وأنا أشعر ببعض الضيق. لكن في نهاية الأمر كنتُ قد طرحت السؤال بقصد أن أشجِّعه في المقام الأول؛ لذلك أومأتُ برأسي دون أن أقول أي كلمة.

«إن طائر الحِدَأة أصبح أكثر رضًا عن نفسه. لقد كسب كثيرًا من المال، وأخذ يتصرَّف بغرور؛ ففي الواقع، بدأ يتصرَّف كما لو كان أحد أعظم المحسنين الذين عرفَتْهم الطيور على الإطلاق، وفقد الاهتمام بعمله. لقد صبَغ نفسه، بالطبع، بخطوطٍ رائعة زرقاء وصفراء، وكان فخورًا جدًّا بها، أيضًا.

ومع ذلك استمَر، على مضض، في أداء مهمتَين أو ثلاث يوميًّا، لكن العمل كان غيرَ مُتقَن. ففي حال أنك طلبتَ منه أن يصبغك بنقشٍ جميل بألوان البني والأبيض والأسود، فإنه كان سيُغفِل اللون الأسود، أو إذا طلبتَ منه أن يصبغك بخطوطٍ حمراء وسوداء فإنه كان سيأتي بشيءٍ غير منسَّق كتلك العلامات الموجودة على طائر السنونو. كان العمل قد أصبح عبئًا كبيرًا عليه. وفي الواقع، في النهاية لم يتبقَّ سوى حَفنة من الطيور دون صبغ. الغراب، ومالك الحزين، والبجعة؛ فقط هؤلاء الثلاثة.

كان الغراب يأتي ليضايقه كل يوم: «ستفعل ذلك حقًّا اليوم، أليس كذلك؟»

فكان طائر الحِدَأة يرُد دائمًا: «تعالَ غدًا، وحاوِل مرةً أخرى.»

وهكذا استمَر طائر الحِدَأة في تأجيل صبغ الغراب حتى غضب الغراب أخيرًا، وذات يوم قال له بجدية: «ما الذي تعتقد أنك تفعله؟ لقد أتيتَ إلى هنا لأنك وضعتَ لافتةً مكتوبًا عليها «صبَّاغ». إذا كنتَ بصدد إغلاق المتجر، فأغلِقه. لا يمكنك الاستمرار في تأجيل الأمور إلى الأبد. إذا كنت ستصبغني، إذَن فتعالَ وافعل ذلك الآن. إذا لم يكن الأمر كذلك، إذَن ... حسنًا، فستعرف ذلك قريبًا!»

كان طائر الحِدَأة يُماطِل كالمعتاد، لكن فَورة الغضب هذه جعلَتْه يفكر قليلًا. حتى وإن ترك عمله فلن يكون لديه نقص في المال، لكنه كان لا يزال يتُوق إلى الشهرة. من جهةٍ أخرى كان يشعر بأنه بحاجة للراحة. قال وهذه الأفكار تدور في رأسه:

«مم، دعنا نرى. كيف ترغب أن يُجرى صبغك بالضبط؟»

عند ذلك هدأ الغراب قليلًا.

وقال: «أرغب في بُقعٍ كبيرة باللونَين الأسود والأرجواني. نمط أنيق حقًّا، شبيه بذلك الذي يُوجد على ديباج كيوتو.»

ضايَق ذلك طائر الحِدَأة ثانيةً. فوقف على الفور وقال:

«حسنًا. سوف أصبغُك. خذ نفسًا عميقًا.»

وقف الغراب بسرور، وملأ صدره بالهواء بقَدْر ما يستطيع.

«تمام ... جاهز؟ أغلق عينَيك.» أمسك طائر الحِدَأة الغراب بإحكام بمنقاره، وغمسه كله مباشرةً في وعاء الحبر الصيني. كافح الغراب وكافح خوفًا من ألا يحصل على البقع الأرجوانية التي كان يريدها، لكن طائر الحِدَأة ما كان ليسمح له بالإفلات؛ وعندما تمكَّن الغراب أخيرًا من الخروج، وهو يبكي ويصرخ، كان أسود بالكامل. وفي حالة من الغضب طار مباشرةً من متجر الصباغة وذهب باتجاه منازل كل معارفه، وأخبرهم كم كان طائر الحِدَأة فظيعًا. بحلول ذلك الوقت، كانت قد سئمَت معظم الطيور الأخرى أيضًا من طائر الحِدَأة، فساروا جميعًا إلى متجره، ووضعوه هذه المرة في وعاء الحبر الصيني. تركوه لفترةٍ طويلة فيه إلى أن فقد وعيه في النهاية. ثم وبعد سحبه خارج الحبر وهو لا يزال فاقدًا للوعي، حطَّموا لافتتَه إلى قِطعٍ صغيرة، وذهبوا في طريقهم وهم يضحكون.

في وقتٍ لاحق، تمكَّن طائر الحِدَأة من استرداد عافيته بعض الشيء؛ لكنه كان قد أصبح عندها أسودَ تمامًا.

وتُرك مالك الحزين والبجعة باللون الأبيض الناصع.»

عندما توقف عن الحديث، التفَت ذكَر البوم بصمت لمواجهة القمر.

فقلتُ له: «لقد فهمتُ. لقد فهمتُ الآن. لكن إذا تأملنا الأمر، فقد كنتَ محظوظًا لأنك صُبغتَ في وقتٍ مبكر، أليس كذلك؟ أعني أن النمط الذي حصَلتَ عليه كان رائعًا بشدة. ...»

أثناء حديثي نهَضتُ، وتركتُ ذكَر البوم، وتوجَّهتُ مباشرةً إلى المنزل عَبْر ضوء القمر الزئبقي اللون الشديد السطوع والظلال السوداء للأشجار.

نجم صقر الليل

كان صقر الليل طائرًا قبيحًا جدًّا حقًّا. كان على وجهه بُقعٌ بنية مُحمرَّة كما لو أن أحدهم قد دهَنَه بمعجون الفاصوليا، وكان له منقارٌ مُسطَّح وفمٌ ممتد حتى أذنَيه. أما ساقاه فكانتا غير مستقرتَين لدرجة أنه بالكاد كان يستطيع المشي حتى بضع ياردات.

كان الوضع سيئًا للغاية بالنسبة له، لدرجة أن كل الطيور الأخرى كان عليها فقط أن تُلقي نظرة على وجهه حتى تنفر منه. حتى طائر القُبَّرة، الذي لم يكن جميلًا جدًّا، اعتبر نفسه أجمل بكثير من صقر الليل. إذا التقى صقر الليل وهو ينطلق في وقتٍ مبكر من المساء، كان يُدير رأسه عنه بعيدًا وعيناه مغمضتان؛ كما لو أن المنظر كان حقًّا أكثر مما يستطيع تحمُّله. أما الطيور الأصغر حجمًا التي تُحِب الثرثرة فكانت تقول دائمًا أشياءَ سيئةً عنه.

كان أحدهم يقول: «حسنًا! ها هو قادم مرةً أخرى. فقط انظروا إليه، يا رفاقي! هل رأيتم شيئًا مثله من قبلُ؟! إنه حقًّا وصمةُ عارٍ علينا نحن الطيور!»

«أتفق معك تمامًا. عجبًا، انظر إلى فمه الضخم! أنا متأكد من أن له صِلةً بالضفادع.»

وهلُمَّ جرًّا. لو كان فقط صقرًا عاديًّا بدلًا من صقر ليل، لكان اسمه وحده كافيًا لحمل تلك الطيور الصغيرة الحمقاء على الاختباء، وهم شاحبو الوجوه ويرتعدون خوفًا منكمشين، بين أوراق الشجر. لكن الحقيقة أنه لم يكن حتى له صِلة بالصقر. والمدهش بشدة أنه كان ينتمي إلى عائلة طائر الرفراف الجميل نفسها وجوهرة الطيور، طائر الطنَّان. وإن تلك العائلة بأكملها لم تكن تسبِّب أي أذًى للطيور الأخرى. فطائر الطنان كان يقتات على رحيق الأزهار، وطائر الرفراف كان يقتات على السمك، بينما كان طائر

صقر الليل يتغذى على صيد الحشرات المُجنحة. كما أن صقر الليل لم تكن لديه مخالبُ حادَّة ولا حتى منقارٌ حاد؛ لذلك لم يكن يخشاه أحد ولا حتى أضعف الطيور.

قد يبدو من الغريب حقًّا أن يُسمى صقرًا. في الحقيقة، كان يُوجد سببان لذلك. الأول هو جناحاه اللذان كانا قويَّين بشكلٍ استثنائي بحيث عندما كان يُحلِّق في الهواء كان أشبه تمامًا بالصقر. والثاني هو أن صياحه الحاد كان يُذكِّر الجميع أيضًا بالصقر الحقيقي.

هذا الأمر أزعج الصقر الحقيقي كثيرًا بالطبع. وفي كل مرة كان يَلمَح فيها صقر الليل، فإنه كان يرفع كتفَيه ويطلب منه بصوتٍ فيه وعيد أن يُغيِّر اسمه في أسرع وقت.

ثم، في وقتٍ مبكر من إحدى الأمسيات، زار الصقرُ بالفعل صقرَ الليل في منزله.

نادى عليه: «يا هذا ... هل أنت موجود؟ لماذا لم تُغيِّر اسمك حتى الآن؟ إنه لأمرٌ مُخزٍ! ألا ترى أننا نحن الاثنين مختلفان كليًّا؟ انظر إلى الطريقة التي أجوب بها أجواء السماء طوال اليوم، بينما أنتَ لا تخرج أبدًا على الإطلاق إلا ليلًا أو في الأيام المظلمة الملبَّدة بالغيوم. وانظُر إلى منقاري أيضًا. وقارنه بمنقارك!»

ردَّ صقر الليل: «أخشى أَنني لا أستطيع أن أفعل كما تقول. أنا لم أختَر اسمي؛ إذ قد منحَني إياه الرب.»

«هذا ليس صحيحًا. فاسمي هو الذي يُمكِن لأي شخصٍ أن يقول عنه إنه هبةٌ من الرب، بينما اسمك مستعار؛ نصفه مني ونصفه الآخر من الليل. لذا أعِدْه لي!»

«لكن لا يُمكِنني ذلك أيها الصقر.»

«كلَّا، يُمكِنك! سوف أُطلق عليك اسمًا آخر عوضًا عنه. الجرنون، الجرنون ... ما رأيك؟ هذا اسمٌ ملائم لك. وتذكَّر ... عندما تغيِّر اسمك يجب أن تقيم احتفالًا لتُعلم به الجميع. أفهمتَ؟ ما عليك فعلُه هو أن تمُر على كل واحد في منزله مُعلقًا لافتةً حول رقبتك مكتوبًا عليها «الجرنون»، ثم تنحني وتقول: «من الآن فصاعدًا أريد أن أكون معروفًا باسم الجرنون».»

«أوه، لا يُمكِنني فعلُ ذلك أبدًا!»

«كلا، يُمكِنك ذلك. عليك أن تقوم به! إذا لم تفعل ذلك حتى صباح بعد غد، فسوف آتي وأمزِّقك إربًا بمخالبي. لا تنسَ. في صباح بعد غد، سوف أمُر على جميع منازل الطيور الأخرى، وأسألهم عما إن كنت قد زُرتَهم أم لا. وإذا قال لي أحدهم إنك لم تزُره فسوف تكون هذه نهايتك!»

«لكن كيف تتوقع مني أن أقوم بشيء كهذا؟ أفضِّل الموت على ذلك. لذا بإمكانك قتلي الآن.»

«كُف عن ذلك، وخُذ وقتك في التفكير فيما قلتُه لك. إن اسم الجرنون ليس اسمًا سيئًا حقًّا على الإطلاق.» وبسَط الصقر جناحَيه الكبيرَين، وطار من المنزل باتجاه عشه.

جلس صقر الليل دون حَراكٍ مغمض العينَين وهو يفكر. «يا تُرى، لماذا يكرهني الجميع بشدة؟ في الواقع أنا أعرف السبب جيدًا. ذلك لأن وجهي يبدو وكأنه قد دُهن بمعجون فاصوليا وفمي ممتد من الأذن إلى الأذن. لكن في الحقيقة أنا لم أفعل أي شيءٍ سيئ قط في حياتي كلها. عجبًا، إنني حتى ذات مرة أنقذتُ صغير إحدى الطيور البيضاء العيون كان قد سقط من عُشه وأعَدتُه إلى منزله. لكن والدته على الفور انتزعَتْه مني كما لو أني كنتُ لصًّا. ثم سَخرَت مني. والآن — يا ويلي! — يريدون أن أضع لافتةً حول عنقي مكتوبًا عليها «الجرنون»! ماذا يجب أن أفعل؟»

بدأ الليلُ بالفعل يحلُّ حوله، فطار تاركًا عُشه. كانت الغيوم تسبَح في السماء على ارتفاعٍ منخفض وهي تتلألأ على نحوٍ منذر بالشؤم، وكاد صقر الليل أن يحتكَّ بها وهو يجوب السماء صامتًا.

فجأة، فتح فمه على اتساعه، وفرد جناحَيه إلى الوراء بشكلٍ مستقيم، ثم انطلق كالسهم عَبْر الهواء. وأخذ يلتهم، في طريقه، الحشرات الواحدة تلو الأخرى. ثم وقبل أن يلامس الأرض ارتفع في الهواء وانطلق نحو السماء عاليًا مرةً أخرى.

أصبحَت الغيوم الآن رمادية اللون، وتوهَّجَت قِمم التلال البعيدة باللون الأحمر.

في كل مرة كان يُهاجِم فيها صقر الليل الحشرات، كان يطير بسرعةٍ كبيرة، فيبدو وكأنه سيشُق السماء نصفَين. لكن في هذه الليلة كان يُوجد بين الحشرات التي التهَمَها خنفساء قاوَمَت بقوةٍ أثناء مرورها في حلقه. استطاع صقر الليل ابتلاعها على الفور، لكنه شعر بقُشَعْريرةٍ بسيطة تسري في ظهره أثناء ذلك.

الآن الغيوم كلها سوداء، عدا تلك الموجودة في الجهة الشرقية، حيث انعكس عليها اللون الأحمر المشئوم لشمس المغيب. حلَّق صقر الليل عاليًا مرةً أخرى في السماء وهو يشعُر بألمٍ شديد داخل معدته.

لقد ابتلع خنفساءَ أخرى، لكن تلك الخنفساء رفرَفَت بقوةٍ محاولةً الخروج كما لو أنها كانت تحُك حلقه. وعلى الفور أنزَلها بطريقةٍ ما، ولكن بينما كان يفعل ذلك خفَق قلبه، وبدأ بالبكاء بصوتٍ مرتفع. أخذ يدور ويدور حول السماء وهو يبكي طوال الوقت.

قال لنفسه: «يا ويلي، ها أنا أكون كل ليلة هنا أقتُل الخنافس ومختلف أنواع الحشرات. لكن الآن سوف أُقتل على يد الصقر، ولا يُوجد صقرُ ليلٍ آخر غيري. فلا عجب أنني أشعر

ببؤسٍ شديد. سوف أتوقف عن تناوُل الحشرات وأجوع حتى الموت. لكني أتوقع أن الصقر سيقتُلني قبل أن يحدُث ذلك. لا ... سوف أهرُب بعيدًا، بعيدًا قبل أن يتمكن من الوصول إليَّ.»

كان الضوء الأحمر للشمس ينتشر تدريجيًّا كالماء، وبدت الغيوم كما لو أنها كانت هي نفسها تشتعل.

طار صقر الليل مباشرةً إلى منزل أخيه الأصغر منه، طائر الرفراف. ومن حسن الحظ أن هذا الطائر الوسيم كان لا يزال مستيقظًا يراقب قمم التلال الحمراء البعيدة.

قال وهو يشاهد صقر الليل يطير لأسفل نحوه: «مرحبًا، ما الذي أتى بك إلى هنا بشكلٍ غير مُتوقَّع؟»

«كل ما في الأمر أنني سوف أرحل بعيدًا، وأردتُ أن أراك قبل أن أذهب.»

«لا يمكن أن ترحل! فطائر الطنَّان يعيش بعيدًا أيضًا، وهكذا سأبقى هنا وحيدًا.»

«أخشى أن ذلك لا يمكن تجنُّبه؛ لذلك لا تتفوَّه بالمزيد بهذا الشأن. وتَذكَّر ... أن تحاول ألا تصطاد سمكًا فوق حاجتك. أرجوك. ... وداعًا.»

«ماذا حدث؟ يا هذا ... لا تذهب الآن!»

«لا. لن يكون هناك أي اختلاف إذا مكثتُ هنا لوقتٍ أطول. بلِّغ طائر الطنَّان خالص محبتي له عندما تراه. وداعًا. لن نلتقي مرةً أخرى أبدًا. الوداع.»

اتجه صقر الليل نحو منزله وهو ينتحب. كان الليل الصيفي القصير يُفسِح المجال لطلوع فجر يومٍ جديد.

أخذَت أوراق نباتات السرخس تتمايل باللونَين الأخضر والذهبي، منتشيةً بسديم الصباح. أخذ صقر الليل يصرُخ بصوتٍ عالٍ وحاد. ثم نظَّف ورتَّب عُشه، ومشَّط ريش كامل جسده، وانطلق محلقًا مرةً أخرى.

تبدَّد السديم وأشرقَت الشمس لتَوها. كانت شديدة الوهج مما جعل صقر الليل يتردَّد للحظة، لكنه ثابَر واستمَر في طيرانه للأمام مباشرةً نحو الشمس.

وقال: «يا شمس، يا شمس! ألن تأخذيني معك لأعلى؟ سأكون مسرورًا بالموت في نارك إذا اضطُررت لذلك. قد يكون جسدي قبيحًا، لكن من المؤكد أنه سوف يصدُر عنه على الأقل قليل من الضوء وهو يحترق. هل ستأخُذينني معكِ لأعلى؟»

لكن وبالرغم من طيرانه أبعَد وأبعَد، فإنه لم يقترب من الشمس. في الواقع، بدا أنها قد أصبحَت أصغر حجمًا، ومع ذلك أبعَد.

قالت الشمس: «أنت صقر الليل، أليس كذلك؟ أعتقد أنك قد مرَرتَ بأوقاتٍ عصيبة حتى تطلب مني ذلك. لماذا لا تُحلِّق عاليًا في السماء هذه الليلة وتطلب من النجوم ذلك عوضًا عني؟ فأنت، كما تعلم، في الواقع أحد الطيور الليلية.»

انحنى صقر الليل على نحوٍ ما، لكنه فجأةً فقد توازُنه، وبدأ يتهاوى شيئًا فشيئًا، حتى سقط على العشب في السهل أدناه.

لبُرهة، كان كل شيء يبدو كالحُلم. فقد بدا لصقر الليل أنه كان يصعد عاليًا بين النجوم الحمراء والصفراء، أو أنه قد جرفَتْه الرياح بعيدًا بعيدًا، أو أن الصقر قد جاء وكان يمزِّقه بمخالبه.

بعد ذلك، سقط شيءٌ بارد على وجهه، وفتح عينَيه. لقد كانت حبات الندى تقطر من ساق عشبة بامباس صغيرة. كان الظلام شديدًا، وكانت السماء النيلية الداكنة مغطاةً تمامًا بالنجوم المتلألئة. حلَّق صقر الليل عاليًا في السماء. وكانت قمم التلال تتوهج باللون الأحمر مرةً أخرى تلك الليلة، فوجد صقر الليل نفسه وهو يُحلق بين الوهج الخافت لهذا الضوء والضوء البارد للنجوم أعلاه. ومرةً أخرى أخذ يطير عَبْر السماء، ثم فجأةً اتخذ قراره وطار مباشرةً لأعلى نحو كوكبة أوريون في الغرب.

نادى أثناء ذهابه: «أيتها النجوم! يا نجوم الغرب البيضاء المُزرقَّة! ألن تأخُذيني إليكِ؟ أنا على استعداد للموت في نيرانكِ إذا كنتِ تريدينني.»

لكن أوريون كانت مشغولةً للغاية بغناء أغانيها الشجاعة بحيث لا تُلقي أدنى انتباه لشيءٍ تافه مثل صقر الليل. وهكذا مترنحًا وعلى وشك البكاء، هبط صقر الليل حتى وصل في النهاية إلى مكان على الأرض ليأخذ قسطًا من الراحة. مرةً أخرى دار حول السماء. ثم ذهب إلى أعلى مباشرةً مرةً أخرى، هذه المرة باتجاه كوكبة الكلب الكبير في الجنوب.

نادى عليها وهو يصعد: «أيتها النجوم! يا نجوم الجنوب الزرقاء! ألن تأخُذيني إليكِ؟ سوف أكون مسرورًا بالموت في نيرانكِ، إذا لزم الأمر.»

قالت كوكبة الكلب الكبير وهي مشغولة بالوميض بالألوان الأزرق والأرجواني والأصفر: «لا تتحدث بهذا الهُراء! من تظن نفسك؟ إنك مُجرَّد طائر؛ هذا كل شيء. عجبًا، للوصول إلى هنا بجناحَيك ستحتاج لمئات وآلاف وملايين المليارات من السنين!» وأدارت وجهها عنه.

شاعرًا بخيبة أمل، رجع صقر الليل مترنحًا إلى الأرض. طار حول السماء مرتَين. ثم استجمع شجاعته مرةً أخرى، وطار بشكلٍ مستقيم لأعلى نحو كوكبة الدب الكبير في الشمال.

صاح بينما كان يصعد: «يا نجوم الشمال الزرقاء! ألن تأخُذيني إليكِ؟»

قالت كوكبة الدب الكبير بهدوء: «يجب ألا تقول أشياءَ ليس من المفروض أن تقولها. اذهب واسترخِ قليلًا. في أوقاتٍ كهذه، من الأفضل الغوص في مسطَّحٍ مائي به جبالٌ جليدية، لكن إذا لم يكن هناك واحدٌ قريب منك، فإن كوبًا من الماء المثلَّج سيَفي بالغرض.»

نزل صقر الليل بحزن على نحوٍ متعرج باتجاه الأرض مرةً أخرى. لكنه دار حول السماء أربع مراتٍ أخرى. ثم نادى للمرة الأخيرة على كوكبة العُقاب التي صعِدَت للتو على الضفة المقابلة لمَجرَّة درب التبانة.

«يا نجوم الشرق البيضاء! ألن تأخُذيني إليكِ؟ سأكون مسرورًا بأن أموت في نيرانك إذا اضطُررت لذلك.»

قالت كوكبة العُقاب بغرور: «يا إلهي، لا ... هذا غيرُ واردٍ تمامًا! يجب أن تتمتَّع بالمكانة الاجتماعية اللائقة لكي تصبح نجمًا. وهذا يتطلب مالًا كثيرًا أيضًا.»

فقدَ صقر الليل كامل قُواه المتبقية. وهبط نحو الأرض طاويًا جناحَيه. لكن عندما أصبحَت ساقاه الضعيفتان على بُعد بوصاتٍ فقط من الأرض، انطلَق فجأةً مرةً أخرى عاليًا كالصاروخ. وعندما وصل للمناطق الوسطى من السماء، هزَّ جسمه بقوة، ونفض ريشه تمامًا كما يفعل النَّسر قبل مهاجمة دب.

أخذ يصيح ويصيح بصوتٍ خشِن وحاد. لقد كان صوت الصقر، وجميع الطيور التي كانت نائمة في السهول وفي الغابة بالأسفل استيقَظَت وارتجَفَت وهي تنظر متسائلةً لأعلى نحو السماء المُرصَّعة بالنجوم.

أخذ صقر الليل يصعد بشكلٍ مستقيمٍ أعلى فأعلى، أعلى من أي وقتٍ مضى. الآن لم تكن قِمم التلال المتوجِّهة بالأسفل أكبر من سيجارةٍ مشتعلة، ومع ذلك استمَر بالصعود. تجمَّدَت أنفاسه في صدره من شدة البرد، وأصبح الهواء خفيفًا جدًّا، فكان عليه أن يُحرِّك بجناحيه أكثر فأكثر بشكلٍ محموم ليُحافِظ على تقدُّمه.

لكن بالرغم من ذلك لم يتغيَّر حجم النجوم. وأثناء تنفُّسه كان صقر الليل يُصدِر صفيرًا كصفير المنفاخ. وكالشفرة كان الهواء المتجمد يخترق جسده. وفي النهاية تخدَّر جناحاه تمامًا وأصبَحا غير قادرَين على الطيران. ثم، بعينَين ممتلئتَين بالدموع حدَّق مرةً أخرى نحو السماء ... وكانت تلك هي النظرة الأخيرة لصقر الليل. فلم يعُد يعرف ما إذا كان يسقُط أم يصعد، وما إذا كان متوجهًا للأعلى أم للأسفل. لكن قلبه كان في سلامٍ الآن، ومنقاره الكبير الملطَّخ بالدماء، رغم أنه ملتوٍ قليلًا، كان يبتسم قليلًا بالتأكيد، أيضًا.

بعد فترةٍ قصيرة، فتح صقر الليل عينَيه، ورأى بوضوحٍ تام أن جسده كان يتوهج بلطف بضوءٍ أزرقَ جميل مثل وهج الفوسفور.

بجانبه كانت تُوجد كوكبة كاسيوبيا. وخلفه تمامًا كان يسطع الضوء الأبيض المُزرَق لَمجرَّة درب التبانة.

استمَر نجم صقر الليل بالتوهج. أخذ يتوهَّج إلى الأبد. وما زال يتوهَّج حتى يومنا هذا.

هنداوي